وفي رواية البخاري : (وإذا كره شيئاً عُرف في وجهه ﷺ) .

ومن المعلوم أن المرأة العذراء ، وهي البكر المستترة في خدرها - أي : في ناحية بيتها أو خيمتها - تكون شديدة الحياء ، فلقد كان رسول الله ﷺ أشد حياء منها .

والحياء خُلُق يبعث على اجتناب القبيح ، ويمنع من التقصير في حق ذى الحق ، ولذلك قال ﷺ : « استحيوا من الله حقّ الحياء » .
فقالوا : إنا لنستحيي من الله والحمد لله .

قال ﷺ : « ليس ذلك ، ولكن الحياء من الله هو : أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى » إلى تمام الحديث - كما تقدم في جملة الأربعين ، وفيه بيان أن الحياء يحمل صاحبه على فعل الكمال ، ويمنعه من النقصان .

وقال ﷺ : « الحياء لا يأتي إلا بخير » كما في البخاري .

وقد بلغ من حيائه ﷺ أنه لم يواجه أحداً بما يكرهه ، بل يعرّض بذلك ، أو يأمر بعض الصحابة من يصارح بذلك الرجلَ المقصِّر :

روى أبو داود والترمذي وغيرهما عن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ لا يواجه أحداً في وجهه بشيء يكرهه ، فدخل عليه يوماً رجل وعليه أثر صُفرة ، فلما قام قال لأصحابه : « لو أمرتم هذا أن يغسل هذه الصفرة » .

وروى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان

رسول الله ﷺ إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل ما بال فلان ، ولكن يقول : ما بال أقوامٍ يقولون كذا وكذا) .

ومن ذلك حياؤه ﷺ من القوم الذين أطالوا الجلوس عنده بعد الأكل ، فاستحيا أن يقول لهم انصرفوا ، حتى نزلت الآية في ذلك .

كما في (صحيح) البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه قال : (كان رسول الله ﷺ عروساً بزينب ، فقالت لي أم سُليم : لو أهدينا إلى رسول الله ﷺ هدية .

قال أنس : فقلت لها : افعلي .
فعمَدتْ إلى تمر وسمن وأقِط ، فاتخذتْ حَيْسة في بُرْمة فأرسلت بها معي ، فانطلقتُ بها إليه .
فقال : « ضَعْها » ثم أمرني فقال لي : « ادعُ رجالاً - سماهم - وادعُ لي مَن لقيتَ » ففعلت الذي أمرني .

فرجعت فإذا البيت غاص بأهله ، ورأيت رسول الله ﷺ وضع يده في تلك الحَيْسة ، وتكلم بما شاء الله ، ثم جعل يدعو عَشَرةً عشرةً يأكلون منه ، ويقول لهم : « اذكروا اسم الله ، وليأكلْ كل رجل مما يليه » حتى تصدَّعوا كلهم .

وفي رواية مسلم : قيل لأنس : عَدَدَكَمْ كانوا ؟
قال : زُهاء ثلاثمائة - فخرج من خرج ، وبقي نفر يتحدثون .
وفي رواية مسلم : وكان النبي ﷺ شديدَ الحياء - أي : استحيا أن

يقول لهم انصرفوا - ثم خرج النبي ﷺ نحو الحُجُرات ، وخرجتُ أثَرَه ، فقلت : إنهم قد ذهبوا .

فرجع النبي ﷺ فدخل البيت وأرخى السِّتر وإني لفي الحجرة ، وهو يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا : لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يُؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكنْ إذا دُعيتم فادخلوا ، فإذا طَعِمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يُؤذي النبي ، فيستحيي منكم ، والله لا يستحيي من الحق . . ﴾ الآية) .

والمراد أنه ﷺ يستحيي حياءَ كرم أن يقول لهم انصرفوا ، وهم جلوس عنده ، والله لا يستحيي من بيان الحق الواجب اتباعُه ، وهذا لا ينافي أنه سبحانه متصف بحياء الكرم اللائق بمقام ربوبيته تعالى ، كما قال ﷺ : « إن ربكم حييٌ كريم ، يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردَّهما صُفْراً » أي : خاليتين - رواه الترمذي وغيره .

فباعتبار أن إطالة الجلوس كانت عنده ﷺ في بيته استحيا منهم أن يُصارحهم في الأمر ، كرماً منه ، ولكن الموقف يتطلب بيان الحق في ذلك لا محالة ، فجاء القرآن بالبيان ؛ من الملك الديَّان ؛ جل وعلا .

وقد ذكر العلماء للحياء أنواعاً لتنوّع أسبابه :

فمن ذلك : حياء الكرم ، وسببه كرم النفس ، كاستحيائه ﷺ من القوم لما أطالوا الجلوس عنده ، كما تقدم .

ومن ذلك : حياء الإجلال : وهو حياءٌ سببه المعرفة بعظمة المستحيا منه ، وعلى قدر معرفة العبد بربّه يكون حياؤه سببه منه سبحانه .

ولا ريب أنه ﷺ أعلم خلق الله تعالى ، بالله تعالى وبعظمة ربوبيته ، كما تقدم في حديث الصحيحين أن النبي ﷺ قال : « أما والله إني لأعلمُكم بالله ، وأتقاكم له » .

ومن ذلك : حياء المحبة : وهو حياء المحبِّ من محبوبه ، حتى إنه لتمرُّ على قلب المحب ذكريات المحبوب فتزيده حياءً ووَجَلاً من محبوبه .

ومن ذلك : حياء العبودية : وهو حياء يمتزج بين محبةٍ وخوفٍ ، ومشاهدةِ أن قدر معبوده سبحانه ، هو أجلُّ وأعلى من العبادة والعبودية التي يتقرب بها إليه .

ومن ذلك : حياء المرء من نفسه : وهو حياء صاحب النفس الشريفة الكريمة ، من النقص وفعل القبيح ، والقناعة بالدون ، فيجد نفسه مستحيياً من نفسه ، حتى كأن له نفسين يستحيي بإحداهما من الأخرى .

ومن ذلك : حياء الحشمة : وهو حياءٌ سببه الاحتشام ، وتوقي إبداء ما يُطلب فيه الاخفاء .

روى ابن ماجه عن بلال بن الحارث رضي الله عنه : (أن النبي ﷺ كان إذا أراد الحاجة أبعَدَ) - أي : قصد مكاناً بعيداً منعزلاً[1] .

وروى الترمذي وأبو داود عن أنس رضي الله عنه : (أن النبي ﷺ

(١) ورواه الإمام أحمد والنسائي ، كما في (الجامع الصغير) ، رامزاً لصحته لكثرة طرقه .

كان إذا أراد الحاجة لم يرفع ثوبه حتى يدنوَ من الأرض)[1] .

وروى ابن سعد عن سعد بن صالح مرسلاً : (أن النبي ﷺ كان إذا دخل المرفق[2] لبس حذاءه ، وغطى رأسه ﷺ) .

وروى الإمام الترمذي في (الشمائل) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : (ما نظرتُ إلى فرج رسول الله ﷺ - أو قالت : ما رأيت فرج رسول الله ﷺ) ، وذلك لشدة حيائه وكمال وقاره ﷺ وتستُّره كل التستُّر .

وفي (شرح الشمائل) للشيخ القاري والشيخ محمد بن قاسم جسوس : روى أبو صالح ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (قالت عائشة رضي الله عنها : ما أتى رسول الله ﷺ أحداً من نسائه إلا مُقنَّعاً ، يُرخي الثوب على رأسه ، وما رأيت من رسول الله ﷺ ولا رأى مني) ، أورده ابن الجوزي في كتاب (الوفاء) نقلاً عن الخطيب اهـ .

وأخرج البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان رسول الله ﷺ يغتسل من وراء الحجرات ، وما رأى أحد عورته قطُّ) . وإسناده حسن[3] .

وبهذا الذي ذكرناه فيما تقدم ، يعلم العاقل يقيناً أن سيدنا محمداً ﷺ قد نال أكمل مراتب الحياء وأعلاها .

(١) رواه الطبراني في (الأوسط) ، كما في (الجامع الصغير) .

(٢) قال المناوي : المرفق بكسر الميم وفتح الفاء : الكنيف اهـ . والحذاء : النعل - وهذا الحديث فيه ضعف .

(٣) كذا في (جمع الوسائل) للشيخ علي القاري .

مهابته العظيمة ﷺ وفخامته الكريمة

كان رسول الله ﷺ عظيمَ المهابة ، قد توَّجَهُ الله تعالى تاج العزَّة والكرامة ، وكساه حلَّة الفخامة :

روى الترمذي وغيره من حديث هند بن أبي هالة ، يصف النبي ﷺ فقال : (كان رسول الله ﷺ فخماً مفخَّماً يتلألأ وجهه ﷺ تلألؤ القمر ليلة البدر) .

وقال سيدنا علي رضي الله عنه في وصفه للنبي ﷺ : (من رآه بديهةً هابه ، ومن خالطه معرفةً أحبَّه) .

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم لا يستطيعون إمعان النظر فيه ، لقوة مهابته ومزيد وقاره ، ومن ثمَّ لم يَصِفْه إلا صغارهم ، أو من كان في تربيته قبل النبوة ، كهند بن أبي هالة ، وسيدنا علي رضي الله عنه .

ويدلُّك على ذلك ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : (صحبت رسول الله ﷺ صحبة طويلة ، وسمعت منه أحاديث كثيرة ، وحفظت عنه ألف مَثَلٍ ، ومع ذلك ما ملأتُ عينيَّ منه قطُّ ، حياءً منه وتعظيماً له ، ولو قيل لي صفهُ : لما قدرتُ) .

ومن عظيم مهابته وكمال وقاره : كانَ من جلس إليه ﷺ هابه ، وربما أخذتْه رِعدة شديدة ، من قوة الهيبة المحمدية ، ولذلك كان ﷺ يُباسطهم ويلاطفهم ليسكن رَوْعهم :

روى ابن ماجه والحاكم عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال :

جاء رجل فقام بين يدي النبي ﷺ ، فأخذته رِعدة شديدة ومهابة .

فقال له النبي ﷺ : « هوِّن عليك ، فأنا لستُ بملك ولا جبار ، وإنما أنا ابن امرأة من قريش ، كانت تأكل القديد بمكة »[1] .

فنطق الرجل بحاجته[2] فقام النبي ﷺ فقال : « يا أيها الناس إني أوحي إليَّ أنْ تواضَعوا ، ألا فتواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ، ولا يفخر أحد ، وكونوا ـ عبادَ الله ـ إخواناً » .

وعن قَيْلة بنت مَخْرَمة أنها قالت : لما رأيت رسول الله ﷺ متخشِّعاً في الجِلْسة وهو قاعد القُرفُصاء ، أُرعِدْتُ من الفَرَق ـ أي : الخوف ـ فقال رجل : يا رسول الله أُرْعِدَتِ المسكينة ! .

قالت قَيْلة : فقال رسول الله ﷺ ـ ولم ينظر إليَّ وأنا عند ظهره ـ : « يا مسكينة عليكِ السكينة » .

فلما قالها أذهب الله ما كان دخل قلبي من الرعب .

وفي هذه الوقائع مع بعض الصحابة دليل ظاهر على قوة مهابته ﷺ .

ومن ذلك ما جاء عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال : إني لأضربُ غلاماً لي ـ أي : يضرب عبداً مملوكاً له بسبب أنه أذنب معه ـ إذْ سمعتُ صوتاً من خلفي ، « اعلمْ أبا مسعود » قال : فجعلتُ

(١) القديد هو اللحم يقطع ويجعل في الشمس حتى يجف ، وكانت عادة العرب أكله ، فكنى ﷺ بذلك عن عدم تكبره وتجبره .

(٢) أي : نطق بحاجته حين رأى تواضع النبي ﷺ ، وسكن روعه .

لا ألتفت إليه من الغضب حتى غشيني ، فإذا هو رسول الله ﷺ .

قال أبو مسعود : فلما رأيته ﷺ وقع السوط من يدي ، من هيبته ﷺ ! .

فقال لي : « والله : الله أقدرُ عليك منك على هذا » .

فقلت : والله يا رسول الله لا أضرب غلاماً لي بعدها أبداً .

وفي رواية : فقلت يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى .

فقال : « أما لو لم تفعل للفَحَتْك النار ـ أو : لمسَّتْك النار » ، رواه مسلم وأبو داود والترمذي .

وعن زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنها وعنه قالت : قال رسول الله ﷺ : « تصدَّقْنَ يا معشر النساء ولو من حُليكُنَّ » .

قالت : فرجعت إلى عبد الله بن مسعود فقلت له : إنك رجل خفيفُ ذاتِ اليد ـ أي : قليل المال ـ وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة ، فأتِه فاسأله ، فإنْ كان ذلك يجزىء عني ـ أي : دفعتُها لكم ـ وإلاّ صرفْتُها إلى غيركم ، فقال ابن مسعود : بل ائتيه أنتِ .

قالت : فانطلقتُ فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ حاجتي حاجتُها ـ وكان رسول الله ﷺ قد أُلقيتْ عليه المهابة ـ فخرج علينا بلال فقلنا له : ائتِ رسول الله ﷺ فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانِك : أتجزىء الصدقةُ عنهما على أزواجهما ، وعلى أيتام في حُجورهما ؟ ـ أي : في تربيتهما ـ ولا تخبره مَنْ نحن .

فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله .

فقال له رسول الله ﷺ : « مَن هما ؟ » .

فقال : امرأة من الأنصار وزينب .

فقال ﷺ : « أيُّ الزيانب هي ؟ » قال : امرأة عبد الله .

فقال رسول الله ﷺ : « لهما أجران : أجْر القرابة ، وأجر الصدقة » متفق عليه .

خشيته ﷺ من الله تعالى وخوفه منه

كان رسول الله ﷺ أشدَّ الناس خشيةً من الله تعالى ، وذلك لأنه أعلمهم بالله تعالى ، والخشية من الله تعالى تكون على حسب العلم به تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله مِن عباده العلماءُ . . ﴾ الآية .

وفي (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : صنع رسول الله ﷺ شيئاً ترخَّص فيه ، وتنزَّه عنه قوم ، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال : « ما بالُ أقوامٍ يتنزَّهون عن الشيء أصنعه ؟! فوالله إني لأعلمُهم بالله ، وأشدُّهم له خشية » .

١ ـ وفي هذا الحديث : الحثُّ الشديد على الاقتداء بالنبي ﷺ ، والنهي عن التعمُّق .

٢ ـ وفيه ذمُّ التنزُّه عن المباح شكاً في إباحته ، وأن العلم بالله تعالى يوجب اشتدادَ الخشية منه سبحانه ، دون أن يكون هناك إفراط أو تشدُّد في الأعمال ـ كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى .

٣ ـ وفي هذا الحديث : بيان منه ﷺ وإعلانُ أفضليته على جميع

العباد ، بالعلم بالله تعالى ، والخشية من الله تعالى ، وأن الله تعالى قد أعطاه أفضل وأكمل مقام في المعرفة والخشية .

وقد قال العارفون رضي الله عنهم : إن مقام المعرفة بالله تعالى والخشية من الله تعالى إذا أُكْمِلا لصاحبهما ، وانتهى إلى درجة المعرفة حقَّ المعرفة ، والخشية حقَّ الخشية : ظهرت عليه آثارهما ، وصحت له أحكامهما ، كما رُوي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً : « لو خِفْتم الله تعالى حقَّ خيفته ، لعلمتم العلم الذي لا جهل معه ، ولو عرفتم الله تعالى حقَّ معرفته لزالتْ لدعائكم الجبال »[1] .

فما ظنك بسيدنا محمد ﷺ الذي نال أعلى مقام في المعرفة بالله تعالى ، وأرفع مقام في الخشية من الله تعالى ؟! ومهما تصوَّرت وقدَّرتَ من آثارهما وأحكامهما فالأمر أعظم من ذلك ، ولا غروَ في ذلك وقد قال الله تعالى : ﴿ وكان فضلُ الله عليك عظيماً ﴾ .

وروى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال : خطب رسول الله ﷺ خطبةً ما سمعتُ مثلَها قطُّ ، فقال :

« لو تعلمون ما أعلم : لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً » .

فغطّى أصحابُ رسول الله ﷺ وجوههم لهم خنين .

وفي رواية : بلغ رسولَ الله ﷺ عن أصحابه شيءٌ ، فخطب فقال : « عُرضت عليَّ الجنة والنار ، فلم أرَ كاليوم في الخير والشرّ ، ولو تعلمون ما أعلم : لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً » .

---

(١) عزاه في (الجامع الصغير) إلى الحكيم الترمذي رامزاً لضعفه .

فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يومٌ أشدُّ منه ، غطَّوا رؤوسَهم ولهم خنين [1] .

وفي هذا الحديث دليل على عظيم خوفه من الله تعالى ، وكثرة بكائه من خشية الله تعالى .

ومما جاء في عظيم خوفه من الله تعالى :

ما ورد عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ في بيتي ، وكان بيده سواك ، فدعا وصيفة [2] ـ له أو لها ـ حتى استبان الغضب في وجهه [3] وخرجت أم سلمة إلى الحُجُرات فوجدت الوصيفة تلعب بِبَهْمة [4] .

فقالت أم سلمة : ألا أراكِ تلعبين بهذه البَهْمة ورسولُ الله ﷺ يدعوكِ ؟ .

فقالت : والذي بعثكَ بالحق ما سمعتكَ .

فقال رسول الله ﷺ : « لولا خشيةُ القَوَد ـ أي : القصاص يوم القيامة ـ لأوجعتُكِ بهذا السواك » [5]

(١) قال الحافظ المنذري بعد ما أورد تلك الأحاديث : الخنين بفتح الخاء المعجمة بعدها نون هو البكاء مع غُنة بانتشار الصوت من الأنف . اهـ .

(٢) امرأة مملوكة .

(٣) لاشتغالها في اللعب ، ولم تجب دعوته ﷺ .

(٤) ولد الضأن الصغير .

(٥) قال في (الترغيب) : رواه أحمد بأسانيد أحدها جيد ـ واللفظ له ـ ورواه الطبراني بنحوه .

خشوعه ﷺ لله تعالى
وبكاؤه من خشية الله تعالى

كان رسول الله ﷺ دائمَ الخشوع والانكسار والتواضع لربه تعالى ، في سائر مواقفه الكريمة ومشاهده العظيمة ، في صلواته وسائر عباداته ، وسائر شؤوناته وقضاياه : من الخطب والمواعظ والفتوحات ، وسائر أحواله ﷺ .

وقد بلغ من خشوعه ﷺ في صلاته أنه سُمع لجوفه أزيز كأزيز المِرْجَل :

كما روى النسائي عن مطرِّف عن أبيه رضي الله عنه قال : (رأيت رسول الله ﷺ يصلي ولجوفه أزيزٌ كأزيز المرجل) [1] .

وفي رواية ابن خزيمة : قال : (ولصدره ﷺ أزيز الرحى) .

وفي رواية أبي داود عن مطرِّف عن أبيه قال : (رأيت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء) .

وروى ابن خزيمة في (صحيحه) عن علي كرم الله تعالى وجهه قال : (ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم ، إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي ، حتى أصبح ﷺ) .

(١) المرجل هو القِدْر ، والأزيز هو الصوت . قال الحافظ المنذري : يعني أن لجوفه خنيناً كصوت غليان القدر إذا اشتد . اهـ .

ولما دخل مكة يوم الفتح دخلها خاشعاً لربه تعالى ، وكان على مشهد عظيم من الملأ الحاضر :

روى أبو يعلى والحاكم بسند جيد قوي عن أنس رضي الله عنه قال : (لما دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح استشرفه الناس ، فوضع رأسَه على رَحْله متخشِّعاً) .

وفي رواية البيهقي عن أنس قال : (دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذَقَنُه على راحلته متخشعاً) .

وفي رواية الواقدي عن أبي هريرة رضي الله عنه : (دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح حتى وقف بذي طوى وتوسَّط الناس ، وإن عُثْنونه ـ العثنون : اللحية ـ ليمَسُّ وسط رحله أو يقرب منها ، تواضعاً لله تعالى حين رأى ما رأى من فتح الله وكثرة المسلمين ـ ثم قال : « اللهم لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة ») .

ومن ذلك : خشوعه ﷺ وبكاؤه في توجّهه إلى الله تعالى ، ملحّاً بالدعاء ، مستغرقاً في الرجاء :

روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : (تلا رسول الله ﷺ : ﴿ ربِّ إنّهن أضللْنَ كثيراً من الناس ، فمن تبعني فإنه مني ، ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنْ تعذبْهم فإنهم عبادك وإن تغفرْ لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

فرفع ﷺ يديه وقال : « اللهم أُمتي أمتي » وبكى .

فقال الله عز وجل : يا جبريل إذهبْ إلى محمد ـ وربُّك أعلم ـ فاسْأله : ما يُبكيه ؟

فأتاه جبريل فسأله ، فأخبره بما قال ـ وهو أعلم ـ

فقال الله تعالى : يا جبريل إذهبْ إلى محمد فقل له : إنا سنُرضيك في أمتك ولا نسوؤك) .

جوامع من أوصافه الكريمة ﷺ المشتملة على محاسن خلقه ، وكمال خلقه وآدابه الخاصة والعامة

إن مِن أجمع الأحاديث الواردة في بيان أوصاف النبي ﷺ الخَلْقية والخُلقية ، وما يتعلق بأدابه الخاصة والعامة ، ومن أوضح تلك الأحاديث المعربة عن شمائله ﷺ حديثَ هند بن أبي هالة .

روى الترمذي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قال : سألت خالي هند بن أبي هالة ـ وكان وصَّافاً ـ عن حِلْية رسول الله ﷺ ، وأنا أشتهي أن يصفَ لي منها شيئاً أتعلَّق به[1] فقال :

(كان رسول الله ﷺ فَخْماً مُفَخَّماً[2] يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلةَ

(١) أي : أحفظه وأتمسك به
قال العلماء : وإنما قال الحسن ذلك ، لأن النبي ﷺ توفي وهو صغير السن ، فأراد أن يستعيد إلى ذاكرته تلك الأوصاف المحمدية ويجعلها محفوظة في خزانة قلبه ، ولوح خياله .

(٢) أي : عظيماً في نفسه ، معظَّماً في الصدور والعيون عند كل من رآه ﷺ .

البدر ، أطولَ من المربوع ، وأقصرَ من المُشَذَّب [1] ، عظيمَ الهامة [2] ، رجِلَ الشَّعر [3] ، إذا انفرقتْ عقيقتُه فَرَقَها ، وإلا فلا [4] ، يُجاوز شعره شحمةَ أُذُنَيه إذا هو وفَّره [5] .

أزهرَ اللون [6] ، واسعَ الجبين [7] ، أَزَجَّ الحواجب [8] ، سوابغَ في

(١) الرَّبْعة والمربوع : هو الوسط ، بين القصير والطويل على حد سواء ، والمشذَّب : هو الطويل البائن الطول ، والمراد : أنه ﷺ أطول من المربوع عند إمعان النظر ، وأما في بادىء النظر يُرى ربعة ، كما تقدم في حديث علي كرم الله وجهه ـ كما وضح ذلك في (جمع الوسائل) وغيره .

(٢) الهامَة : بتخفيف الميم هي:الرأس ، وعِظَم الرأس المتناسب مع الجسم : دليل قوة العقل والمدارك .

(٣) أي : في شعره ﷺ شيء من الجعودة .

(٤) المراد بالعقيقة هنا : شعر الرأس ، والمعنى : أن شعر رأسه الشريف ﷺ إن قَبِل أن يفرق بسهولة فرقه ، أي : جعل شعره نصفاً عن اليمين ، ونصفاً عن اليسار ، وإلا بأن لم ينفرق : فلا ، أي : فلا يفرق شعره بل يتركه على حاله .

(٥) أي : إذا جعل شعره وافراً وأعفاه من الفرق ﷺ .

(٦) أي : هو ﷺ أبيض اللون بياضاً نيِّراً مُشْرَباً بحمرة .

(٧) أي : واضح الجبين وممتده طولاً وعرضاً ، وهو معنى رواية : صلت الجبين ، وعظيم الجبهة .

(٨) الزَّجَج : تقوُّس في الحاجب مع طولٍ من طرفه ، ويلزم من ذلك دقة الحاجبين وسبوغهما .

غير قَرَن [1] ، بينهما عِرْق يُدِرُّه الغضب [2] .

أقنى العِرْنين [3] ، له نورٌ يعلوه ، يحسَبه من لم يتأمله أَشَمَّ [4] .

كَثُّ اللحية [5] ، سهلَ الخدَّين [6] ، ضليعَ الفم [7] ، مفلَّج الأسنان [8] .

(١) القَرَن ـ بالتحريك ـ هو : اقتران الحاجبين ، والتقاء أطرافهما ، وهو من البَلَج ، والمعنى : أن حاجبيه ﷺ لم يتصلا ببعضهما ، فهو أبلج ، وأما ما ورد في حديث أم معبد المتقدم (كان أزجَّ أقرن) فالمراد كان كذلك فيما يبدو للناظر من بعيد ومن غير تأمل ، وأما القريب المتأمِّل فيرى أنه ﷺ أبلج في الواقع .

(٢) أي : بين حاجبيه ﷺ عِرْق إذا غضب تحرك وظهر جليّاً .

(٣) قال العلامة المناوي في (شرح الشمائل): أقنى : من القنا ، وهو ارتفاع أعلى الأنف واحْديدابُ الوسط . اهـ .

(٤) أي : للعِرنين ـ وهو ما صلب من عظم الأنف ـ نورٌ يعلوه ، يحسبه من لم يتأمله أشمَّ : من الشمم ، وهو ارتفاع قصبة الأنف ، مع استواء أعلاه وإشراف الأرنبة .

(٥) أي : عظيم اللحية ﷺ .

(٦) وفي رواية البيهقي : (أسهل الخدين) أي : غير مرتفع الخدين ، وهو أكمل وأجمل .

(٧) أي : عظيم الفم ، وليس بضيِّق الفم ، فإن سعة الفم تُعطي فصاحة في الكلام ، وبياناً لمخارج الألفاظ ، ولا شك أن جميع ذلك على تناسب كامل بين أعضاء جسمه الشريف كلِّها ﷺ .

(٨) يعني : أن أسنانه الشريفة ﷺ منتظمة ومنفرجة ، وليست متراصّة ومتضايقة فوق بعضها .

دقيقَ المَسْرُبة [1] ، كأنَّ عنقَه جِيدُ دُميةٍ في صفاء الفضة [2] .

معتدلَ الخَلْق [3] ، بادنٌ ، متماسك [4] ، سواءُ البطن والصَّدْر [5] ، عريضُ الصدر ، بعيدُ ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس [6] .

أنور المتجرَّد [7] ، موصول ما بين اللَّبَّة والسُّرَّة بشعر يجري كالخطِّ [8] ، عاري الثَّديَيْن والبطن ممَّا سوى ذلك [9] ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصَّدر [10] .

(١) المسرُبة : هي الشعر بين الصدر والسُّرة ، والمعنى : أن تلك المسربة هي دقيقة .

(٢) الجيد : هو العنق ، والمراد : كأن عنقه ﷺ في استوائه واعتداله وحسن هيئته وجماله ، كأنه عنق صورة ، ولكن من حيث اللون هو في صفاء الفضة وبياضها البهيج اللامع .

(٣) يعنى : أن جميع أعضاء جسمه الشريفة ﷺ خلقها الله تعالى كاملة متناسبة مع بعضها غير متنافرة .

(٤) والمعنى : أنه ﷺ ممتلىء الجسم ، ليس بالنحيل ولا بالهزيل ، وأن أعضاءه الشريفة متماسكة بقواها ، وليست متراخية .

(٥) والمعنى : أن بطنه وصدره الشريفين مستويان ، لا ينتأ أحدهما عن الآخر .

(٦) الكراديس جمع كُردوس ، وهو رأس العظام ومجمعها ، كالركبة والمنكب ونحوهما ، والمعنى : أنه ﷺ كان عظيمَ رؤوس العظام ومجامعها وقويَّها ، ويدل ذلك على كمال قواه ﷺ .

(٧) يعني : أنه ﷺ أنور العضو المتجرِّد عن الثوب وشديد بياضه .

(٨) اللَّبَّة : هي النُّقرة فوق الصدر ، والسُّرَّة ما بقي بعد القطع ، وأما الذي يقطع عند الولادة فهو السُّرُّ .

(٩) أي : خالي الثديين والبطن من الشعر .

(١٠) أي : كثير شعر هذه المواضع الثلاثة .

طويل الزَّندين ، رحب الراحة [1] ، شَثْن الكفين والقدمين [2] ، سائل الأطراف أو قال : شائل الأطراف [3] .

خُمْصان الأخْمَصَيْنِ [4] ، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء [5] .

إذا زالَ زالَ قِلَعاً [6] .

(١) أي : واسع الكفِّ .

(٢) أي : ضخم الكفين والقدمين ، كما جاء في رواية ، والمعنى : أنه ﷺ ممتلىء الكفين والقدمين وليس بالضعيف النحيل .

(٣) الشك من الراوي ، والمعنى : أنه ﷺ كان مرتفع الأطراف بلا احْديداب ولا انْقباض .

(٤) تثنيه أخمص ، وأخمص القدم هو الموضع الذي لا يمس الأرض عند وطئها من وسط القدم ؛ ومعنى (خُمْصان الأخمصين) : أنه ﷺ شديد تجافي الأخمصين عن الأرض ، لكن على وجهٍ لا يُخْرجه عن حدِّ الاعتدال والجمال .

(٥) أي : أملس القدمين ومستويُّها بلا تكسُّر ، ولذلك ينبو عنهما الماء ، أي : يتباعد عنهما الماء ، يعنى أنه ﷺ إذا صَبَّ عليهما الماء مرَّ سريعاً ، لأنهما مستويتان .

(٦) يعني : أنه ﷺ إذا مشى رفع رجليه بقوة ، كأنه يقلع شيئاً ، ولا يجرُّهما على الأرض ، ولا يمشي مِشْية المختال الذي يقارب خُطاه تبختراً .

يخطو تكفِّياً[1] ويمشي هَوْناً[2] ، ذَريع المشْيَة[3] ، إذا مشى كأنما ينحطُّ من صَبَب[4] .

وإذا التفتَ التفت جميعاً[5] .

خافضَ الطَّرْف[6] ، نظرُه إلى الأرض أطولُ من نظره إلى

---

(١) يمشي مائلاً إلى سَنَن المشي ، وهو ما بين يديه .

(٢) الهَون : الرفق واللين ، والمعنى : أنه ﷺ كان إذا مشى يرفع رجليه عن الأرض بقوة ، كما دلَّ عليه قول ابن أبي هالة : (إذا زال زال قِلَعاً) وإذا وضعهما على الأرض وضعهما برفق وتُؤدة ، وهذا معنى : (يمشي هوناً) ، فهو يشير إلى كيفية وضع رجليه على الأرض ، وأنه ﷺ يمشي بسكينة ووقار ، وحلم وأناة ، دون أن يضرب برجله الأرض ، أو أن يخفق بنعله .
وقد أثنى الله تعالى على الذين يمشون هذه المشية ، ويسلكون هذه الخطّة ، فقال : ﴿وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ .

(٣) أي : واسع الخطوة خلقةً بلا تكلُّف .

(٤) أي : كأنما ينزل في موضع منحدر .

(٥) أي : لا يُسارق النظر ، ولا يلوي عنقه يمنة ولا يسرة ، كما يفعل ذلك الطائش الخفيف .

(٦) المراد بالطرف هنا : العين ، والمعنى : أنه ﷺ إذا لم ينظر إلى شيء يخفض بصره ، وهذا شأن المتأمِّل المفكِّر .

السماء[1] ، جُلُّ نظره الملاحظة[2] .

يسوق أصحابَه[3] ، ويبدرُ من لقي بالسلام[4]) .

---

(١) والمعنى : أن نظره ﷺ إلى الأرض حالَ السكوت وعدم التحدث ، أطولُ من نظره إلى السماء ، وأما في حال التحدُّث فإنه يكثر النظر إلى السماء ، وكما ورد في (سنن) أبي داود أنه ﷺ كان إذا جلس يتحدَّث ، يُكثر أن يرفع طرفه إلى السماء .

(٢) قال العلامة المناوي في (شرحه) : والمراد أن أكثر نظره ﷺ في غير أوانِ الخطابِ الملاحظةُ اهـ .
والملاحظة : هي النظر بلَحاظ العين ، وهو شِق العين مما يلي الصدغ ، وأما الذي يلي الأنف فالمُوق والماق .

(٣) والمعنى : أنه ﷺ يُقدِّم أصحابه بين يديه ويمشي خلفهم ليرعاهم ويختبر حالهم ، ويعين ضعفائهم ، وليترك ظهره للملائكة خلفه ، كما روى الدرامي بإسناد صحيح أنه ﷺ قال : «خلُّوا ظهري للملائكة» وأخرج الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال : كان أصحاب النبي ﷺ يمشون أمامه ويدَعون ظهره للملائكة ـ كذا في (جمع الوسائل) .
قال الإمام النووي : وإنما تقدُّمهم ـ أي : تقدم أصحابه في قصة جابر يوم الخندق ـ لأنه ﷺ دعاهم إليه ، فجاءوا تبعاً له ، كصاحب الطعام إذا دعا طائفةً يمشي أمامهم .

(٤) وفي رواية : (ويبدأ) والمعنى : أنه ﷺ يبادر ويسبِق من لقيه من أمته بتسليم التحيَّة .

صفات آدابه ﷺ في منطقه وسكوته

قال الحسن رضي الله عنه : فقلت : صِفْ لي منطق[1] رسول الله ﷺ .

فقال : (كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان[2] ، دائمَ الفِكرة ،

(١) أي : اذكرْ لي آدابه في منطقه ، وآدابه في سكوته ﷺ ، كما دلَّ عليه الجواب الآتي .

(٢) لم يكن حزنه ﷺ من أجل أمور الدنيا ، وإنما كانت تتوارد الأحزان لأسباب متعددة ، ترجع إلى دين الله تعالى والشفقة على خلق الله تعالى ، ولذا كانت الآيات تنزل في تسليته ﷺ وتخفيف شدة الأسى عنه :

فمن ذلك : حزنه على الذين لم يؤمنوا بما جاء به من الهدى ـ وقد تبيَّن لهم الحق ـ معاندين ومعارضين ، فكان ذلك مما يشقُّ عليه ويُحزنه ، حتى أنزل الله تعالى في ذلك قوله : ﴿لعلك باخعٌ نفسَك أن لا يكونوا مؤمنين . إنْ نشأ ننزِّل عليهم من السماء آيةً فظلَّت أعناقهم لها خاضعين﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ومن كفر فلا يَحزُنْك كفرُه ، الينا مرجِعهم فنبئهم بما عملوا . .﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿فلا تَذهبْ نفسُك عليهم حَسَرات ، إن الله عليم بما يصنعون﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ولا تحزنْ عليهم ولا تكُ في ضَيق مما يمكرون﴾ .

ومن ذلك : حزنه ﷺ بسبب خداع المنافقين وإظهارهم الإسلام ، وإبطانهم الكفر ، ومسارعتهم في الكفر ، كما قال الله تعالى : ﴿يا أيها الرسول لا يحزُنْك الذي يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم . .﴾ الآية .

ومن ذلك : حزنه ﷺ لما يقول فيه أعداؤه من الأقوال الباطلة المتناقضة ، والأكاذيب المختلفة، من أنه ﷺ ساحرٌ أو شاعر أو مجنون! وفي ذلك نزل قوله =

ليست له راحة[1] .

طويلَ السَّكْت ، لا يتكلَّم في غير حاجة[2] ، يفتتحُ الكلامَ ويختتمه باسم الله تعالى[3] ، ويتكلم بجوامع الكلم[4] ، كلامه فَصْل لا فضولَ ولا تقصير[5] .

ليس بالجافي ولا المهين[6] ، يُعَظِّمُ النعمَةَ وإنْ دقَّتْ ، لا يذمُّ منها

= تعالى : ﴿قد نعلم إنه ليحزنُك الذي يقولون﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿فلا يحزُنْك قولُهم ، إنا نعلم ما يُسِرون وما يعلنون﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ولا يحزنك قولهم ، إن العزَّة لله جميعاً﴾ الآية .

(١) والمعنى : أنه ﷺ كان دائم التفكر في أمور الأمة وما يصلح شؤونهم ويسعدهم في الدنيا والآخرة ، ومن ثَمَّ ليست له راحة .

(٢) يعني : أنه ﷺ كان طويلَ الصمت ، لا يتكلم إلا في حاجة دينية أو دنيوية ، فيتحرز عن الكلام الذي لا فائدة منه ، لقوله تعالى : ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ .

وقد قال ﷺ : « من حُسْن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » رواه الترمذي .

(٣) والمعنى : أن كلامه ﷺ كان محفوفاً بذكر الله تعالى بدْأً وانتهاءً .

(٤) أي : بكلمات قليلة الحروف ، جامعة لمعانٍ كثيرة .

(٥) يعني : أن كلامه ﷺ فاصل بين الحق والباطل ، ومفصَّل لا يتداخل في بعضه ، بحيث يتلقاه السامع بوضوح دون التباس ، لا يكثر فيملّ ، ولا يقصِّر فيخلّ .

(٦) أي : ليس هو ﷺ بالجافي الغليظ الطبع ، السيء الخُلُق ، ولا بالمُهين لخلق الله تعالى ، ولا بالمَهين أي : المبتذَل الذليل ، بل هو الفخم المفخَّم الموقَّر المعظَّم ﷺ .

شيئاً ، غير أنه لم يكن يذمُّ ذواقاً ولا يمدحه[1] .

ولا تُغْضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا تُعدِّي الحقُّ ، لم يُقَمْ لغضبه شيءٌ حتى ينتصر له[2] ، ولا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها .

إذا أشارَ أشارَ بكفِّه كلِّها ، وإذا تعجَّب قَلَبها[3] ، وإذا تحدَّثَ اتَّصلَ بها وضربَ براحته اليمنى بطنَ إبهامه اليسرى[4] .

(١) فهو ﷺ يعظِّم نعم الله تعالى الكبيرة والصغيرة ، الظاهرة والباطنة ، ولا يذم منها شيئاً ، كما وأنه ﷺ لا يذم ذواقاً ـ أي : مَذوقاً ـ من المأكولات أو المشروبات التي أباحها الله تعالى ، لأن في الذم كفرانَ النعمة ، وهو شأن المترفين المتكبرين ، كما وأنه ﷺ لا يمدح ذواقاً ، لأن ذلك شأن ذوي الشرَه والنهمة المذمومة .

(٢) أي : فإذا تعدَّى أحد الحقَّ وجاوزه إلى الباطل ؛ غضب ﷺ غضباً لا يقاومه شيء ، ولا يدفع غضبه شيء حتى ينتصر للحق بالحق .

(٣) والمعنى : أنه ﷺ كان إذا أشار إلى شيء : ـ إنسان أو غيره ـ ، أشار بكفه كلها ، ولا يقتصر على الإشارة ببعض الأصابع ، لأنه شأن المتكبرين والمحتقرين لغيرهم ، وإذا تعجب ﷺ من أمر ، قلب كفَّه ، كما هو شأن كل متعجب .

(٤) يعني أنه ﷺ إذا تحدَّث اتصل حديثه بكفه اليمنى ، وذلك لتأكيد الكلام وتقويته في النفوس ، وزيادةِ إيضاحه بإشارات الكف ، وضربَ براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى ، اعتناءً بذلك الحديث ، ودفعاً لما يعرض لنفس السامع من الفتور أو الغفلة عن الحديث .

وإذا غضِبَ أعرض وأشاح ، وإذا فرح غضَّ طرفه[1] ، جُل ضحكِه التبسُّم ، يفترُّ عن مثل حَبِّ الغَمام[2]) .

قال الحسن رضي الله عنه : فكتمتها الحسين بن علي زماناً ثم حدثتُه فوجدتُه قد سبقني إليه فسأله عما سألته عنه ، ووجدته قد سأله عن مدخله ﷺ ومخرجه ، ومجلسه وشكله ، فلم يَدَعْ منه شيئاً[3] .

آدابه ﷺ إذا دخل منزله

قال الحسين رضي الله عنه : فسألت ـ علياً رضي الله عنه ـ عن دخول رسول الله ﷺ ؟

فقال :

(١) أي : إذا غضب من أحد أعرض عنه ، فلا يقابله بما يقتضيه الغضب ، امتثالاً لقوله تعالى : ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ .

وأشاح : أي : بالغ في الإعراض وعدل عنه بوجهه ﷺ .

وإذا **فرح** ﷺ من شيء ، غضَّ طرفه ، ولا ينظر إليه نظر شره وحرص .

(٢) أي : معظم ضحكه ﷺ إنما هو التبسُّم ، **ويفترُّ** : أي يضحك ضحكا حسناً كاشفاً عن سنٍّ مثل حب الغمام في البياض والصفاء .

وحبُّ الغمام هو البَرَد ـ بفتحتين ـ الذي يشبه اللؤلؤ .

فكان ﷺ إذا تبسَّم بدت أسنانه الشريفة كاللؤلؤ اللامع .

(٣) قال العلامة البيجوري : فقد روى الحسن عن أخيه الحسين ما رواه الحسين عن أبيه علي ، فصار الحسن راوياً ما تقدم عن خاله هند بلا واسطة ، وما سيأتي عن أبيه عليٍّ بواسطة أخيه الحسين . اهـ .

(كان ﷺ إذا أوى إلى منزله جزَّأَ دخوله ثلاثة أجزاء : جزءاً لله [1] وجزءاً لأهله [2] وجزءاً لنفسه .

ثمَّ جزَّأَ جزأه بينه وبين الناس ، فيردُّ ذلك بالخاصَّة على العامَّة [3] ولا يدَّخر عنهم شيئاً [4] .

وكان من سيرته في جزء الأمة إيثارُ أهل الفضل بإذنه ، وقسمُه على قَدْرِ فضلهم في الدّين :

(١) أي : لعبادة الله تعالى بأنواع العبادات ، من صلوات وتلاوات ودعوات ، وتذكُّر وتفكُّر ، وغير ذلك .

(٢) لمؤانستهم وحسن معاشرتهم ، والقيام بمهماتهم وحاجاتهم .

(٣) يعني أن جزأه ﷺ الذي هو لنفسه ، يجعله بينه وبين الناس ، فيردُّ ذلك الجزء الذي جعله للناس ، بالخاصة على العامة ، **وخاصة** الرجل : هم قرابته الذين يختصون به ، والمقرَّبون من أصحابه وذويه . **والعامة** : من ليسوا بذلك .

وفي معنى ردّ ذلك الجزء بالخاصة على العامة أقوال :

الأول : أن الخاصة تدخل عليه في ذلك الوقت دون العامة ، فتستفيد منه ﷺ ثم تخبر العامة بما سمعت من العلوم والمعارف والفوائد .

الثاني : أن الباء بمعنى « من » أي : يردّ على العامة من جزء الخاصة .

الثالث : أن يجعل العامة مكان الخاصة ، فيرد ذلك على العامة بدلا من الخاصة .

(٤) والمعنى : أنه ﷺ لا يُخفي ولا يمنع عن الناس : عامتهم وخاصتهم ، شيئاً مما ينفعهم في دينهم ودنياهم ، بل يقدِّم جميع ذلك لهم ، في جميع أحواله ﷺ .

فمنهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو الحوائج [1] ، فيتشاغل بهم ، ويشغلهم فيما يصلحهم والأمةَ : من مسألتهم عنه ، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم ، ويقول : « ليبلغ الشاهد منكم الغائب ،

(١) يعني أن سيرته ﷺ في الجزء الذي جعله للأمة ، إيثارُ أهل الفضل ، وهم أهل العلم والصلاح الشرف ، فيقدِّمهم في الدخول عليه ﷺ ، والتوجهِ والإقبال ، والإفادةِ وما هنالك .

كما وأن من سيرته ﷺ في الوقت الذي جزَّأه للأمة أنه قسمه بين الأمة على قدر فضلهم في الدين من جهة الصلاح والتقوى وعلى قدر درجاتهم في الدين ، فمِن أهل الفضل ومِن بقية الناس : مَن هو ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو الحوائج ، فيتشاغل بهم ، أي : يكون مشغولاً بإجابة طلباتهم وأسئلتهم ، وقضاء حاجاتهم .

كما وأنه ﷺ يُشغلهم : بضم أوله من الاشغال ، وبفتحه من : شَغَله ، كما نبه عليه العلماء الشرّاح ، والمعنى : أنه ﷺ يشغلهم فيما يُصلحهم وينفعهم ، ويصلح الأمة وينفعها ، إما : بأن يفتح لهم باب الأسئلة ، ليفيض عليهم الأجوبة ، أو يبتدئهم بالاخبار عما ينفعهم ، وبيان الذي ينبغي لهم أن يعلموه من الأحكام والمواعظ ، والنصيحة والوصية بما يُصلح شأنهم ويسعدهم في دينهم ودنياهم .

فما كان ﷺ يترك جزءاً من الزمن فارغاً عما ينفع الأمة ويصلح أمرها ، وما كان يترك أصحابه في فراغ من الوقت وبطالة من العمل ، بل كان ﷺ يشغلهم بما يصلحهم وينفعهم ، ويصلح الأمة وينفعها .

وذلك لأن الله تعالى قال له : ﴿ فإذا فرغتَ فانصبْ . وإلى ربك فارغب ﴾ . أي : فإذا فرغتَ من عمل فانصب لغيره ، وليكن القصد والرغباء في جميع ذلك إليه سبحانه .

ومن هنا يُعلم أن دين الإسلام دين جِدّ وعمل ، لا هزل فيه ولا كسل .

وأبلغوني حاجةَ من لا يستطيع إبلاغها ، فإنه من أبلغ سلطاناً حاجةَ من لا يستطيع إبلاغها ، ثبَّت الله قدميه يوم القيامة » .

لا يذكر عنده إلا ذلك ، ولا يَقبل من أحد غيرَه .

يدخلون روَّاداً ، ولا يفترقون إلا عن ذَواق[1] ، ويخرجون أدلَّة - يعني على الخير - .

سيرته وآدابه ﷺ

إذا خرج من منزله وبرز للناس

قال الحسين رضي الله عنه : فسألت أبي - علياً رضي الله عنه - عن مخْرجه ، كيف كان يصنع فيه ؟

قال :

(١) الرُّواد : بضم الراء وتشديدها ، جمع رائد ، وهو الطالب ، وهو في الأصل من يتقدَّم أمام القوم ، لينظر لهم الكلأ ومساقط الغيث .
والمراد أن الناس يدخلون عليه ﷺ طالبين نفعهم في دينهم ودنياهم ، وصلاح نفوسهم ، وتعلمهم ما فيه سعادتهم ، فلا يخرجون من عنده ﷺ إلا وهم مكرَمون ظفِرون ، أكرمهم رسول الله ﷺ بمَذوق من الطعام ، ضيافة لهم ؛ وأفاض عليهم بما ينفعهم من العلوم والمعارف ، وبيان ما يحتاجونه من أمور الدنيا والآخرة ، فيخرجون من عنده ﷺ أدلَّة وهداة للناس إلى ما فيه الخير والسعادة .

كان رسول الله ﷺ يَخْزُنُ لسانَه إلَّا فيما يعنيه[1] ، ويؤلِّفهم ولا ينفِّرهم[2] ، ويُكرِم كريم كلِّ قوم ويولِّيه عليهم[3] .

(١) فلا يتكلم ﷺ إلا فيما يعنيه ، أي : يهمه وينفع في الدنيا أو الدين ، وقد قال ﷺ : « من حُسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » فمن حَسُنَ إسلامه اشتغل بما يعنيه ، وترك مالا يعنيه .
قال العلامة ابن رجب في شرح حديث : « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » : ومعنى يعنيه : أنه تتعلَّق عنايته به ، ويكون من مقصِده ومطلوبه ، والعنايةُ : شدة الاهتمام بالشيء ، يقال : عناه يعنيه : إذا اهتم به وطلبه ، وليس المرادُ : أنه يترك مالا عناية له به ، بحكم الهوى وطلب النفس ، بل بحكم الشرع والاسلام اهـ .
وهذه غفلة كبيرة وقع فيها كثير من الناس وهو اشتغالهم بما لا يعنيهم .
وفي حديث الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : توفي رجل من أصحاب النبي ﷺ فقال رجل : أبشرْ بالجنة .
فقال ﷺ : « أوَلا تدري ؟ فلعلَّه تكلَّم فيما لا يَعنيه ، أو بخل بما لا يُنْقِصُه » قال الترمذي : حسن غريب ، وقال المنذري رواته ثقات .
اهـ . وقد روى معنى هذا الحديث من وجوه متعددة كما في (الترغيب) .
(٢) فكان ﷺ يؤلِّف الناس بكريم معاشرته ، وحسن مقابلته ، ولا ينفرهم عنه بغلظة أو فظاظة ، أو كلمات مؤذية ، كما وأنه ﷺ يؤلف الناس على بعضهم ، ويحببهم في بعضهم ، ولا ينفرهم من بعضهم .
(٣) وهذا من كريم خلقه ﷺ ، وذلك أنه يكرم كريم القوم بما يناسبه من التكريم والحفاوة ، ويجعله والياً عليهم ، وأميراً مديراً لأمورهم .
وهذا من تمام حسن نظره ﷺ وحكمة تدبيره وتنظيمه وإعطائه المراتب حقها .

ويحذرُ الناسَ ويحترِسُ منهم من غير أن يطويَ عن أحدٍ منهم بِشْرَه وخُلقه[1] .

ويتفقَّدُ أصحابَه[2] ، ويسأل الناس عمَّا في الناس[3] .

ويحسِّنُ الحسن ويقوِّيه ، ويقبِّحُ القبيحَ ويوهيه[4] .

(١) وهذا مما يدل على عظيم عقله وسعة فكره ، وذلك أنه ﷺ كان يحذَر الناس الذين هم حديثو عهدٍ بالإسلام ، ولم يَخبُرهم ولم يجرِّبهم في مهامِّ الأمور ، ويحترس منهم ، ولكنه لا يطوي عنهم بِشْره وحسن مقابلته وطلاقة وجهه ﷺ .

(٢) يطلبهم ويسأل عنهم حال غيبتهم .

(٣) والمعنى : أنه ﷺ كان يتفقَّد أصحابه خاصَّة ، كما وأنه يبحث عن أحوال الأمة عامَّة ، فيسأل الناسَ الذين عندهم معرفة بأحوال الناس ، عمَّا في الناس من الأحوال السارة أو المكروهة ، وعمَّا في الناس من سعة وضيق ، وشدة ورخاء ، وفرح وترح ، فيفرح لفرحهم ، ويُسَرّ لما يَسُرُّهم ، ويَحزن لما يُحزنهم ، ويسعى في رفع المكاره والمساوىء عنهم .

كما وأنه يسأل عما في الناس من سيرهم في أمورهم ومعاملاتهم ، أهمْ على صلاح واستقامة ؟ أم هم على فساد واعوجاج ؟ وليس هذا من باب التجسس المنهي عنه ، ولكنه من باب التعرّف إلى الفاضل من الفضول ، والكامل من الناقص ، والاستطلاع على أمور الناس ، ليُصلح الاعوجاج ، ولتنبيه الغافل ، وتذكير الناسي ، ونصح الأمة ومعالجة أمراضها النفسية ، فيضعَ الدواء حيث الداء .

(٤) **فإذا أتى إنسان بفعل حسن** ، أو برأيٍ حسن : حسَّنه ﷺ ومدحه وقوّاه ، وقوَّى همة فاعله ونهض بعزيمته ، **وإن صدر من إنسان فعل قبيح** : ذكر ﷺ قُبح ذلك الفعل ومحاذيره ، وسوء عواقبه ، ليُباعد الناسَ من الوقوع فيه .

معتدلَ الأمرِ غيرَ مختلِف[1] ، لا يغفلُ مخافةَ أن يغفلوا أو يميلوا[2] ، لكلِّ حالٍ عنده عتاد[3] ، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه[4] .

الذين يلونه من الناس خيارهم ، أفضلهم عنده أعمُّهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة[5] .

(١) يعني : أن جميع أفعاله ﷺ وأقواله على غاية من الاعتدال ، محفوظ من أن يَصْدُر عنه أمور متخالفة ، أو يعارض بعضها بعضاً ، وهذا دليل على كمال عقله وإحْكام أمره ﷺ .

(٢) أي : لا يغفل ﷺ عمَّا فيه مصالح أتباعه من تذكيرهم وإرشادهم ، ونصيحتهم وتعليمهم ، مخافة أن يغفلوا فيزِلّوا ، أو يميلوا إلى الراحة والكسل ، ويبطئوا عن العمل ، فهو ﷺ يشدُّ عزمهم ويتعهدهم بالتذكير والنصح .

(٣) لكل حال من الأحوال عنده عدة أعدَّها لتلك الحالة ، وهيَّأ لكل أمرٍ من الأمور ما يحتاجه وما تتطلبه المصلحة .

(٤) فهو ﷺ على الحق المستقيم : لا إفراط ولا تفريط ، ولا تقصير عن الحق ، ولا مجاوزة للحق ، وذلك في جميع أموره وقضاياه .

(٥) **المقربون عنده** ﷺ من الناس خيارُ الناس ، **وأفضلهم عنده** أعمُّهم نصيحة ، وأكثرهم خيراً ونفعاً للأمة في دينها ودنياها ، **وأعظمُهم عنده** منزلة أحسنُهم مواساة للناس بالنفس والمال ، **ومؤازرة** ـ أي : معاونة ـ لهم في مهمات أمورهم ، وتخفيف الأثقال عنهم ، وتنفيس كُرُباتهم ، وقضاء حوائجهم .

آدابه ﷺ في مجالسه

قال الحسين : فسألته ـ أي : علياً رضي الله عنه ـ عن مجلسه ﷺ كيف كان ؟

فقال :

كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر الله تعالى[1] .

ولا يوطِّن الأماكن ، وينهى عن إيطانها ، وإذا انتهى إلى قوم :

(١) وهذا كما قالت عائشة رضي الله عنها : (كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كلِّ أحيانه) . أي : في قيامه وقعوده وعلى جنبه ، كما قال تعالى : ﴿ فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعوداً وعلى جنوبكم . . ﴾ الآية .

وروى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من قعد مقعَداً لم يذكر الله فيه : كان عليه من الله تِرَةٌ ـ أي : تَبِعة وحق يطالبه الله تعالى به يوم القيامة ـ ومن اضطجع مضطجعاً لا يذكر الله فيه : كانت عليه من الله تره ، وما مشى أحد ممشىً لا يذكر الله فيه إلّا كان عليه من الله تره » .

وفي هذا كله دليلٌ على أنه ينبغي للمسلم أن يكون على ذكر الله تعالى في جميع أحواله .

جلس حيث ينتهي به المجلس ، ويأمر بذلك[1] .

يُعطي كلَّ جلسائه نصيبه ، لا يحسَبُ جليسُه أن أحداً أكرمُ عليه منه[2] .

مَنْ جالسَه أو فاوضه في حاجة : صابَرَه حتى يكونَ هو المنصرف[3] ، ومَن سأله حاجةً لم يردَّه إلا بها ، أو بميسورٍ من

(١) والمعنى كما قال العلامة المناوي : أنه ﷺ كان يجلس في أي مكان يلقاه ـ في المجلس ـ خالياً ، ولا يترفَّع على أصحابه لمزيد تواضعه ، ومكارم أخلاقه . اهـ .

على أن شرف المكان إنما هو بالمكين ، فالمكان الذي يجلس فيه ﷺ هو أشرف الأمكنة .

كما وأنه ﷺ كان يأمر الناس بالجلوس حيث ينتهي بهم المجلس ، إبعاداً للنفس عن الكبْر والترفُّع على بقية أهل المجلس .

قال في (جمع الوسائل) وغيره : وقد روى الطبراني والبيهقي عن شيبة بن عثمان مرفوعاً : « إذا انتهى أحدكم إلى المجلس : فإن وُسِّع له فليجلس ، وإلا فلينظر إلى أوسع مكان يراه ، فليجْلِسْ فيه » .

(٢) فكان ﷺ يُعطي كل واحد من جلسائه حظَّه اللائق به من البِشر وطلاقة الوجه ، والحفاوة والتكريم ، حتى إن جليسَه ليظنُّ أنه لا أحد أكرم على رسول الله ﷺ منه ، وذلك لما يجد من اللطف ولين الجانب .

(٣) والمعنى : أن مَن جالسَ النبي ﷺ أو فاوضه في حاجة : صبر عليه ﷺ ، بل صابره ، أي : غالَبَ جليسَه ومفاوِضَه في الصبر على المجالسة ، مهما طالت المكالمة ، ولا يعاجله ﷺ بالقيام عن المجلس أو بقطع كلامه ، ولا يُظهر له الملالَ والسآمة ، بل يستمر معه مقبلاً عليه ، حتى يكون الذي جالسه هو المنصرفَ عنه .

وفي هذا دليلٌ سعةِ خُلُقه وحسن معاشرته وشدّة تحمله ﷺ .

القول [1] .

قد وسِعَ الناسَ منه بسطُهُ وخُلُقُه ، فصار لهم أباً ، وصاروا عنده في الحق سواء [2] .

مجلسُه مجلسُ : علم [3] ، وحياء ، وصبرٍ ، وأمانة [4] ، لا ترفع فيه

(١) فمن سأله ﷺ حاجةً لم يرده إلا بتلك الحاجة ، أو بميسور من القول ، ولطيف من الكلام ، وذلك كوعده له بنيل تلك الحاجة ، ونحو ذلك .

(٢) قد عم الناسَ كلَّهم بِشْرُه وطلاقة وجهه ﷺ وحسن خلقه ، فصار لهم أباً : من الشفقة عليهم ، والرحمة لهم والحرص على نفعهم ، بل هو أعظم من الأب شفقةً ورحمة ، وحناناً وعطفاً ، وفضلاً ولطفاً ، لأنه صاحب مقام : ﴿ النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم . . ﴾ الآية ، كما سيأتي بعد إن شاء الله تعالى .

(٣) يعني أن مجالسَه ﷺ ومجتمعاته عامرةٌ بنور العلم الذي يُفيضه عليهم رسول الله ﷺ ، ويبثُّه فيهم ، فكان ﷺ يعلِّمهم الكتاب ـ أي القرآن ـ ويبين لهم معانيه ، ويوضح لهم أحكامه ويبرز لهم حِكمه ، ويأتي لهم بأنواع من الحكمة المشتملة على الوعظ والآداب الفاضلة ، والأخلاق الكاملة ، ويأتيهم بأنواع من قصص الأمم السابقة ، لما في ذلك من العبرة .

والبحث في مجالس رسول الله ﷺ سيأتي بعد إن شاء الله تعالى .

(٤) وهكذا مجلسه ﷺ مظلَّل بالحياء والوقار ، فكان جلساؤه معه ﷺ على غايةٍ من الحياء والأدب والسكينة .

كما وأن مجلسه ﷺ مجلس صبر على جفوة البادي ، وإلحاح السائل وإلحافه ، وإكثار السائل عما يهمه من الأمور ، كما تقدم في حديث ضِمام لما قال للنبي ﷺ : إني سائلُكَ فمشدِّد عليك في المسألة فلا تجدْ عليَّ في نفسك ، فقال له ﷺ : « سَلْ عما بدا لك . . » الحديث .

=

الأصوات [1] ، ولا تُؤْبَن فيه الحُرَم [2] . ولا تُنْثَى فَلَتَاتُه [3] .

= وكان مجلسه ﷺ مجلسَ أمانة على أسرارٍ أسرُّها الجلساء إلى بعْضِهم ، أو كان مقتضى الحال كتمانها أو خفاؤها إلى حين آخر .

(١) وذلك للوعيد الشديد الذي هدد الله تعالى به المؤمنين ، حيث قال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوقَ صوتِ النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أنْ تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ .

ولما نزلت هذه الآية الكريمة خاف الصحابة من الوقوع في هذا النهي ، فالتزموا في مجلسه ﷺ خفض الصوت ، وكثرة الصمت ، وكانوا يتواصَوْن بذلك ، ويعلِّمون الجاهل ، ويذكِّرون الغافل .

ففي الحديث الذي رواه الترمذي وابن حبان وغيرهما عن صفوان بن عسَّال رضي الله عنه أن رجلاً من أهل البادية أتى رسول الله ﷺ ، فجعل يناديه بصوت له جهوري : يا محمد يا محمد ـ ﷺ ـ.

فقلنا : وَيْحَكَ ؛ اخفض من صوتك ، فإنك قد نُهيتَ عن هذا .

قال : لا والله حتى أُسْمِعَه .

فقال له النبي ﷺ : « هاؤم » .

فقال الرجل : أرأيت رجلاً يحبُّ قوماً ولم يلحق بهم ؟ ـ أي : يحبهم ولكن لا يستطيع أن يعمل مثلهم فهل تنفعه محبته ـ.

فقال له النبي ﷺ : « المرءُ مع مَنْ أحبَّ » .

(٢) **الأبْن** : بفتح الهمزة هو : العيب ، **والحُرَم** : جمع حرمة ، وهي : ما يحترم ولا يَحِلُّ انتهاكه ، وما يحميه الرجل من الأهل ، وما يصونه ويحفظه .

والمعنى : أن مجلسه ﷺ لا تعاب فيه حرم الناس ، ولا تنتهك بقذف أو غيبة ونحوهما ، بل مجلسه ﷺ مَصونٌ عن كل قول قبيح ، وعن كل فعلٍ سيءٍ .

(٣) **الفلَتات** : جمع فلتة ، وهي : ما يبدُر من الرجل من سَقطة أو هفوة ، أو زلَّة ، ومعنى : **لا تُنْثى** أي : لا تُشاع ولا تذاع ، من قولهم : نثا الحديث : إذا حدّث به وأشاعه . =

متعادلين ، بل كانوا يتفاضلون فيه بالتقوى[1] .

متواضعين ؛ يوقِّرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير ، ويُؤْثِرُون ذا الحاجة ، ويحفظون الغريب[2] .

سيرته ﷺ مع جلسائه وآدابه معهم

قال الحسين رضي الله عنه : وسألت أبي ـ علياً رضي الله عنه ـ عن سيرة النبي ﷺ في جلسائه ؟

= والمعنى : كما قال العلماء في شرح هذه الجملة : أنه لا فلتاتَ في مجلسه ﷺ أصلا ، فلا يصدُر من جلسائه ﷺ زلّات في مجلسه حتى تذاعَ ، بل المجلس حصينٌ بالأدب والكمال ، وعلى هذا فالنفي منصبٌّ على الفلَتات .

أو المعنى : إنْ صدرت هفوةٌ من أحد الجلساء ، فلا تذاع ولا تنقل عن المجلس ، بل ينبَّه إليها صاحبُها ، وتستر عليه فلا تعاد أصلاً .

(١) أي : متساوين بينهم ومتوافقين مع بعضهم ، فلا يتكبَّر بعضهم على بعض ، ولا يفخر أحد من الجلساء على أحد بحسَب أو نسَب ، بل كانوا يتفاضلون في مجلسه ﷺ بالتقوى ، فأيُّهم أتقى فهو الأفضل عندهم .

وفي رواية : يتعاطفون ، بدلاً من : يتفاضلون ، والمعنى كما قال العلامة الخفاجي : يعطِف بعضهم على بعض ، ويُشفق عليه ويرحمه بسبب تقوى الله ، لا رياءً ولا سُمعة ، ولا خوفاً واتقاءَ شر .

(٢) يؤثرون ذا الحاجة فيقدّمونه على أنفسهم في تقريبه من النبي ﷺ ، ليقضيَ له حاجته ، أو يجيبه عن مسألته ، كما أنهم يؤثرونه بقضائها له ، وإعانته عليها ، ولوكانوا في الحاجة مثله ، ويحفظون حق الغريب وكرامته .

فقال :

كان رسول الله ﷺ دائمَ البِشْر[1] ، سهْلَ الخُلُق[2] ، ليِّنَ الجـانب[3] ، ليس بفظٍّ[4] ، ولا غليظ[5] ، ولا صَخَّاب[6] ، ولا فَحَّاش[7] ، ولا عيَّاب[8] ، ولا مُشاحٍّ ـ وفي نسخة صحيحة : ولا مدّاح ، ولا مزَّاح[9] ـ يتغافلُ عمّا لا يشتهي[10] .

---

(١) أي : طلاقةِ الوجه والبشاشة .

(٢) سجيَّته ﷺ السهولةُ وعدم الشدة في أقواله وأفعاله ، فهو ﷺ ليس بالصَّعب .

(٣) كثير اللطف ، سريع العطف .

(٤) أي : ليس هو ﷺ بسيء الخُلُق .

(٥) ليس بالجافي الطبع ، الشديد القاسي .

(٦) أي : ولا يرفع صوته بالصياح .

(٧) لا يتكلم بكلام قبيح .

(٨) أي : لا يعيب إنساناً ولا حيواناً ولا طعاماً ، كما جاء في الصحيحين أنه ﷺ ما عاب ذواقاً قطُّ ، ولا عاب طعاماً قط ، إن اشتهى أكلَه ، وإلّا تركه .

(٩) ليس بمشاح ، والمشاحة : هي المضايقة في الأشياء ، وعدم التساهل فيها ، شحّاً بها وبخلاً ، ولا مدّاح : أي : ليس مبالغاً في مدح شيء من مباحات الدنيا ، لأن ذلك يدل على شرَه النفس ، وشدة تعلقها به ، ولا كثير المزاح .

(١٠) يُظهر الغفلة والاعراض عما لا يستحسنه من الأقوال والأفعال التي تصدر من بعض الجلساء ، تلطُّفاً ورفقاً بالجلساء .

ولا يُؤيسُ منه راجيه[1] ، ولا يخيب[2] فيه .

قد تَرَكَ نفسَه من ثلاث : المراء ، والإكثار ، وما لا يعنيه[3] .

وتركَ الناسَ من ثلاث : كان لا يَذُمُّ أحداً ولا يَعيبه ، ولا يطلب عورته[4] ، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه[5] .

(١) أي : مَن رجاه في أمرٍ لم يقطع رجاءه ، ولم يجعله آيِساً .

(٢) إما ثلاثي مشتق من الخيبة ، وهو الحرمان ، بمعنى : أن راجيَه لا يَخيب فيما رجاه ، وإما بتشديد الياء المكسورة ، بمعنى : أنه ﷺ لا يجعل مَن رجاه محروماً فلا يخيبه .

وفي نسخة : ولا يجيب فيه : بالجيم ، من الإجابة ، والضمير في (فيه) راجع إلى مالا يشتهي ، والمعنى : أنه ﷺ لا يجيب أحداً فيما لا يشتهي ، بل يسكت عنه عفواً وتكرماً ـ كما فصّل ذلك في (جمع الوسائل) .

(٣) والمعنى : أنه ﷺ قد باعد نفسه ، فبعدت عن ثلاث : المراء والجدال كله ، إلا ما كان فيه نصرة لدين الله تعالى ، وإقامة حجة على المعاندين أو المعارضين ، فإن ذلك من الجهاد الكبير ، قال تعالى : ﴿ وجادِلْهم بالتي هي أحسن . . ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ فلا تُطعِ الكافرين وجاهِدْهم به ـ أي : بالقرآن الكريم ـ جهاداً كبيراً ﴾ .

وترك الاكثار من الكلام ، وفي نسخة مصححة : (الإكْبار) . بكسر فسكون فموحدة ، أي : ترك استعظام نفسه في الجلوس والمشي ، وأمثال ذلك في معاشرته مع الناس ، كما في (جمع الوسائل) .

(٤) العورة هي : ما يُستحيا منه أن يظهر ، والمعنى : أنه ﷺ كان لا يطلبُ الاطلاعَ على عورة أحد ، أي زلّاته وهناتِه ، ولا يظهر ما يريد الانسان ستره ، ولا يتتبع عورات الناس وذنوبهم .

(٥) فهو ﷺ طويلُ الصمت ، لا يتكلم إلا فيما يتوقع ثوابه عند الله تعالى ، لكونه مطلوباً شرعاً ، أما الكلام الذي لا ثواب فيه فهو ﷺ بمعزل عنه .

وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير[1] ، فإذا سكت تكلموا[2] .

لا يتنازعون عنده الحديث ، ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرُغ[3] ، حديثُهم عنده حديثُ أوَّلهم[4] .

يضحك مما يضحكون منه ، ويتعجب مما يتعجبون منه[5] .

ويصبر للغريب على الجَفْوة في منطقه ومسألته ، حتى إنْ كان

(١) أي : مالوا رؤوسهم وأقبلوا بأبصارهم إلى صدورهم ، وسكتوا وسكنوا ، إجلالاً له ﷺ وأدباً معه ، فكانت صفتهم في ذلك صفة من على رأسه طائر يريد أن يَصيده ، فهو يخاف أن يتحرك فيذهب الطائر .

(٢) وهذا من كمال الأدب معه ﷺ ، وذلك أنهم لا يبتدرونه بالكلام ، ولا يتكلمون مع كلامه ﷺ .

(٣) وفي هذا أيضاً دليل على كمال أدب الصحابة رضي الله عنهم ، واهتمامهم بآداب المجلس ، وذلك أنهم لا يختصمون عنده ﷺ في الحديث ، ولا ينازع أحدهم الآخر في تناول الحديث ، فلا يتكلم اثنان معاً ، ولا يقطع بعضهم على بعضٍ كلامَه ، بل من تكلم منهم أنصتوا له حتى يفرغ من كلامه .

(٤) يعني : أن الذي يتقدم في الكلام أولاً من أهل المجلس ، هو أوَّلهم مجيئاً ، ثم وثم على الترتيب .

وقال بعضهم : معناه أن حديثهم كلَّهم أولهم وآخرهم عند النبي ﷺ ، هو كحديث أولهم في عدم الملال منه ، وفي الإصغاء التام إليه .

وقيل : معناه : حديثهم عنده ﷺ حديث أولهم ، أي : أفضلهم ديناً ، وأعظمهم تقوى .

(٥) ويفعل ذلك ﷺ تأنيساً لهم ، وجبراً لقلوبهم ، وحسنَ معاشرةٍ لهم .

أصحابُه ليستجلبونهم [1] ، ويقول : « إذا رأيتم طالب حاجة فأرْفِدوه » [2] .

ولا يقبل الثناء إلا من مكافئٍ [3] .

ولا يقطعُ على أحدٍ حديثَه حتى يجوز : فيقطعه بنهيٍ أو

(١) أي : إنه كان الصحابة ليستجلبون الغرباء ، ويرغبون في حضورهم مجلسَ النبي ﷺ ، ليستفيدوا بسبب أسئلتهم .

(٢) أي : فأعينوا صاحب الحاجة على حاجته حتى يصل إليها .

(٣) قيل : المراد لا يقبل المدح إلا من مكافئ ، أي : مقارب في مدحه ، غير مفْرط ولا مفرِّط ، أي : لا مجاوز ولا مقصِّر ، والمجاوزة للحدِّ هي ما ورد في قوله ﷺ : « لا تُطْروني كما أطرتِ النصارى عيسى بن مريم : جعلوه ابن الله ، ولكن قولوا : عبد الله ورسوله » .

وقيل : المعنى : لا يقبل الثناء عليه ﷺ إلّا من رجل يعرفُ حقيقة إسلامه من المخلصين الذين طابق لسانُهم جنانَهم ، ليس من المنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، فيمدحون بالظاهر ، ويقدحون بالباطن .

وقيل : المعنى : أنه ﷺ لا يقبل المدح من أحد إلا من مكافئٍ على إنعامٍ ناله المادحُ من رسول الله ﷺ ، فيكون مدحُه من باب المكافأة وإلا لم يقبله منه ، بل يُعرض رسول الله ﷺ عنه ، لأن الله تعالى ذمَّ من يُحبُّ أن يُحمد بما لم يفعل ، في قوله تعالى : ﴿ لا تحسبنَّ الذين يفرحون بما أتَوْا ويُحبُّون أن يُحمَدوا بما لم يفعلوا . . ﴾ الآية .

وقد أورد هذه الوجوه من المعاني العلامة الشيخ علي القاري والعلامة المناوي في (شرحهما على الشمائل) ، وكذلك العلامة الخفاجي وغيره في (شرح الشفا) .

قيام [1] .

سيرته ﷺ في سكوته

وفي رواية الطبراني وغيره :

قال الحسين رضي الله عنه : فسألت أبي علياً رضي الله عنه : كيف كان سكوته ﷺ ؟

فقال :

كان سكوته على أربع : الحِلْم ، والحذَر ، والتقدير ، والتفكير .

وفي رواية : الحكم ، والحذر ، والتدبُّر ، والتفكر .

فأما تقديره ﷺ : ففي تسوية النظر ، والاستماع بين الناس .

وأما تذكُّره ـ أو قال تفكره ـ: ففيما يبقى ويفنى .

وجُمع له ﷺ الحلم والصبر [2] ، فكان لا يُغْضِبُهُ شيء ولا يستفزّه .

وجُمع له الحذَر في أربع : أَخْذُه بالحسن ، والقيام لهم فيما جَمع لهم الدنيا والآخرة . ﷺ .

(١) من تواضعه ﷺ وإكرامه جليسه : أنه لا يقطع على أحد كلامَه ، بل يستمع له حتى يفرغ من كلامه ، إلا أن يتجاوز حدَّ الحق الذي شرعه الله تعالى ، فيقطع عليه كلامه بنهيه عن استمراره في الكلام ، أو بقيام من المجلس .

(٢) وفي نسخة : جُمع له الحلم في الصبر ـ قال الخفاجي : أي مع الصبر على أمور الناس والأمة ، فكان ﷺ مع حلمه صابراً لا يضجر ولا يقلق . اهـ .

وفي رواية للطبراني ـ كما في (مجمع الزوائد) ـ: وجُمع له الحذر ﷺ في أربع : أخذُه بالحسن ليُقتدى به ، وتركُه القبيح ليُتناهى عنه ، واجتهاده الرأيَ فيما أصلح أمته ، والقيام فيما جَمع لهم الدنيا والآخرة[1] .

وإن كل عاقل إذا تدبَّر هذه الأوصاف الكاملة ، والأخلاقَ الفاضلة ، والخصالَ الحميدة ، والمزايا الرشيدة ، التي تأصَّلتْ في سيدِنا محمد ﷺ ، واجتمعتْ كلها فيه على أكمل وجوهِها ، وأعلى مستوياتها ـ إذا تدبَّرَ ذلك : علم يقيناً أنَّ سيدَنا محمداً الذي اتَّصفَ بتلك الصفات ، ليس هو إنساناً كغيره من بني الإنسان ، وإنما هو إنسان مخصَّص من رب العالمين ، بخصائص أكرمَه الله بها ، ومميَّز على غيره بمزايا منحه الله إياها ، وأنَّ قضيَّته إنما هو نبي الله ورسوله ، ليس ذلك من باب أدب الأدباء ، ولا من باب حكمة الحكماء ، ولا نجابة النجباء ، ولكن من باب أنه : رسول الله وخاتم الأنبياءِ ، صلوات الله عليه وعليهم وسلامه ـ آمين .

---

(١) يعني أنه ﷺ كان يبذُل جهده فيما يُصلح الأمة ، ويجمع لهم خير الدنيا والآخرة وسعادتهما .

وهذا الحديث ـ كما قال العلامة الزَّبيدي في (شرح الإحياء) ـ: أخرجه الترمذي في (الشمائل) ، والبغوي ، والطبراني ، والبيهقي في (الدلائل) من طرق ـ قال : وأخرجه ابن منده . اهـ .

وقد أورده الحافظ الذهبي في (تاريخ الإسلام) بروايات ، والحافظ ابن كثير في (البداية) أيضاً معزواً للطبراني وغيره .

من آدابه العامة ﷺ

وقاره العظيم ﷺ

كان رسول الله ﷺ أشدَّ الناس وقاراً ، وأعظمهم أدباً ، وأرفعَهم فخامةً وكرامةً .

روى أبو داود في (مراسيله) عن خارجةَ بن زيد الأنصاري رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ أوقرَ الناس في مجلسه ، لا يكاد يُخرج شيئاً من أطرافه .

قال كثير من العلماء : يعني أنه ﷺ لا يُظهر شيئاً من أطراف جسمه الشريف ، وقاراً منه .

وقال العلامة القاري في معنى : لا يكاد يُخرج شيئاً من أطرافه : أي : من بُزاقِ فمه ، أو مخاط أنفه ، أو قطع ظفره . اهـ .

وروى ابن ماجه عن إسماعيل قال : دخلنا على الحسن ـ أي : البصري ـ نعوده حتى ملأنا البيت ، فقبض رجليه ثم قال : دخلنا على أبي هريرة نعوده حتى ملأنا البيت ، فقبض رجليه ثم قال ـ أبو هريرة ـ: دخلنا على رسول الله ﷺ حتى ملأنا البيت وهو ﷺ مضطجع لجنبه ، فلما رآنا قبض رجليه ثم قال : « إنه سيأتيكم أقوام من بعدي يطلبون

العلم ، فرحِّبوا بهم وحيُّوهم وعلِّموهم »[1] .

تقديمه ﷺ كبير القوم في الكلام

كان رسول الله ﷺ يقدّم كبير القوم في الكلام والسؤال ، وذلك من باب التكريم وحفظ المراتب وتنزيله الناسَ منازلهم :

روى البخاري عن سهل بن أبي حَثْمة أن نفراً انطلقوا إلى النبي ﷺ - وفي رواية : جاء عبد الرحمن بن سهل وحُويِّصة ومحيِّصة ابنا مسعود إلى النبي ﷺ - فقالوا : يا رسول الله انطلقنا إلى خيبر ، فوجدنا أحدنا قتيلاً - وفي رواية : فبدأ عبد الرحمن يتكلم ، وكان أصغرَ القوم .

فقال ﷺ : « كبِّر الكِبرَ » .

وفي رواية : « يبدأ الأكبر » .

وفي رواية : « الكبرَ الكبرَ »[2] .

وفي رواية : « كبِّرْ كبِّرْ »[3] يريد السنَّ . . . الحديث في باب القَسامة .

والمعنى قدِّم للكلام من هو أكبر منك سنّاً ليعرِض القضية .

---

(١) انظر مقدمة (سنن) ابن ماجه في فضل العلم وقال في (الزوائد) : إسناده ضعيف .

(٢) بالنصب على الإغراء ، كما في (الفتح) ، أي قدموا الأكبر .

(٣) بتكرار الأمر .

وفي (مسند) أحمد عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال :

« ليس منا من لم يوقِّر الكبير ، ويرحمِ الصغير ، ويأمرْ بالمعروف وينهَ عن المنكر » .

تكريمه ﷺ أهل الفضل

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « البركة مع أكابركم[1] » .

وفي رواية البزار : « الخير مع أكابركم » .

والمعنى : أن البركة مع أكابركم في الدين والعلم .

كما دل عليه حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ليس من أمتي من لم يُجلَّ كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقَّه »[2] .

فمن ذلك : إكرامُه ﷺ لعمه العباس رضي الله عنه ومباهاتُه به ،

---

(١) عزاه في (الجامع الصغير) إلى ابن حبان قال : وصححه ابن حبان ، و (الحلية) والبيهقي والحاكم في (المستدرك) وقال : صحيح على شرط مسلم كما في (الترغيب) من كتاب الأدب ، ورواه البزار والطبراني وفي إسناد البزار حماد ، وثقه جماعة ، وفيه ضعف ، وبقية رجاله رجال الصحيح . اهـ .

(٢) قال في (مجمع الزوائد) : رواه أحمد والطبراني وإسناده حسن .

وإعلانه ﷺ ذلك أمام الصحابة ، ليقتدوا به في تكريم عمه العباس رضي الله عنه :

روى الطبراني بسند حسن عن ابن عباس ، عن أمه أم الفضل ، أن العباس أتى النبي ﷺ ، فلما رآه قام إليه وقبَّل ما بين عينيه ، ثم أقعده عن يمينه ﷺ ، ثم قال : « هذا عمي ، فمن شاء فلْيُباهِ بعمه » .

فقال العباس : نِعم القولُ يا رسول الله . . الحديث .

وروى الحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : استسقى عمر عام الرَّمادة ـ أي : عام القحط ـ بالعباس فقال : (اللهم هذا عمُّ نبيك ، نتَوجَّه إليك به ، فاسْقِنا) .

فما بَرِحوا حتى سُقوا .

فخطب عمر فقال : (يا أيها الناس ، إن رسول الله ﷺ كان يرى للعباس ما يرى الولد لوالده : يعظِّمه ، ويفخِّمه ، ويبرُّ قَسَمه ، فاقتدوا برسول الله ﷺ في عمه العباس واتَّخذوه وسيلةً إلى الله فيما نزل بكم) .

وبعض هذا الحديث في صحيح البخاري .

وكان الصحابة رضي الله عنهم يعظمون العباس ويكرمونه ، اتّباعاً للنبي ﷺ :

فقد روى الحافظ ابن عبد البر عن ابن شهاب أنه قال : كان الصحابة يعرفون للعباس فضله ، فيقدِّمونه ويشاورونه ، ويأخذون برأيه .

وروى أيضاً عن أبي الزِّناد أنه قال : لم يمرَّ العباس بعمر وعثمان وهما راكبان ، إلا نزلا عن دابَّتهما ، حتى يجوزَ العباس ، إجلالاً له ويقولان : عم رسول الله ﷺ .

ومن لطائف أدب العباس مع النبي ﷺ :

ما رواه ابن أبي عاصم عن أبي رَزين ، والبغوي في (معجمه) عن ابن عمر ، أنه قيل للعباس : أنت أكبرُ أو النبي ﷺ ؟

فقال : هو أكبرُ مني ، وأنا وُلدتُ قبله .

انظر (الإصابة) وشرح الزرقاني على (المواهب) .

وفي (الإصابة) نقلاً عن الشعبي أنه قال : ذهب زيد بن ثابت رضي الله عنه ليركب ، فأمسك ابن عباس رضي الله عنهما بالركاب .

فقال : تنحَّ يا ابنَ عمِّ رسول الله ﷺ .

قال : لا ، هكذا نفعل بالعلماء والكبراء[1] .

وروى الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : بينا رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح في نفرٍ من أصحابه ، إذ أُتي بقدَح فيه شراب .

فناوله رسول الله ﷺ أبا عبيدة ، فقال أبو عبيدة : أنت أولى به يا نبي الله .

---

(١) قال في (مجمع الزوائد) ٩ : ٣٤٥ : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير رزين الرماني وهو ثقة . اهـ .

قال : « خُذْ » فأخذ أبو عبيدة القدح ، وقال قبل أن يشرب : خذ يا نبي الله .

فقال ﷺ : « اشرب فإنَّ البركة مع أكابرنا ، فمن لم يرحم صغيرنا ، ويجلَّ كبيرنا : فليس منَّا »[1] .

فأراد ﷺ أن يكرم أبا عبيدة فناوله القدح ، وأثنى عليه بقوله : « البركة مع أكابرنا » .

وروى أبو داود عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن من إجلال الله : إكرامَ ذي الشيبة المسلم ، وحاملِ القرآن غيرِ الغالي فيه ولا الجافي عنه ، وإكرامَ ذي السلطان المُقْسِطِ » .

تحسينه ﷺ الحسن
وتنشيطه على إتقان العمل وحسنه

كان رسول الله ﷺ يُحسِّن الأمر الحسن ويمدح على ذلك ؛ تكريماً لمن أحسن فيه ؛ وتنشيطاً لهمته ، ويُقبِّح الأمر القبيح ويردُّه .

روى الإمام أحمد عن يحيى بن الجزار قال : دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ على أم سلمة رضي الله عنها فقالوا : يا أم المؤمنين حدِّثينا عن سرِّ رسول الله ﷺ .

(١) قال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف . اهـ من كتاب الأدب .

قالت : (كان سرُّه وعلانيته سواءً ، ثم ندمتْ قالتْ : أفشيتُ سرَّ رسول الله ﷺ

قالت : فلما دخل رسول الله ﷺ أخبرتُه ، فقال : « أحسنتِ ») .

قال في (مجمع الزوائد) : رواه أحمد والطبراني وقال : يحيى عن أم سلمة ، ورجالهما رجال الصحيح اهـ .

وروى ابن حبان في (صحيحه) عن طَلْق بن علي الحنفي ـ نسبة لبني حنيفة ـ قال : بنيتُ المسجدَ مع رسول الله ﷺ فأخذتُ المِسْحاة بمخْلَطة الطين ، فكأنه أعجبه فقال : « دعوا الحنفي والطينَ ، فإنه أضبطُكم للطين » .

وفي (طبقات) ابن سعد عن طلق قال : قدمتُ على النبي ﷺ وهو يبني مسجده ، والمسلمون يعملون فيه معه ، وكنتُ صاحبَ علاجٍ وخلطِ طينٍ ، فأخذتُ المِسْحاة أخلط الطين ـ ورسول الله ﷺ ينظر إلي ، ويقول : « إن هذا الحنفيَّ لصاحبُ طين »[1] .

وكان ﷺ يحثُّ على إتقان العمل وإحسانه :

فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى يحبُّ إذا عمل أحدكم عملاً أن يُتْقنه »[2] .

(١) كذا في (التراتيب) .

(٢) ذكره في (الجامع الصغير) معزواً للبيهقي ، وقال العلامة المناوي : ورواه أبو يعلى وابن عساكر وغيرهما .

وروى البيهقي عن كُليب بن شهاب أن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى يُحبّ من العامل إذا عمل أن يُحسن »[1] .

مشاورته ﷺ لأصحابه

قال الله تعالى : ﴿ وشاورهم في الأمر فإذا عزمتَ فتوكلْ على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ .

فقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالمشاورة في الأمر الذي يحتاج بعدُ إلى المشاورة ، فإذا عزم قلبه على الفعل وعلى إمضائه بعد المشاورة ـ كما تدل عليه الفاء الدالة على الترتيب والتفريع ـ فليمضِ وليتوكل على الله تعالى .

وإنما أمر الله نبيه ﷺ أن يشاور أصحابه أهلَ الرأي والتدبير في الأمور التي تتطلَّب ذلك ، مع أن عقلهم بالنسبة إلى عقله الشريف ﷺ كالسُّها بالنسبة إلى شمس الضحى ، ورأيه فوق الآراء كلها ـ لحكم :

أولاً ـ تطييب نفوسهم ، حتى إذا دخلوا في ذلك الأمر ومضوا فيه ـ كالحرب وأمثالها ـ يكون ذلك عن طيب نفوسهم واختيارهم .

وذلك كما قال قتادة : أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يشاور أصحابه ، وهو يأتيه وحي السماء ، لأنه أطيب لأنفس القوم .

(١) كذا في (الجامع الصغير) رامزاً لضعفه .

ثانياً ـ الاستظهار برأيهم ، بمعنى أن رأيهم الموافق لرأيه ﷺ يزداد به ﷺ قوة .

كما روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن غَنْم أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر وعمر : « لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما » .

ثالثاً ـ أن يكون ذلك سنةً بعده ﷺ لأمته .

فقد أخرج البيهقي عن الحسن رضي الله عنه أنه قال في هذه الآية : قد علم الله تعالى ما برسول الله ﷺ حاجة إليهم ، ولكن أراد أن يستنَّ به مَن بعده .

وروى ابن عدي والبيهقي في (الشُّعَب) بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ قال رسول الله ﷺ : « أما إن الله ورسوله لغنيَّان عنها ، ولكنْ جعلها الله تعالى رحمةً لأمتي ، فمن استشار منهم لم يعدم رشداً ، ومن تركها لم يعدم غيّاً »[1] .

رابعاً ـ أن في المشاورة تقديراً للمستشار واعتباراً لمنزلته وإعطاءه حرية الرأي والنظر ، وبها يشعر المستشار أن له اعتباراً وشأناً ، وأن عليه مسؤولية ينبغي أن يؤديها حقها، ناصحاً صادقاً ، بخلاف الاستبداد في الرأي في مواضع الاستشارة ، فإنه يجعل الموجودين من عقلاء الرجال كالمفقودين ، ويجعل المختارين كالمكرَهين .

ولذلك كان ﷺ يُكثر أن يشاور أصحابه ، فقد روى الشافعي عن

(١) انظر جميع ذلك في (تفسير) الآلوسي .

أبي هريرة رضي الله عنه قال : ما رأيتُ أحداً أكثر مشاورة لأصحابه من النبي ﷺ .

خامساً ـ أن في المشاورة استعراضَ الأراء ، وشحذَ العقول والأفكار ، وبها يعرف مقادير الرجال ، وخبرتهم في الأمور ، ومدى تجاربهم فيها .

حثه ﷺ على الاستشارة

كان ﷺ يحث على الاستشارة ويرغِّب فيها :

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « المستشير مُعان ، والمستشار مؤتَمَن ، فإذا استُشير أحدُكم فليُشِر بما هو صانع لنفسه »[1] .

والمشورة ـ كما قال العلماء ـ أن تستخلص حلاوة الرأي وخالصه من خبايا الصدور ، كما يشور العسلَ جانيه .

وفي بعض الآثار : « نقِّحوا عقولكم بالمذاكرة ، واستعينوا على أموركم بالمشاورة » .

وقد بيَّن العلماء أن المستشار يجب أن يكون : أميناً محترماً ، ناصحاً ثابت الجأش ، غيرَ معجَب بنفسه ، ولا متلوِّن في رأيه ، ولا كاذبٍ في مقاله .

(١) رواه العسكري وأصله في (السنن) .

وزاد بعضهم : ولا محباً ـ أي : متغالياً في محبة الأمر المستشار فيه ـ لغلبة هوى محبوبه عليه ، ولا متجرِّداً عن الدنيا ، فإنه لا يُستشار في أمر الدنيا ، لعدم معرفته ، ولا منهمكاً في حبها ، لاستيلائها عليه ـ وذلك مما يُفسد رأيه ، ولا بخيلاً[1] .

وعن أبي مسعود أن النبي ﷺ قال : « المستشار مؤتَمَن ، وهو بالخيار[2] ، إن شاء تكلم ، وإن شاء سكت ، فإن تكلم فليجتهد رأيه »[3] .

وروى الطبراني عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار »[4] .

تصويبه ﷺ الرأي الحسن وعمله بمقتضاه

كان رسول الله ﷺ يُصوِّب رأي من تقدَّم برأي حسن صائب ، ويعلن ذلك تكريماً لصاحب الرأي الحسن ، وتنشيطاً لهمته ، وتقديراً لموقعه في مواضع الخبرة .

(١) انظر جميع ذلك في (شرح المواهب) من الجزء الرابع ـ قال : ويستحب تقديم الاستشارة على الاستخارة ؛ كما في (المدخل) اهـ .
(٢) ما لم يتعين عليه ، بأن كان يلحق المستشير ضرر إذا لم يشر عليه .
(٣) رواه الإمام أحمد ، وأصله في (السنن) الأربعة .
(٤) رواه الطبراني في (الأوسط) بإسناد ضعيف جداً ، لكن له شواهد كثيرة ، كما في (مجمع الزوائد) ، و(الجامع الصغير) و(شرح المواهب) .

وفي ذلك دليل على أنه ﷺ كان أوعى لحكمة الآراء ومراميها ، ومدى أثرها وعواقب أمرها ، فلذا كان يصوِّب حسنها ، ويردّ سيئها .

ففي (طبقات) ابن سعد أن النبي ﷺ استشار يوم قريظة والنضير ، فقام الحُباب بن المنذر فقال : أرى أن ننزل بين القصور ، فنقطع خبر هؤلاء عن هؤلاء ، وخبر هؤلاء عن هؤلاء . فأخذ النبي ﷺ بقوله [1] .

وروى الطبراني عن نُبيشة الخير أنه دخل على رسول الله ﷺ وعنده أسارى ، فقال : يا رسول الله إما أن تمنَّ عليهم ، وإما أن تُفاديهم .

فقال ﷺ : « أمرتَ بخير ، أنت نبيشة الخير » [2] .

وروى الطبراني وسعيد بن منصور عن طلحة مرفوعاً : « يا عَمْرو إنك لذو رأي رشيد في الإسلام » .

حبه ﷺ حسن الأسماء وكراهته قبيحها

كان ﷺ يحبُّ للمسلم صالح الأسماء وحَسَنها ، ويكره له سيِّءَ الأسماء وقبيحها ، وفي ذلك تكريم المسلم أن يُعرف باسم قبيح ، أو يُنادَى باسم قبيح أو يُوضَع عليه عَلَم قبيح : اسماً أو لقباً أو كنية .

روى الطبراني وأبو يعلى عن حنظلة بن حِزْيَم رضي الله عنه ، أن

(١) انظر (الطبقات) المجلد الثالث ص٥٦٧ .

(٢) قال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني وإسناده حسن . اهـ .

النبي ﷺ (كان يعجبه أن يُدعَى الرجل بأحب أسمائه إليه ، وأحب كُناه) [1] .

وذلك لما فيه من التكريم والتحابُب والتواصل ، وإدخال السرور عليه .

وقد أمر النبي ﷺ بتحسين الأسماء :

فروى أبو داود وابن حبان في (صحيحه) عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم تُدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم ، فحسِّنوا أسماءكم » [2] .

قال العلامة المناوي : ولا يعارض هذا الحديثَ خبرُ الطبراني : أنهم يُدعَون بأسماء أمهاتهم ، ستراً منه سبحانه على عباده ، لإمكان الجمع بأنَ من صح نسبه يُدعَى بالأب ، وغيره يُدعى بالأم ـ كذا جمع البعض .

وأقول : هو غير جيد ، إذ دعاءُ الأول ـ أي : الذي صح نسبه ـ بالأب ، والثاني ـ أي : الذي لم يصح نسبه ـ بالأم ، يُعرَف به ولد الزنا من غيره ، فيفوت المقصود ، وهو الستر ، ويحصل الافتضاح ـ فالأولى

(١) انظر (الجامع الصغير) رامزاً لحسنه ، وقال : رواه الطبراني وأبو يعلى وابن قانع في (معجم الصحابة) والباوَرْدي ، وقال المناوي : قال الهيثمي : ورجال الطبراني ثقات اهـ .

(٢) ورواه الإمام أحمد أيضاً ، وقال النووي في (الأذكار) : إسناده جيد ، قال المناوي : وتبعه الزين العراقي .

أن يقال : خبر دعائهم بالأمهات ضعيف ، فلا يُعارَض به الصحيح . اهـ .

وعن أبي وهب الجُشَمي ـ وكانت له صحبة ـ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تَسَمَّوْا بأسماء الأنبياء ، وأحبُّ الأسماء إلى الله : عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدقُها : حارث وهمَّام ، وأقبحها حربٌ ومُرَّة » .

قال الحافظ المنذري : رواه أبو داود ـ واللفظ له ـ والنسائي .

وإنما كان حارث وهمام أصدقَ الأسماء : لأن الحارث هو الكاسبُ ، والهمام هو الذي يهم مرة بعد أخرى ، وكل إنسان لا ينفك عن هذين . اهـ .

يعني : أن هذين الاسمين مطابقان لمعناها ، إذ كل إنسان يهمُّ أولاً ـ والهمُّ مبدأ الإرادة ـ ثم يتحرك للعمل ، وهو الكسب المعبَّر عنه بالحارث ، فهو حارث همام .

والاسم الكريم يُشعر بكرامة المسمَّى ، ولذلك كان ﷺ يغيِّر الاسم القبيح إلى اسم حسن :

فعن عائشة رضي الله عنها : (أن رسول الله ﷺ كان يُغيِّر الاسم القبيح) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن ابنةً لعمر كان يقال لها عاصية ، فسماها رسول الله ﷺ جميلة .

رواه الترمذي وقال : حديث حسن ، ورواه مسلم باختصار .

حبه ﷺ الفأل الصالح وكراهته التطير

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « لا عدوى ولا طِيَرة ، ويُعجبني الفأل الصالح : الكلمة الحسنة » .

قال في (النهاية) : الطِّيَرة : بكسر الطاء وفتح الياء ، وقد تُسكَّن : هي التشاؤم بالشيء ، وهو مصدر تطيَّر ، يقال : تطير طِيرة ، وتخيَّر خِيرة .

قال : وأصله فيما يقال :التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما[1] ، وكان ذلك يقيِّدهم ـ أي : يمنعهم في عهد الجاهلية ـ عن مقاصدهم ، فنفاه الشرع وأبطله ، ونهى عنه ، وأخبر أنه ليس له تأثير في جلب نفع أو دفع ضُرٍّ .

وقال أيضاً : الفأل ـ مهموز ـ فيما يسرّ ويسوء ، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء ، وربما استعملت فيما يسرّ .

وقال أيضاً : وقد جاءت الطيرة بمعنى الجنس ، والفأل بمعنى النوع .

(١) قال الأزهري : إن العرب كانت تزجر الطير ، فتتشاءم بالبارح ، وتتيمن بالسانح .
قال أبو عبيدة : سأل يونس رؤبة ـ وأنا شاهد ـ عن السانح والبارح ؟ فقال : السانح ما ولاك ميامنه ، والبارح ما ولاك مياسره .
وقيل : البارح ما يأتي من جهة الشمال ، والسانح ما يأتي من جهة اليمين .
ثم إنهم سموا الشؤم طيراً وطائراً ، والتشاؤم تطيراً ، وقد يطلقون الطائر على الحظ والنصيب : خيراً أو شراً ـ كذا في (تفسير) الآلوسي : سورة الأعراف .

وأشار بذلك إلى ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا طيرة ، وخيرها الفأل » .

قالوا : وما الفأل يا رسول الله ؟

قال : « الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم » .

ولذا قال في (المرقاة) يشرح قوله ﷺ : « وخيرها الفأل » أي : خير أنواع الطيرة بالمعنى اللغوي الأعم من المأخذ الأصلي اهـ .

والخلاصة : أنه ﷺ كان يعجبه الفأل الصالح ، أي : الكلمة الحسنة المبشِّرة بخير .

كما روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه (أن النبي ﷺ كان يُعجبه إذا خرج لحاجة أن يسمع : يا راشد يا نجيح) .

فالتفاؤل والاستبشار بالخير محمود شرعاً ، كأنْ يسمع طالبُ ضالة : يا واجد ، وأن يسمع التاجر : يا رازق ، والمسافر : يا سالم ، وقاصد الحاجة : يا نجيح ، والغازي : يا منصور ، والحاجُّ : يا مبرور ، والزائر : يا مقبول ، وأمثال ذلك ، كما في (المرقاة) وغيرها .

وأما التطيُّر بمعنى التشاؤم : فهو منهي عنه شرعاً :

وروى الإمام أحمد في (مسنده) بسند حسن ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان رسول الله ﷺ يتفاءل ولا يتطير ، وكان يحبُّ الاسم الحسن) .

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال

رسول الله ﷺ : « لا عدوى ، ولا طِيرة ، ولا هامةَ ، ولا صَفَر ، وفِرَّ من المجذوم فِرارَك من الأسد » .

فنفى رسول الله ﷺ تأثير العدوى من ذاتها ، وأنها لا محالة مؤثرة ، كما كانوا يعتقدونه في الجاهلية وإنما هي سبب من الأسباب ، والفعَّال المؤثر بالأسباب هو الله تعالى وحده .

روى البخاري أن النبي ﷺ قال : « لا عدوى ، ولا هامةَ ، ولا صفرَ » .

فقال أعرابي : يا رسول الله فما بالُ الإبل تكون في الرمل لكأنها الظِّباء ، فيخالطها البعير الأجرب فيُجْرِبها ؟! .

فقال ﷺ : « فمن أعدى الأول » ؟.

فالعدوى سبب ، ولكنها لا تؤثر من ذاتها ، وإنما تؤثر بإذن الله تعالى ومشيئته ، وقدرته وإرادته ، ولذا قال ﷺ : « وفِرَّ من المجذوم فرارك من الأسد » أي : حذراً من أن تؤثر فيك العدوى بإذن الله تعالى وقدرته .

وقد قال العارفون : الأسباب حُجَّاب بين يدي رب الأرباب ، يتصرَّف فيها بقدرته ومشيئته وحكمته ، وهو المؤثر الفعَّال .

وقوله ﷺ : « ولا طيرة » أي : لا اعتبار للتطير في الشؤم .

وقال بعضهم : هو نفي معناه النهي ، أي : لا تتطيروا ولا تتشاءموا .

« ولا هامة » قال في (المرقاة) : هي اسم طير يتشاءم به الناس ،

وهي الصَّدَى ، وهو طير كبير يضعف بصره في النهار ، ويطير في الليل ، ويصوِّت ، ويسكن الخراب ، ويقال له : بوم ، وهذا أحد قولين حكاهما الإمام النووي .

وثانيهما : كانت العرب تزعم أن عظام الميت ـ وقيل : روحه ـ تنقلب هامة تطير ـ قال : وهذا تفسير أكثر العلماء ، وهو المشهور ، ويجوز أن يكون المراد النوعين معاً ، فإنهما باطلان . اهـ .

« **ولا صفر** » قال أبو داود : سئل مالك عن قوله: « ولا صفر » ؟

فقال : إنّ أهل الجاهلية كانوا يُحِلُّون صفر : يُحلونه عاماً ، ويحرمونه عاماً ـ فقال النبي ﷺ : « ولا صفر » .

وقد أرشد النبي ﷺ الرجلَ الذي يرى ما يكرهه ، وربما دخل عليه التشاؤم منه ، أن يقول : « اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك » كما في (سنن) أبي داود .

وروى الإمام أحمد عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من ردَّتْه الطِيرة ـ أي : منعته ـ من حاجته ، فقد أشرك » .

قالوا : وما كفارة ذلك يا رسول الله ؟

فقال : « يقول : اللهم لا خيرَ إلا خيرك ، ولا طيرَ إلا طيرك ، ولا إلَه غيرك »[1] .

(١) قال في (مجمع الزوائد) : أخرجه أحمد والطبراني ، وفيه ابن لهيعة وحديثه =

حبه ﷺ التيمن في شأنه كله

روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان النبي ﷺ يُعجبه التيمُّنُ في تنعُّله وترجُّله ، وفي طُهوره وفي شأنه كله) .

وفي رواية لمسلم : (كان رسول الله ﷺ يحبُّ التيمُّن ما استطاع : في طهوره وتنعُّله وترجُّله ، وفي شأنه كلِّه) .

والتيمُّن : هو الابتداء في الأفعال باليد اليمنى ، إن كان الفعل منوطاً باليد ، وبالرجل اليمنى إن كان منوطاً بالرجل ، وبالجانب الأيمن إن كان الفعل متعلقاً بالجوانب .

والحكمة في ذلك كما أوضحه العلماء والعرفاء : هو أنه من باب تكريم اليمين ، والتفاؤل الحسن ، فإن أصحاب اليمين هم أهل الجنة ، ويؤتَوْن كتبهم بأيمانهم ، ونورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم .

وفي هذا يتجلى تمام تنظيمه ﷺ وهديه في مباشرة الأعمال ، وذلك أنه لا بد من تقديم أحدِ طرفي اليمين أو الشمال في مباشرة الأعمال ، فرفع رسول الله ﷺ الفوضى في ذلك ، وسنَّ البدء باليمين ، ورجَّحها على الشمال ـ لما تقدَّم .

فكان ﷺ يبدأ باليمين في **طهوره** ـ أي : تطهره ، وهذا شامل

= حسن وفيه ضعف ، وبقية رجاله ثقات . اهـ .
وروى البزار نحوه من حديث أبي هريرة وبريدة رضي الله عنهما ، كما في (مجمع الزوائد) أيضاً .

للوضوء والغسل والتيمم ، **وفي ترجُّله** ـ أي : تمشيط شعر رأسه الشريف ولحيته ﷺ [1] ، **وفي تنعُّله** ـ أي : لبس نعله .

وزاد أبو داود في روايته : **وفي سواكه ﷺ ، وفي شأنه كله** .

وجاء في رواية النسائي : (كان رسول الله ﷺ يحبُّ التيمُّن : يأخذ بيمينه ويعطي بيمينه ، ويحبُّ التيمُّن في جميع أمره) .

وهذا العموم الوارد في تيامنه ﷺ في جميع أمره هو ـ كما قال الإمام النووي وغيره ـ محمول على ما كان من باب التكريم والتزيين : كالأخذ والعطاء ، ودخول المسجد والبيت ، وحلق الرأس وقص الشارب ، وتقليم الأظفار ، ونتف الابط ، والاكتحال ، والاضطجاع ، والأكل والشرب [2] .

وأما مالا تكريم فيه ولا تزيين ، بل هو من باب الإزالة ، فإنه يؤخذ باليسار ، إكراماً لليمين أيضاً ، كما دلَّ عليه ما رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كانت يد رسول الله ﷺ اليمنى لطُهوره وطعامه ، وكانت يده اليسرى لخلائه وما كان من أذىً) .

ورَوَى أيضاً في كتاب الطهارة ، عن حفصة زوج النبي ﷺ (أن النبي ﷺ كان يجعل يمينه لطعامه وشرابه وثيابه ، ويجعل شماله لما سوى ذلك) .

ورَوَى أيضاً عن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال : « إذا بال أحدكم فلا

(١) كذا في (جمع الوسائل) .
(٢) كما في (جمع الوسائل) وغيره .

يمسَّ ذكرَه بيمينه ، وإذا أتى الخلاءَ فلا يتمسَّح بيمينه ، وإذا شرب فلا يشربْ نَفَساً واحداً » .

وكان ﷺ يأمر باستعمال اليمين في الطعام والشراب ، والأخذ والعطاء ، وينهى عن استعمال الشمال في ذلك :

روى ابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ليأكلْ أحدكم بيمينه ويشرب بيمينه ، وليأخذْ بيمينه ، ولْيعطِ بيمينه .

فإن الشيطان يأكلُ بشماله ، ويشرب بشماله ، ويعطي بشماله ويأخذ بشماله » .

وروى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لا يأكلنَّ أحدكم بشماله ولا يشربنَّ بشماله ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها » .

وكان ﷺ يقدِّم الأيمن فالأيمن ، ويقول : « الأيمَنَ فالأيمن » :

روى الشيخان واللفظ للبخاري عن أنس رضي الله عنه أنه رأى رسول الله ﷺ شرب لبناً وأتى داره [1] فحلبتُ شاةً فشِبْتُ لرسول الله ﷺ من البئر ، فتناول القدَح فشرب ، وعن يساره أبو بكر ، وعن يمينه أعرابيٌّ ، فأعطى رسول الله ﷺ الأعرابيَّ فضلَه ، ثم قال : « الأيمَنَ فالأيمَنَ » [2] .

(١) أي : والحال قد أتى رسول الله ﷺ دار أنس .
(٢) أي : قدموا الأيمن فالأيمن .

وفي رواية : « الأيمنون فالأيمنون » وفي رواية : « ألا فيمِّنوا » .

قال الحافظ في (الفتح) : أي : يقدَّم من على يمين الشارب في الشرب ، ثم الذي عن يمين الثاني ، وهلمَّ جراً ، وهذا مستحب عند الجميع .

وقال ابن حزم : يجب . اهـ [1] .

فيُبدأ بكبير القوم أو مقدَّمهم في الفضل ، أو رئيسهم ، ثم بمن على يمينه .

كراهيته ﷺ

إطلاق بعض الكلمات مخافة إيهامها

جاء في (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ قال : « لا يقولنَّ أحدكم : خَبُثَتْ نفسي ، ولكن ليقل : لَقِسَتْ نفسي » .

وفي (سنن) أبي داود عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ قال : « لا يقولنَّ أحدكم : جأَشَتْ نفسي ، ولكن ليقل : لَقِسَتْ نفسي » .

(١) (فتح الباري) : ١٢ : ١٨٨

قال الإمام النووي : قال العلماء : معنى لَقِسَتْ وجأشَتْ : غثت [1] .

قالوا : وإنما كره خبثت ، للفظ الخبث والخبيث .

وقال الإمام أبو سليمان الخطابي : لَقِستْ وخبثت : معناهما واحد ، وإنما كره خبثت ، للفظ الخبث وبشاعة الاسم منه ، وعلَّمهم الأدب في استعمال الحسن منه ، وهجران القبيح . اهـ .

يعني : أنه ﷺ كره أن يضيف المسلم لنفسه كلمةً فيها خبث وبشاعة ، فإن المسلم أكرم من ذلك .

ومن ذلك : نهيه ﷺ أن يقول العبد لسيِّده : ربي ، بل يقول : سيدي ومولاي ، **ونهيه أن يقول السيد** : عبدي وأَمَتي ، ولكن ليقل : غلامي ، وجاريتي ، وفتاي ، وفتاتي .

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « لا يقل أحدكم ـ أي : لغيره من المخلوقات ـ: ربي ، وليقل : سيدي ومولاي » .

وفي رواية له أيضاً : « لا يقولنَّ أحدكم : عبدي وأَمَتي ، كلكم عبيد الله ، وكلُّ نسائكم إماءُ الله ، ولكن ليقل : غلامي وجاريتي ، وفتاي وفتاتي » .

(١) يقال : غثت النفس ، تغثي ، غثياً ، وغثياناً : إذا اضطربت ، حتى كادت تتفيأ .

والحكمة في هذا النهي : إغلاقُ باب الموهمات سدّاً للذريعة ، وإيقافُ نفوس أصحاب الغلمان والجواري عن التطاول والغطرسة والترفع والكبر .

وفي ذلك أيضاً : تكريم للغلمان والجواري ، وإحسان إليهم ، وجبر لقلوبهم .

ومن ذلك : **تحذيره** ﷺ الرجلَ من أن يقول : هَلَك الناس ـ وهو يريد بذلك انتقاصَهم واحتقارهم ، وتنزيه نفسه وتفضيلها عليهم :

روى الإمام مسلم في (صحيحه) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا قال الرجل : هَلَكَ الناسُ فهو أهلكَهُم » .

قال الإمام النووي : قلتُ : رُوي أهلكهم برفع الكاف وفتحها : والمشهور الرفع ، واستُدِلَّ على ذلك برواية في (الحلية) : « فهو من أهلكهم » ـ ثم قال :

قال الحميدي : والأشهر الرفع ـ أي : أشدُّهم هلاكاً ، وذلك إذا قال ذلك على سبيل الإزراء عليهم ، والاحتقار لهم ، وتفضيل نفسه عليهم ، لأنه لا يدري سرَّ الله تعالى في خلقه . اهـ .

يعني أن المحتقِر لغيره ربما ساء عمله ، وختم له بسوء العاقبة ، وأنَّ المحتقَر ربما صلح أمره ، وختم له بحسن العاقبة .

اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرْنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

وقال الإمام النووي : قال الخطابي : معناه : لا يزال الرجل يَعيب

الناسَ ، ويذكر مساوئهم ، ويقول : فسد الناس وهلكوا ونحو ذلك ، فإذا فعل ذلك فهو أهلكهم ـ أي : أسوأ حالاً فيما يلحقه من الإثم في عيبهم ، والوقيعة فيهم ، وربما أدّاه ذلك إلى العجب بنفسه ورؤيته أن له فضلاً عليهم ، وأنه خير منهم فيهلك . اهـ .

ثم أورد الإمام النووي سند هذا الحديث عند أبي داود وأنه قال : قال مالك :

إذا قال ذلك تحزُّناً لما يرى في الناس ـ قال : يعني من أمر دينهم ـ فلا أرى به بأساً .

وإذا قال ذلك عجباً بنفسه ، وتصاغراً للناس ؛ فهو المكروه الذي يُنهى عنه .

قال النووي : قلت : فهذا تفسير بإسنادٍ في نهايةٍ من الصحة ، وأحسنُ ما قيل في معناه ـ أي : معنى هذا الحديث ـ وأوجز ، ولا سيما إذا كان عن الإمام مالك رضي الله عنه . اهـ كما في (الأذكار) .

فليحذر المسلم أن يزكي نفسه ، ويحتقر غيره ، أو أن يكرم نفسه ، ويُزري بغيره من المسلمين المخلِّطين ، ولكن لِيأسفْ عليهم ولْيحزنْ عليهم ، وليدعُ الله تعالى لهم .

وجاء في (بلاغات الإمام مالك التي أوردها في الموطأ) :

(أن عيسى بن مريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام كان يقول : لا تُكثِروا الكلامَ بغير ذكر الله ، فتقسوَ قلوبكم ، فإن القلبَ القاسي بعيدٌ من الله ، ولكن لا تعلمون

ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب ، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد[1] فإنما الناسُ : مبتلىً ومُعافىً ، فارحموا أهل البلاء ، واحمَدوا الله على العافية[2]) .

* * * *

(١) فلا ينظر المسلم إلى ذنوب الناس كأنه رب منزه عن الذنوب والعيوب ، وأن الناس عبيد محتقرون ، مهينون بذنوبهم وعيوبهم ، ولكن ينبغي أن ينظر المسلم إلى عيوب نفسه وذنوبها كأنه عبد يخشى أن يطلع عليه سيده ، فإن الإنسان لا يخلو عن ذنوب وعيوب ، ظاهرة أو باطنة ، كبيرة أو صغيرة .

(٢) ارحموا أهل البلاء ـ أي : المذنبين ـ بالموعظة الحسنة ، والرفق في أمرهم وعدم احتقارهم ، وبالستر عليهم ، واحمدوا الله على العافية من الذنوب ، ليديم ذلك عليكم ـ كذا في (شرح الزرقاني على الموطأ) .

حول عباداته ﷺ

إن سيدنا محمداً رسول الله ﷺ قد نال أشرف مقامات العبادة وأقربها إلى الله تعالى زلفى ، فهو ﷺ سيد العِباد ، وإمام العُبَّاد .

قال الله تعالى : ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسَبِّح بحمد ربك وكنْ من الساجدين . واعبدْ ربَّك حتى يأتيَك اليقين ﴾ .

فأمر الله تعالى رسوله ﷺ في هذه الآية بأربعة أشياء : التسبيح ، والتحميد ، والسجود ، والعبادة حتى الموت .

أما التسبيح : فهو تنزيه الله تعالى عما لا يليق به .

وأما التحميد : فهو إثبات المحامد له والكمالات اللائقة به .

ثم قال سبحانه : ﴿ وكن من الساجدين ﴾ أي : المصلين ، فأطلق الجزءَ ـ وهو السجود ـ وأراد الكلَّ ـ وهو الصلاة ـ وفي هذا الأمر وهو قوله تعالى : ﴿ وكن من الساجدين ﴾ : فيه التنبيه إلى أفضلية السجود ، كما صح أن النبي ﷺ قال : « أقربُ ما يكون العبدُ من ربه عزّ وجَلَّ وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » رواه مسلم .

وجاءت هذه الأوامر بعد ما ذكر سبحانه ما يعتري رسوله

الكريم ﷺ من ضيق صدره الشريف ، والغم الذي يجده بسبب ما يقوله الكفار من كلمات الكفر والاستهزاء والسخرية بما جاءهم به من عند الله تعالى .

فجاء قوله تعالى : ﴿ فسبحْ بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾ بعد ذلك إرشاداً إلى ما يكشف الله تعالى من الغمِّ ، ويزيل به ذلك الهمّ ، ويشرح به الصدر ، ويذهب ذلك الضيق ، ولذلك كان ﷺ إذا أحزنه أمر فزِع إلى الصلاة .

ثم قال سبحانه : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ أي : الموت ، وسُمي بذلك لأنه متيقّن اللحوق بكل حيٍّ مخلوق .

والمعنى : دُم على العبادات ما دمت حياً من غير إخلال بها لحظةً .

ومما يدل على أن المراد باليقين هنا الموت : قوله تعالى : ﴿ إلا أصحابَ اليمين . في جناتٍ يتساءلون عن المجرمين : ما سلككم في سَقَر ؟. قالوا : لم نكُ من المصلِّين . ولم نكُ نُطعمُ المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذِّب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين ﴾ أي : الموت .

وجاء في الحديث الذي رواه البخاري وأحمد أن النبي ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون ـ وقد توفي ـ فقال ﷺ : « أمّا هو ـ أي : عثمان ـ فقد جاءه اليقين من ربه ، وإني لأرجو له الخير » فأراد ﷺ باليقين الموت .

وقوله تعالى : ﴿ واعبدْ ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ معناه : واعبد ربك مدة حياتك كلِّها ، دائماً دائباً .

وهذه الآية نظير قوله سبحانه إخباراً عن رسوله عيسى بن مريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام : ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمتُ حياً ﴾ .

وفي (شرح السنة) للحافظ البغوي ، عن جبير بن نُفَير مرسلاً : أن النبي ﷺ قال : « ما أُوحيَ إليَّ أنْ أجمعَ المال وأكونَ من التاجرين ولكن أوحيَ إليَّ أنْ ﴿ سَبِّح بحمد ربك وكنْ من الساجدين . واعبدْ ربك حتى يأتيَك اليقين ﴾ » .

فالعابد مهما ارتفع مقامه في العبادات ، لا يستغني عن عبادة ربه تعالى ، ولا يسقط عنه الأمر التكليفيّ بالعبادة ما دام حياً عاقلا .

قال الله تعالى : ﴿ ربُّ السموات والأرض وما بينهما ، فاعبُدْه واصطبِرْ لعبادته هل تعلم له سميّا ﴾ ؟! .

أي : مثيلا مساوياً له ومشابهاً ؟ لا : بل هو سبحانه كما قال : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ .

والمعنى : أنه سبحانه لا مِثل له أصلا ، وجيء بـ ﴿ مثل ﴾ هنا تأكيداً لنفي المثلية من كل الوجوه والاعتبارات .

وهذا له شواهد كثيرة في القرآن الكريم ، وفي لغة العرب ، وقد نزل القرآن بلسان عربي مبين ، قال تعالى : ﴿ ولم يكن له كُفُواً أحد ﴾ أي : ليس له شبيه ولا عديل .

والمقصود : أن الله تعالى أمر عباده بعبادته ، وأمرهم بالاصطبار لها ، وذلك بالمحافظة عليها في أوقاتها ، والمواظبة الدائمة عليها في الأيام والليالي ، وذلك بإعطاء كل وقتٍ حقّه وحظَّه من العبادة ليلَ نهار .

ولذلك كانت عبادات النبي ﷺ دائمةً مستمرةً متواصلة في الليل والنهار :

روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها : أنها سُئلتْ : كيف كان عمل رسول الله ﷺ ؟ هل كان يخصُّ شيئاً من الأيام ـ أي : ويترك العمل في أيام ـ ؟ .

فقالت : (لا ـ كان عمله دِيمةً ، وأيُّكم يستطيع ما كان رسول الله ﷺ يستطيع ؟!) .

ولم يَدَعْ رسول الله ﷺ نوافله وتطوعاته طِيلة عمره ، كما جاء عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : (ما مات رسول الله ﷺ حتى كان أكثر صلاته ـ أي : التطوع ـ وهو جالس ، وكان أحبُّ العمل إليه ما داوم عليه العبد ، وإنْ كان شيئاً يسيراً) .

رواه ابن حبان في (صحيحه)[1] .

حقيقة العبادة

العبادة هي : التقرب إلى الله تعالى بأقصى غايات الخضوع والتذلل

(١) كما في (الترغيب) للحافظ المنذري .

له سبحانه ، فيما شرعه لعباده من الأقوال والأعمال: القلبية والبدنية والحالية .

وللعبادة لذة وحلاوة ، ونعيم وطلاوة ، فمَن طعِم حلاوتها ، وذاق لذتها ، تعلَّق بها وعشقها ، فهو لا ينفك عنها أبداً ، لأنها تصير راحته وريحانه .

وإن أعظم ذائقٍ ذاق حلاوتها ، وأكبر من نَعِم بها ، وشهد أسرارها وأنوارها ، هو سيدنا محمد ﷺ إمام العُبَّاد وسيد الصالحين ، وأتقى الأولين والآخرين بنص قوله سبحانه : ﴿ إن وليِّيَ الله الذي نزَّل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾ .

فلقد أخبر سبحانه أن توليته لعباده على نسبة صلاحهم ، وأن له سبحانه وتعالى توليةً خاصة لحبيبه ﷺ لم ينلها غيره ، أشار إليها بقوله : ﴿ إن وليِّي الله ﴾ أي : إن وليِّي المتولِّي لأمري كله على وجه الخصوص ، هو الله تعالى ، والتولية الإلٰهية : تكون على نسبة الصلاح ، كما دلَّ عليه آخر الآية ، فينتج من ذلك أن له في الصلاح مقاماً خاصاً به ، لم ينله غيره ﷺ .

ولذلك كان له ﷺ أكملُ ذوقٍ لحلاوة العبادات ، وألذُّ راحة ونعيم بها :

كما جاء في (المسند) وغيره أن النبي ﷺ قال : « قُمْ يا بلال أرِحْنا بالصلاة » .

وكما في (المسند) وغيره أن النبي ﷺ قال : « وجُعِلتْ قرَّةُ عيني في الصلاة » .

والمتَّبعون المحمديُّون نالوا نصيبهم من لذّة العبادات ، ونعيم الطاعات ، على حسب مراتبهم :

كما ورد عن الشيخ العارف الكبير إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه أنه قال : لو يعلم الملوك ما نحن عليه من اللذّة لجالدونا عليه بالسيوف .

وقال العارف الكبير الشيخ أبو سليمان الداراني رضي الله عنه : أهل الليل في ليلهم : ألذُّ من أهل اللهو في لهوهم ، ولولا الليلُ ما أحببتُ البقاء في الدنيا .

وكما قال بعضهم رضي الله عنهم : إذا كان أهل الجنة على ما نحن عليه : فهم في عيشٍ طيِّبٍ .

ولذلك كَلِفَ أهل الجنة عبادة ربهم سبحانه في الجنة كلَفاً بغير تكلُّف ، فهم يعبدون الله تعالى في الجنة ، أكثر من عباداتهم له في الدنيا .

كما ورد في (الصحيحين) من حديث أبي هريرة ، أن الله تعالى يقول للملائكة الذين يطوفون في الطُّرُق يلتمسون أهل الذكر : « ما يقول عبادي ؟

يقولون : يسبِّحونك ويكبرونك ، ويحمدونك ويمجِّدونك .

فيقول : هل رأوني ؟

فيقولون : لا والله يا ربِّ ما رأوك .

فيقول : كيف لو رأوني ؟

فيقولون : لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادةً ، وأشدَّ لك تمجيداً ، وأكثر لك تسبيحاً . . » الحديث .

فأهل الجنة أكثر عبادةً منهم في الدنيا ، لأنهم يرون ربهم سبحانه ، ولكن عبادتهم كَلَف بلا مشقة ، وإنما هي راحتهم ونعيمهم ، كما دل عليه ما جاء في (صحيح) مسلم عن جابر رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال في أهل الجنة : « يُلهَمون التسبيح والتحميد والتقديس ، كما تُلهمون النَفَس » .

وللعبادات آثار في نفس العابد : تهذِّبها من الرعونات والحماقات ، والدعاوي والأنانيَّات ، حتى تصفوَ نفس العابد ، وتدخل في دائرة العبودية ، لسلطان مقام الربوبية ، وقد قال ﷺ لربيعة بن كعب الأسلمي لما قال له : أسألك مرافقتَك في الجنة ، قال له ﷺ : « فأعِنّي على نفسك بكثرة السجود » .

وللعبادات صبغة نورانية : ينصبغ بها قلب العابد وعقله ، وجميع حواسِّه ، بالنور الإلهيّ ، حتى إنه ليشرق في وجه العابد إشراقاً ، قال الله تعالى : ﴿ صبغةَ الله ومن أحسنُ من الله صبغةً ونحن له عابدون ﴾ .

والمعنى : إلزموا صبغة الله ، فإنها صبغةُ نورٍ ثابت ، ولا أحسن منها صبغة ، وذلك بعبادتكم لربكم سبحانه كما شرع لكم ، قال ﷺ : « والصلاة نور ، والصبر ضياء » .

وبالعبادات صفاء القلب وجِلاؤه : ونقاؤه وضياؤه ، حتى إنه لتتجلَّى فيه أنوار الحق ، قال الله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض مَثَلُ نوره كمِشْكاة . . . ﴾ الآية .

أي : مثل نوره سبحانه في قلب عبده المؤمن ، كمشكاةٍ أي : كُوَّة فيها مصباح يتوقَّد بالنور .

والمشكاة تشير إلى الصدر ، والمصباح هو قلب المؤمن المشرِق بنور الإيمان بالله تعالى .

وقد أُنشِد لبعض العارفين في ذلك :

إذا سكن الغديرُ على صفاءٍ
وجنَّب أن يحرِّكه النسيمُ
بدتْ فيه السماءُ بلا امتراءٍ
كذاك الشمسُ تبدو والنجومُ
كذاكَ قلوبُ أربابِ التجلِّي
يُرَى في صفوها الله العظيمُ

وذلك كله من باب التجلِّي في المجالي ، وظهور النور في مرايا القلوب ، وليس ذلك من باب التجزُّؤ أو الحلول ــ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وبالعبادات يكون التقرُّب والاقتراب إلى رب الأرباب :

قال الله تعالى : ﴿ واسجُدْ واقتربْ ﴾ .

وقال ﷺ في الحديث القدسي : « وما يزال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه . . » الحديث .

انظره في كتابنا : (الصلاة في الإسلام) ، وكتابنا : (التقرب إلى الله تعالى) وفيه جمع لطرقه وبيان لمعانيه .

وليس هذا موضعَ تفصيل البحث ، حول آثار العبادة وأسرارها ، وإنما ألمحنا لمحات يَعتبر بها المعتبر ، فيعلمَ أن للعبادة أثراً في العابد كبيراً ، وسراً عظيماً ، وإشراقاً وضياءً ، ورفعةً ومقاماً ، وقرباً وحباً .

فماذا تتصور أيها العاقل من عظمة آثار عبادة سيِّد العُبَّاد والمقربين ، وإمام الأنبياء والمرسلين ؟ وماذا تقدِّر من قوة إشراقات عباداته ﷺ وضيائها ، وأنوارها وأسرارها ، ومدى مكانتها وقربها ؟

نعم إنه لا يحيط علماً بذلك إلا الله تعالى الذي اصطفاه على جميع المصطفين الأخيار .

المنهاج الذي رسمه النبي ﷺ للعابدين

إن منهاجه ﷺ الذي انتهجه في العبادة ، والذي رسمه للعُباد ، هو أقوم المناهج وأقواها ، وأفضلها عند الله تعالى وأهداها ، وأعدلها في أداء الحقوق وأكملها ، وهو أبين طرق التقرب إلى الله تعالى وأقربها ، ومهما جاء العابد بمشاقِّ التعبدات ، وأتى بعظائمَ من الطاعات ، لا يُقرِّبه ذلك إلى الله تعالى زلفى ، كما تقرِّبه السنة المحمدية التي سنَّها رسول الله ﷺ في الطاعات والعبادات .

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال : (جاء ثلاثةُ رهْطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته ، فلما أُخبِروا كأنهم تقالُّوها[1] .

قالوا : أين نحن من رسول الله ﷺ وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخَّر[2] ؟

فقال أحدهم : أما أنا فأصلِّي الليلَ .

وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر .

وقال الآخر : وأنا أعتزل النساء ولا أتزوَّج أبداً .

فجاء رسول الله ﷺ فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أمَا والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكن : أصوم وأفطر ، وأصلِّي وأرقُد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني »[3] .

---

(١) أي : رأوها قليلة بالنسبة لما ينبغي لهم .

(٢) أي : بيننا وبينه ﷺ بون بعيد ، ومسافة طويلة ـ فإننا معرضون للذنوب وسوء العاقبة ، ولم تضمن لنا المغفرة ، وأما النبي ﷺ فهو المعصوم والمضمون له الغفران . اهـ كما في (شرح ابن علان) على (رياض الصالحين) وغيره .

(٣) نقل العلامة محمد بن علان في (شرح رياض الصالحين) عن المطرزي في (شرح المصابيح) أنه قال عند قوله ﷺ : « فمن رغب عن سنتي فليس مني » يعني : من ترك ما أمرت به من أحكام الدين : فرضاً أو سنة ، على سبيل الاستخفاف بي ، وعدم الالتفات إليّ فليس مني ؛ لأنه كافر ، أما من تركه لا عن استخفاف بل عن الكسل ، لم يكن كافراً وحينئذ فقوله : « ليس مني » أي : من المقتدين بي والعاملين بسنتي . اهـ .

وكان منهاجه ﷺ في العبادة : أنه إذا عمل عملاً أثبته وداوم عليه :

روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « اكْلَفوا من العمل ما تطيقون ، فإن الله لا يَمَلُّ حتى تملُّوا ، وإن أحبَّ العمل إلى الله أدوَمُه وإنْ قلَّ » .

وكان ﷺ إذا عمل عملاً أثبته .

ومن إرشاداته ﷺ للعِباد والعُبَّاد : أن يقوموا بأداء جميع الحقوق التي عليهم ، دون أن يشغلهم حق عن أداء حقّ ، ولا يحملهم أداء واجب على إهمال واجب آخر :

ففي (سنن) أبي داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : بَعثَ رسول الله ﷺ إلى عثمان بن مظعون : « أرغبةً عن سنتي ؟ » .

فقال عثمان : لا والله يا رسول الله ولكن سنَّتَك أطلب .

فقال ﷺ : « فإني أنام وأصلِّي ، وأصوم وأفطر ، وأنكح النساء ، فاتقِ الله يا عثمان ، فإن لأهلك عليك حقاً ، وإن لضيفك عليك حقاً ، وإن لنفسك عليك حقاً ، فقم وأفطر ، وصلِّ ونمْ » .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : أُخبرَ النبي ﷺ أني أقول : والله لأصومنَّ النهار ، ولأقومنَّ الليل ما عشتُ ـ أي : مدة حياتي كلها .

فقال رسول الله ﷺ : « أنتَ الذي تقول ذلك » ؟ .

فقلت له : قد قلتُه بأبي وأمي يا رسول الله .

قال : « فإنك لا تستطيع ذلك ، فقُمْ وأفطرْ ، ونم وقم ، وصم من الشهر ثلاثة أيام ، فإن الحسنة بعشر أمثالها ، وذلك مثل صيام الدهر » .

أي : لأن صيام اليوم مقابَل بعشرٍ ، فصيام ثلاثة أيام من الشهر يعطي ثلاثين حسنة .

قال عبد الله بن عمرو : قلت : فإني أُطيقُ أفضلَ من ذلك .

وفي رواية لمسلم : إني أطيق أكثر من ذلك .

قال ﷺ : « فصم يوماً وأفطر يومين » .

قلت : فإني أطيق أفضل من ذلك .

قال : « فصم يوماً وأفطر يوماً ، فذلك صيام داود ﷺ ، وهو أعدلُ الصيام » .

وفي رواية : « هو أفضل الصيام » .

أي : أفضل أنواع صيام التطوع .

قال عبد الله بن عمرو : قلت : فإني أطيق أفضل من ذلك .

فقال رسول الله ﷺ : « لا أفضل من ذلك » .

قال ابن عمرو : ولأن أكون قبلتُ الثلاثة أيام التي قال رسول الله ﷺ أحبُّ إليَّ من أهلي ومالي .

وفي رواية : « ألم أُخْبَر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ » .

قلت : بلى يا رسول الله .

قال : « فلا تفعل ، صم وأفطر ، ونم وقم ، فإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لعينك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وإن لزَوْرِك عليك حقاً ، وإن بحسْبك أن تصوم في كل شهر ثلاثة أيام ، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها ، فإذاً ذلك صيام الدهر » .

قال ابن عمرو : فشدَّدتُ ـ أي : شددت على نفسي ولم أقبل رخصة النبي ﷺ ـ فشُدِّد عليَّ ، قلت : يا رسول الله إني أجدُ قوة

قال ﷺ : « صم صيام نبي الله داود ، ولا تزد عليه » .

قلت : وما كان صيام داود ؟

قال ﷺ : « نصف الدهر » .

فكان عبد الله بن عمرو يقول بعدما كبر ـ أي : في السن وثقل عليه ذلك العمل ـ : يا ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ .

وفي رواية : « ألم أُخبَر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة ؟ » .

فقلت : بلى يا رسول الله ، ولم أُرِدْ بذلك إلا الخير .

قال ﷺ : « فصم صوم نبي الله داود ، فإنه كان أعبدَ الناس ، واقرأ القرآن في كل شهر » .

قلت : يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك .

قال : « فاقرأه في كل عشر » .

قلت : يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك .

قال : « فاقرأه في كل سبع ، ولا تزد على ذلك » .

قال ابن عمرو : فشدَّدتُ فشُدِّد علي ، وقال لي النبي ﷺ : « إنك لا تدري لعلك يطول بك عُمُر » .

قال ابن عمرو : فصِرتُ إلى الذي قال لي النبي ﷺ ، فلما كبرتُ وددت أني كنتُ قبلت رخصة النبي ﷺ .

وفي رواية : « وإن لولدك عليك حقاً » .

وفي رواية : « لا صام من صام الأبد » .

وفي رواية : « أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود ، وأحب الصلاة ـ أي : قيام الليل ـ صلاة داود : كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفرُّ ـ أي : في الحرب ـ إذا لاقى » أي : لقي العدو .

وزاد النسائي : « وإذا وعد لم يخلف » .

وفي رواية : قال ابن عمرو : أنكحَني ـ أي : زوجَني ـ أبي امرأة ذاتَ حسَب ، وكان يتعاهد كنَّته ـ أي : امرأة ولده ـ فيسألها عن بعلها ـ أي : عن حال زوجها معها ـ فتقول : نِعم الرجلُ من رجل لم يطأ لنا فراشاً ولم يفتِّش لنا كَنَفاً .

أي : لم يكشف لنا ستراً ، وكنَّتْ بذلك عن عدم إتيانه لها .

فلما طال ذلك عليه ـ أي : على أبيه ـ ذكر ذلك للنبي ﷺ ، فقال : « إلْقَني به » .

قال ابن عمرو : فلقيتُه ﷺ فقال : « كيف تصوم ؟ » .

قلت : كل يوم .

قال : « وكيف تختم ؟ » .

قلت : كل ليلة ، وذكر نحو ما سبق .

قال الإمام النووي رضي الله عنه : وجميع هذه الروايات صحيحة ، معظمها في (الصحيحين) وقليل منها في أحدهما . اهـ .

والمقصود : أنه ﷺ كان يرغِّب في المداومة على الأعمال والتطوّعات وإن قلّت ، ويحذِّر من الإكثار المؤدي إلى الانقطاع أو نفرة النفس وكراهتها لذلك .

كما وأنه ﷺ كان يحرِّض على تأدية جميع الحقوق المترتبة على المكلَّف ، والقيام بها كاملة ، دون أن يشتغل ببعض الحقوق ، فإن ذلك يكون إفراطاً فيما اشتغل به ، وتفريطاً فيما أهمله وشُغِل عنه .

ومن إرشاداته ﷺ : أنه كان يأمر بالعمل الدائم وإن قلَّ ، ويحذِّر من العمل الكثير المنقطع :

جاء في (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان لرسول الله ﷺ حصير وكان يحجزه بالليل فيصلي عليه ، ويبسطه في النهار ويجلس عليه ، فجعل الناس يثوبون[1] إلى النبي ﷺ فيصلون بصلاته حتى كثروا .

---

(١) أي : يرجعون إليه ويجتمعون عنده .

فأقبل عليهم فقال : « يا أيها الناس خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فإن الله لا يمل حتى تملُّوا ، وإن أحبَّ الأعمال إلى الله ما دام وإن قلَّ ») .

وفي رواية : « وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملاً أثبتوه » .

وفي رواية : إن رسول الله ﷺ قال : « سدِّدوا وقاربوا واعلموا أنه لن يُدخل أحدَكم عملُه الجنة ، وإن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ » ـ كما في (الصحيحين) .

وكان ﷺ يحذِّر من المشادَّة في الدين :

روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الدين يُسر ، ولن يُشادَّ [1] الدينَ أحد إلاّ غلبه ، فسدِّدوا وقاربوا [2] ، وأبشروا ، واستعينوا بالغَدوة والرَّوحة وشيء من الدُّلجة ، والقصدَ القصدَ تبلغوا » .

والمعنى : الزموا القصد أي : التوسط في الأمر تبلغوا المقصود وهو فضل الله تعالى ورضوانه .

قال الإمام النووي : **الغَدوة** : سير أول النهار ، **والروحة** : سير آخر النهار ، **والدلجة** : سير آخر الليل ، وهذا استعارة وتمثيل ،

(١) قال في (الفتح) : والمشادة المغالبة . والمعنى : لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز أو انقطع فينقلب . اهـ .

(٢) قال الإمام النووي : السداد : الاستقامة والإصابة ، والمقاربة : القصد ـ أي : التوسط ـ الذي لا غلو فيه ـ أي : تجاوز المأمور به والزيادة فيه ـ ولا تقصير ـ أي : إخلال بشيء منه ـ. اهـ .

ومعناه : استعينوا على طاعة الله عز وجل بالأعمال في وقت نشاطكم وفراغ قلوبكم ، تستلذّون العبادة ولا تسأمون ، وتبلغون مقصودكم ، كما أن المسافر الحاذق يسير في هذه الأوقات ويستريح هو ودابته في غيرها فيصل المقصودَ بغير تعب ـ والله أعلم . اهـ .

وروى الإمام أحمد بسند حسن عن بُريدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم هدياً قاصداً ، فإن من يشاد هذا الدين يغلبه » .

قال العلامة ابن المنيِّر : في هذا الحديث عَلَم من أعلام النبوة ، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطِّع ـ أي : مفرط ومتشدد ـ في الدين ينقطع ، وليس المراد منع طلب الكمال في العبادة فإنه من الأمور المحمودة ، بل المراد منع الإفراط المؤدِّي إلى الملال ، أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل ، أو إخراج الفرض عن وقته ، كمن بات يصلي الليل كله ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل فنام عن صلاة الصبح في الجماعة ، أو إلى أن خرج وقت الصلاة المختار ، أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة .

وفي حديث محجن بن الأدرع عند أحمد : « لن تنالوا هذا الأمر بالمبالغة وخير دينكم أيسره . . » الحديث .

وقد يستفاد من هذا الاشارةُ إلى الأخذ بالرخصة الشرعية ، فإن الأخذ بالعزيمة في موضع الرخصة تنطّع ، كمن يترك التيمم عند العجز عن استعمال الماء ـ لضرر يصيبه ـ فيفضي استعماله الماء إلى حصول الضرر . اهـ كلام ابن المنير .

ومن إرشاداته ﷺ : أنه كان يكره للإنسان أن يتكلف من العبادات نوافل فوق طاقته ، خوف القطيعة ، وتحذيراً من الترك :

روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن هذا الدين متين ، فأَوْغِلوا فيه برفق »[1] .

وجاء في رواية البيهقي وغيره أن النبي ﷺ قال : « إن هذا الدين متين فأوغلْ فيه برفق ، ولا تبغِّضْ إلى نفسك عبادة الله ، فإن المُنبتَّ[2] لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى »[3] .

قال الإمام الغزالي رضي الله عنه : أراد بهذا الحديث أن يكلِّف نفسَه أعمالَ الدين بتلطُّف وتدريج ، فلا ينتقل دفعة واحدة إلى أقصاها ، إذ الطبعُ نَفورٌ لا يمكن نقله عن أخلاقه الرديئة إلا شيئاً فشيئاً ، فمن لم يُراع التدريج ، وتوغَّلَ دفعة واحدة ، ترقَّ إلى حالة تشقُّ عليه ، فتنعكس أموره ، فيصير ما كان محبوباً عنده ممقوتاً ،

---

(١) أي : ادخلوا فيه برفق .

(٢) فالمنبت : هو المنقطع ، وهو الراكب الذي حمل دابته على الإسراع فوق طاقتها ، رجاء الوصول لمقصوده ، فإذا بدابته أعيت وانقطعت عن متابعة السير ، فلا هو قطع مسافة الأرض ، ولا هو أبقى ظهر دابته ينتفع به ، فكذلك من تكلف من العبادة ما لا يطيق فإنه ينتهي أمره إلى القطيعة والترك .

(٣) وقد روى هذا الحديث بتمامه البيهقي في (سننه) ، والبزار والحاكم في (علومه) ، وأبو نعيم والقضاعي ، والعسكري والخطابي في (العزلة) ـ كذا في (المواهب وشرحها) للحافظ الزرقاني .

وما كان مكروهاً عنده ـ يصير ـ مشرباً هنياً لا ينفر عنه ، وهذا لا يُعرف إلا بالتجربة والذوق .

ونظيره في العادات : الصبي يُحمل على التعلّم ابتداءً قهراً ، فيشق عليه الصبر عن اللعب ، والصبر مع المعلم ، حتى إذا انفتحت بصيرته ، وأنِس بالعلم ، انقلب الأمر ، فصار يشق عليه الصبر عن العلم . اهـ .

ومن إرشاداته ﷺ : أنه كان يحذِّر من الدخول في العبادات على كراهية أو كسل ، بل يدخلها على جد ونشاط في العمل :

جاء في (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ دخل المسجد فإذا حبل مدود بين الساريتين .

فقال : « ما هذا الحبلُ ؟ » .

قالوا : هذا حبل لزينب ، فإذا فَتَرت ـ وفي رواية مسلم : فإذا كسلت أو فَتَرت ـ تعلَّقتْ به .

فقال النبي ﷺ : « حُلُّوه ، ليصلِّ أحدُكم نشاطه ، فإذا فتر فلْيرقُدْ » .

فمن اعتراه الفتور في حال تطوعاته أو قيامه في الليل ، بسبب تعب شديد أو نوم ثقيل ، فعليه أن يقف عن ذلك ، ريثما يذهب عنه ذلك الفتور والكسل ، ثم يتابع سيره في العبادة .

وفي (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقُد ، حتى يذهب عنه النوم ،

فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس ـ أي : نعاساً ثقيلاً كما يدل عليه قوله :ـ لا يدري لعله يذهبُ يستغفرُ فيسبُّ نفسَه » أي : يدعو على نفسه وهو لا يشعر ، لثقل نعاسه .

ومن إرشاداته ﷺ : تحذيرُه من الإكثار والنشاط للعبادات والنوافل ، ثم التقاعس عنها ، والفتور على وجه يقصر عن حد السنة التي سنَّها ﷺ في ذلك العمل .

كما أنه ﷺ ما كان يرضى أن يُمدح الرجلُ بعباداته حال هجمته الأولى وشِرَّته ونشاطه في بادىء الأمر ، حتى تمضي عليه مدة ويستقرّ أمره ، فإن انتهى إلى حد السنة مُدح ، وإن قصَّر عنها فلا يُمدح :

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لكلِّ شيء شِرَّةً ، ولكل شِرة فترة ، فإنْ صاحبُها سدَّدَ وقارَبَ فارجوه ، وإن أُشير إليه بالأصابع فلا تعدُّوه »[1] .

وقد رواه ابن حبان في (صحيحه) أيضاً من حديث أبي هريرة ولكن بلفظ : « لكل عملٍ شرَّة . . » الحديث .

كما في (الترغيب) للمنذري ، قال : والشِرَّة : بكسر الشين المعجمة وتشديد الراء ، وبعدها تاء تأنيث ، هي : النشاط والهمَّة .

وأخرجه الحافظ المنذري أيضاً من رواية ابن أبي عاصم وابن حبان في (صحيحه) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل عملٍ شرَّةٌ ، ولكل شرَّة فترة ، فمن كانت فترته

(١) قال في (التيسير) : رواه الترمذي وصححه .

إلى سنَّتي فقد اهتدى ، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك » .

وقد أورد الحافظ ابن حجر في (المطالب العالية) عن ابن فاختة أنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إن ابن أخي قد اجتهد في العبادة ، وأجهد نفسه .

فقال رسول الله ﷺ : « تلك شرَّة الإسلام ، لكل شيء شرَّة ، ولكل شرَّة فترة ، فارقُبه عند فترته ، فإنْ قارب فلعلَّه ، وإن هلك فتبًّا له »[2] .

وفي هذه الأحاديث النبوية تنبيهات وإرشادات للمسلمين ، إلى الاستمرار على التقوى والعبادات ، والتزام الطاعات والقربات ، على وجه دائم ، دون أن يُقبل أحدهم على العبادة بهمة ونشاط ، ويحمِّل نفسه من النوافل فوق طاقته ، ثم إنه بعد ذلك يفتر ويملُّ ، ويترك أو يقصِّر عن حدِّ السنة .

حول تهجده ﷺ

قال الله تعالى : ﴿ ومن الليل فتهجَّدْ به نافلةً لك ، عسى أن يبعثك ربُّك مقاماً محموداً ﴾ .

قال علماء اللغة : الهجود هو النوم ، والتهجُّد ترك النوم بسبب الاشتغال بالصلاة .

(٢) انظر الجزء الثالث ص ١٧٦ .

والمعنى : ومن الليل فتهجد بالصلاة المشتملة على القرآن الكريم ، وعلى هذا تكون صيغة التهجد من صيغ السلب ، كالتأثُّم بمعنى ترك الاثم ، والتحرُّج وهو البعد عن الحرج ، وهكذا . . .

ومعنى : ﴿ نافلة لك ﴾ أي : عبادة زائدة لك على بقية فرائض الصلوات :

إما : على طريق الفريضة ، بناءً على أنَّ التهجد كان فرضاً عليه ﷺ دون أمته ـ قال الحافظ الزرقاني : وهو قول الأكثر وقول الإمام مالك .

وإما : على طريق التطوع ، ويكون تخصيصه ﷺ بكون التهجد نافلةً له ، باعتبار أن تطوعاته ﷺ هي خالصةٌ له في رفعة درجاته ، وكثرة حسناته ، وعلو مقامه ، لكونه لا ذنب عليه ؛ فالتهجد في حقه هو نافلة له خالصة بخلاف الأمة فإن لهم ذنوباً ، وهي تحتاج إلى كفارات ، ولهم تقصيرات ، وهي تحتاج إلى مكملات ، فتطوعاتهم الزائدة على فرائضهم يحتاجونها لتكفير ذنوبهم ، أو لتكميل ما انتقصوا من فرائضهم ، كما جاء في الحديث عنه ﷺ أنه قال : « . . وإن انتقص ـ أي : العبد ـ من فريضته شيئاً قال الله تعالى للملائكة: انظروا هل لعبدي من تطوع ؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة . . » الحديث كما في (السنن) .

فصاحب مقام النفل الأكمل والفضل الأول ، هو سيدنا محمد ﷺ الذي أعطاه الله تعالى أعلى رتبة في النافلة ، ورتب على ذلك المقام المحمود الذي تحمده عليه الخلائق كلهم : الأولون والآخرون ، وهو مقام الشفاعة العامة العظمى :

كما جاء في (صحيح) البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال : رسول الله ﷺ « إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً ، كلُّ أمة تتبع نبيَّها ـ يقولون : يا فلان اشفع لنا ، حتى تنتهي الشفاعة إليَّ ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود » .

وروى مسلم عن سعد بن هشام أنه قال : (قلت لعائشة رضي الله عنها : يا أمَّ المؤمنين أنبئيني عن خُلُق رسول الله ﷺ ؟

قالت : ألستَ تقرأ القرآن ؟

قلت : بلى .

قالت : فإن خلُق نبيّ الله ﷺ كان القرآن[1] .

قال : فهمَمْت أن أقومَ ولا أسأل أحداً عن شيء حتى أموت ـ ثم بدا لي فقلت : أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ ؟

فقالت : ألسْتَ تقرأ ﴿ يا أيّها المزّمل ﴾ ؟

قلت : بلى ؟

قالت : فإن الله عز وجل افترض قيام الليل من أول هذه السورة ، فقام نبيُّ الله ﷺ وأصحابُه حولاً ، وأمسك الله خاتمتها ـ أي : آخر سورة المزمل ـ اثني عشر شهراً في السماء ، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة بالتخفيف ـ أي : في قوله تعالى : ﴿ فاقرؤوا ما تيسَّر منه ﴾ ـ فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة) الحديث .

(١) أي : كان خلقه ﷺ القرآن في العمل بأحكامه ، والتأدب بآدابه ، والاعتبار بأمثاله وقصصه ، وحسن تلاوته ، والتحقق بجميع مطالبه .

وقد نقل الحافظ الزرقاني الإجماع على نسخ وجوب قيام الليل في حق الأمة .

قال : وشذَّ بعض التابعين فأوجبه ولو قدْرَ حلب شاة .

واختلف في نسخ وجوبه في حقه ﷺ على قولين للعلماء في ذلك .

وقت قيامه ﷺ متهجداً

روى الشيخان عن مسروق قال : سألتُ عائشة رضي الله عنها : أيُّ العمل كان أحبَّ إلى النبي ﷺ ؟

قالت : الدائم .

قلت : متى كان يقوم ؟ ـ وعند مسلم : أيُّ : حينٍ كان يصلي ؟ ـ

قالت : إذا سمع الصارخ .

قال الحافظ في (الفتح) : الصارخ : الديك ، وقد جاء في (مسند) الطيالسي في هذا الحديث : الصارخ : الديك . . والصرخة الصيحة الشديدة ، وجرت العادة بأن الديك يصيح عند نصف الليل غالباً .

قاله محمد بن نصر ؛ قال ابن التين : وهو موافق لقول ابن عباس : نصف الليل ، أو قبله بقليل ، أو بعده بقليل . اهـ .

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه بإسناد جيد ، عن زيد بن خالد الجهني مرفوعاً : « لا تسبُّوا الديك ، فإنه يوقظ للصلاة » .

وفي رواية : « فإنه يدعو إلى الصلاة » كذا في (شرح المواهب) .

وهذا القيام على هذا الوجه ، حكم له النبي ﷺ أنّه أحب القيام ، كما جاء في (الصحيحين) عن ابن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال له : « أحبُّ الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، ويصوم يوماً ويفطر يوماً » ـ وقد تقدم .

وذلك ليستريح من نَصَب القيام ، فإنه بعد القيام يريح البدن ، ويذهب ضرر السهر ، وذبول الجسم ، بخلاف السهر إلى الصباح .

وفيه من الحكمة أيضاً : استقبالُ صلاة الصبح وأذكار النهار بنشاط وإقبال .

وهذا بالنسبة للصلاة أيضاً أقرب إلى عدم الرياء ، لأن من نام السدس الأخير أصبح ظاهر اللون ، سليم الصدر ، فهذا أقرب إلى إخفاء عمله في الليل ، كما ذكر ذلك الحافظ في (الفتح) .

وبذلك يكون المتهجد قد نال فضائل تجليات الرب عزَّ وجل في الثلث الثاني والثلث الأخير ، كما ورد في (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا ، حين يبقى ثلث الليل الآخر ، يقول : مَن يدعوني فأستجيبَ له ؟ من يسألني فأُعطيَه ؟ ، من يستغفرني فأغفرَ له حتى ينفجر الفجر » كما في رواية مسلم .

قال في (الفتح) : زاد سعيد عن أبي هريرة : « هل من تائب فأتوبَ عليه ؟ » .

وزاد أبو جعفر عنه : « من ذا الذي يسترزقني فأرزقَه ؟ من ذا الذي يستكشف الضرَّ فأكشف عنه ؟ » .

وزاد عطاء عنه : « ألا سقيمٌ يستشفي فيشفى ؟ »

وزاد سعيد بن مرجانة عنه : « من يُقرِض غيرَ عديم ولا ظلوم ؟ » .

وقال في (الفتح) أيضاً : وفي هذا الحديث من الفوائد : تفضيل صلاة آخر الليل على أوله ، وتفضيل تأخير الوتر ، لكن في حق من طمع أن ينتبه ، وأن آخر الليل أفضل للدعاء والاستغفار ، يشهد له قوله تعالى : ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ ، وأن الدعاء في ذلك الوقت مجاب . اهـ .

فكان أغلب قيامه ﷺ لصلاة الليل في أول النصف الثاني من الليل ، كما روى الشيخان وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ كان ينام أول الليل ، ويحيي آخره .

والمراد بأول الليل ههنا : الأولية النسبية ، وهي ما بعد صلاة العشاء ، وما يتصل بها من أوراد وقراءات مطلوبة بعد الصلاة وقبل النوم[1] ـ فإنه قد صح عن النبي ﷺ أنه كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها .

وكانت له ﷺ أوراد وقراءات قبل أن ينام :

(١) انظر شرح الزرقاني على المواهب ٥ : ٦٧

كما روى الإمام أحمد والترمذي وصححه عن عائشة رضي الله عنها : (أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ بني إسرائيل ـ أي : سورة الإسراء ـ والزمر) .

وأخرج الترمذي والنسائي عن جابر رضي الله عنه : (أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ : آلم تنزيل السجدة ، وتبارك الذي بيده الملك) .

وعن العِرْباض بن سارية رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ المسبِّحات قبل أن يرقُد ، وقال : « فيهن آيةٌ أفضل من ألف آية » رواه أحمد وأصحاب السنن .

ورواه ابن الضُّرَيس عن يحيى بن أبي كثير مرسلاً ، وزاد : قال يحيى : فنراها الآية التي في آخر الحشر ـ أي : الآيات الثلاثة في آخر سورة الحشر .

وقال الحافظ ابن كثير : الآية هي قوله تعالى : ﴿ هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم ﴾ .

والمسبِّحات ستٌ : (الحديد ، والحشر ، والصف ، والجمعة ، والتغابن ، وسبح اسم ربك الأعلى) .

أذكاره ﷺ

حين يستيقظ لصلاة الليل

كان رسول الله ﷺ إذا استيقظ من منامه لصلاة الليل ، يمسح النوم

عن وجهه بيده ، ويرفع رأسه إلى السماء ، ثم يكبر عشراً ، ويحمد عشراً ، ويقول : « سبحان الله وبحمده » عشراً ، ويقول : « سبحان الملك القُدُّوس » عشراً .

وفي رواية ابن مَرْدُوْيه : ثلاثاً ، ويستغفر الله عشراً ، ويُهلِّل عشراً ، ويقرأ خواتيم سورة آل عمران ، ويقول : « اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا ، وضيق يوم القيامة » عشراً ، ويدعو بقوله : « لا إلٰه إلا أنت ، سبحانك اللهم وبحمدك ، أستغفرك لذنبي ، وأسألك رحمتك ، اللهم زدني علما ، ولا تُزِغْ قلبي بعد إذ هديتني ، وهَبْ لي من لدنك رحمةً ، إنك أنت الوهاب » .

ونحن نذكر الأحاديث الورادة في ذلك :

روى الشيخان وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه بات عند ميمونة زوج النبي ﷺ وهي خالته ، لينظر كيف صلاة رسول الله ﷺ بالليل ، قال ابن عباس : فاضطجعت في عرض الوسادة ، واضطجع رسول الله ﷺ وأهله في طولها ، فنام رسول الله ﷺ حتى إذا انتصف الليل ، أو قبله بقليل ، أو بعده بقليل[1] استيقظ رسول الله ﷺ من منامه ، فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده ، ثم قرأ العشر آياتِ الخواتيمَ من سورة آل عمران .

(١) قال الحافظ الزرقاني : فتردد ابن عباس في ذلك لخفائه عليه ، لأنه كان ابن عشر سنين ، فتحرى القول في الرواية وترك المسامحة فيها ، وإلا فقيامه ﷺ إنما كان في النصف الآخر . اهـ .

وفي رواية ابن مَرْدُوْيَهْ : ثم استوى على فراشه قاعداً ، ورفع رأسه إلى السماء ، فقال : « سبحان الملك القدوس » ثلاث مرات ، ثم قرأ الآيات من آخر سورة آل عمران ، ثم قام إلى شنٍّ معلقةٍ ، فتوضا منها فأحسن وضوءه ، ثم قام يصلي .

وعند مسلم : فتسوَّك وتوضأ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : فقمت فصنعت مثل ما صنع ، ثم ذهبت فقمت إلى جنبه ، فوضع رسول الله ﷺ يده اليمنى على رأسي ، وأخذ بأذني اليمنى فَفَتَلها ، فصلى ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم أوتر ، ثم اضطجع ، حتى جاء المؤذن ، فقام فصلى ركعتين خفيفتين ، ثم خرج فصلى الصبح .

وروى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا هبَّ من الليل واستيقظ كبَّر عشراً ، وحمد الله عشراً ـ أي : من المرات ـ وقال : « سبحان الله وبحمده » عشراً ، وقال : « سبحان الملك القدوس » عشراً ، واستغفر عشراً[1] ، وهلَّل ـ أي : قال لا إله إلا الله ـ عشراً ، ثم قال : « اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا ، وضيق يوم القيامة » عشراً ، ثم يفتتح الصلاة[2] أي :صلاته في الليل .

(١) قال في (شرح المواهب) : أي : قال : « اللهم اغفر لي واهدني وارزقني » كما في رواية . اهـ .

(٢) انظر (سنن) أبي داود ، و (المواهب) للقسطلاني ، و (نزل الأبرار) .

إطالته ﷺ
في صلاة الليل

كان رسول الله ﷺ يُطيل القراءة في صلاة الليل ، ويُطيل الركوع فيها والسجود ، ويكثر من الدعاء في سجوده .

روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قام رسول الله ﷺ حتى تورَّمت قدماه .

وفي رواية عنها : أن نبي الله ﷺ كان يقوم الليل حتى تفطَّرت قدماه - أي : تشققت من كثرة القيام -.

وفي رواية النسائي عن أبي هريرة : حتى تَزْلَع قدماه ، بزاي وعين مهملة - أي : تشقَّق - .

قال الحافظ في (الفتح) : ولا اختلاف بين هذه الروايات : إذ حصل الانتفاخ والورم ، وحصل الزلع والتشقق .

وجاء في رواية (الصحيحين) قالت عائشة : فقلت له : لِمَ تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك ، وما تأخر ؟

قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » ﷺ .

والمعنى : أأترك تهجدي لما غُفر لي ، فلا أكون عبداً شكوراً ؟ بل : إن المغفرة هي سبب لكون التهجد شكراً ، فكيف أتركه ؟

وقد استدل بعض العلماء بهذا الحديث على جواز أخذ الإنسان نفسَه بالجهد في العبادة ، ومشقة البدن فيها .

قال الحافظ في (الفتح) : وحُمل ذلك ما لم يُفضِ إلى الملال ، لأن حال النبي كانت أكملَ الأحوال ، فكان لا يمل في عبادة ربه ، وإن أضرَّ ذلك ببدنه الشريف ﷺ - بل صح أنه ﷺ قال : « وجُعلتْ قرة عيني في الصلاة » .

فأما غيرُه ﷺ فإذا خشي الملل ينبغي له أن لا يُكدَّ نفسه ، وعليه يُحمَل قوله ﷺ : « خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فإن الله لا يملُّ حتى تملُّوا » . اهـ .

قال الحافظ القسطلاني : لكن ربما دسَّت النفسُ أو الشيطان على المجتهد في العبادة بمثل ما ذُكر ، خصوصاً إذا كبِر ، فتقول له : قد ضعُفْتَ وكبِرت ، فأبْقِ على نفسك ، لئلا ينقطع عملك بالكلية - قال : وهذا وإنْ كان ظاهره جميلاً ، لكنْ فيه دسائس ، فإنه إنْ أطاعه فقد يكون استدراجاً ، يؤول به إلى ترك العمل شيئاً فشيئاً ، إلى أن ينقطع العمل بالكلية ، وما ترك سيدُ المرسلين المغفورُ له شيئاً من عمله بعد كبره . اهـ .

وروى مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال : صليتُ مع النبي ﷺ ذاتَ ليلة ، فافتتح البقرة ، فقلت - أي : ظننت - يركع عند المائة ، ثم مضى ، فقلت : يصلّي بها في ركعة ، فمضى ، فقلت : يركع بها ، ثم افتتح النساء ، فقرأها ، ثم افتتح آل عمران ، فقرأها ، يقرأ مترسِّلاً ،

إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبح ، وإذا مر بسؤال سأل ، وإذا مرَّ بتعوذ تعوذ .

وفي رواية للنسائي : لا يمرّ بآية تخويفٍ أو تعظيم لله عز وجل إلا ذكره ، ثم ركع ، فجعل يقول : « سبحان ربي العظيم » فكان ركوعه نحواً من قيامه ـ أي : قريباً في الطول من قيامه ـ ثم قال : « سمع الله لمن حمده » ثم قام طويلاً قريباً مما ركع ، ثم سجد فقال : « سبحان ربي الأعلى » فكان سجوده قريباً من قيامه .

استفتاحه ﷺ صلاة الليل

كان رسول الله ﷺ يُطيل في استفتاحه الصلاةَ في الليل ، بأنواع من صيغ الاستفتاح .

فمن ذلك : ما رواه أبو داود عن حذيفة رضي الله عنه أنه رأى رسول الله ﷺ يصلي من الليل ، فكان يقول : « الله أكبر ـ ثلاثاً ـ ذو الملكوت والجبروت ، والكبرياء والعظمة » ثم استفتح ، فقرأ البقرة ثم ركع ، فكان ركوعه نحواً من قيامه . . الحديث .

وروى الإمام مسلم وغيره عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال : سألتُ عائشةَ أمَّ المؤمنين رضي الله عنها : بأي شيء كان نبي الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل ؟

قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صلاته : « اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطرَ السموات والأرض ، عالمَ الغيب

والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » .

وروى أبو داود عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل كبَّر ، ثم يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك » ثم يقول : « لا إله إلا الله » ثلاثاً، ثم يقول : « الله أكبر كبيراً ـ ثلاثاً ـ أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه » ثم يقرأ) .

وروى الشيخان وغيرهما ـ واللفظ لمسلم ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل ـ وفي رواية لأبي داود : كان ﷺ في التهجد بعدما يقول « الله أكبر » ـ :

« اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهنَّ ، أنت الحق،ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والساعة حق .

اللهم لك أسلمتُ ، وبك آمنتُ ، وعليك توكَّلتُ ، وإليك أنبتُ ، وبك خاصمتُ ، وإليك حاكمتُ ، فاغفر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ ، وما أسررْتُ وما أعلنتُ ، أنت إلَهي لا إلَه إلا أنت » .

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى : ومعنى سؤاله ﷺ المغفرةَ ـ مع أنه مغفور له ـ أنه يسأل ذلك ـ أي :يطلب المغفرة ـ تواضعاً وخضوعاً ،

وإشفاقاً وإجلالاً ، وليُقتدى به في أصل الدعاء والخضوع ، وحسن التضرُّع في هذا الدعاء المعيَّن .

وفي هذا الحديث وغيره مواظبتُه ﷺ في الليل على الذكر والدعاء ، والاعتراف لله تعالى بحقوقه ، والإقرار بصدقه ، ووعده ووعيده ، والبعث ، والجنة والنار ، وغير ذلك . اهـ .

ومن أدعيته ﷺ في سجود الليل :

ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول في سجوده : « اللهم اغفر لي ذنبي كلَّه ، دِقَّه وجِلَّه ، أوَّلَه وآخره ، سرَّه وعلانيته » .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : فقدتُ رسول الله ﷺ ليلةً من الفراش ، فالتمستُه في البيت وجعلت أطلبه ، فوقعتْ يدي على بطن قدميه ، وهو في السجود ، وهما منصوبتان ، وهو يقول :

« سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت[1] اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك » رواه مسلم وأصحاب السنن .

ومن ذلك : دعاؤه ﷺ بزيادة النور .

كما في رواية مسلم ، عن ابن عباس لَمَّا بات عند خالته ميمونةَ زوجِ النبي ﷺ ليرى كيف صلاة رسول الله ﷺ في الليل ــ قال : فتكاملت

(١) جاء هذا في رواية أبي يعلى .

صلاة رسول الله ﷺ ثلاثَ عشرةَ ركعة ، ثم نام حتى نفخ ، وكنا نعرفه إذا نام بنفخه ، ثم خرج إلى الصلاة ، فصلى فجعل يقول في صلاته ـ أو في سجوده ـ :

« اللهم :اجعلْ في قلبي نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وعن يميني نوراً ، وعن شمالي نوراً ، وأمامي نوراً ، وخلفي نوراً ، وفوقي نوراً ، وتحتي نوراً ، واجعلْ لي نوراً ـ أو قال : واجعلني نوراً » .

وفي رواية لمسلم أيضاً : ودعا رسول الله ﷺ ليلتئذٍ تسعَ عشرةَ كلمةً ، قال سلمة : حدثنيها كريب ـ أي : عن ابن عباس ـ فحفظتُ منها اثنتي عشرة ، ونسيتُ ما بقي ، فذكرها ، وقال في آخره : « واجعلْ في نفسي نوراً ، وأعْظِم لي نوراً » .

وفي رواية لمسلم أيضاً عن ابن عباس : فأذَّن المؤذِّن ، فخرج ﷺ إلى الصلاة وهو يقول : « اللهم اجعل في قلبي نوراً . . » إلى آخر الدعاء كما تقدم .

قال الحافظ الزرقاني : ولا خُلْفَ ـ أي : ولا اختلاف بين رواية دعائه بذلك في صلاته أو سجوده ، وفي حال خروجه إلى الصلاة ـ فقال ذلك في الصلاة الليلية وفي حال خروجه إلى صلاة الصبح . اهـ .

يعني أنه ﷺ فعل جميع ذلك .

وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ ليلةً حين فرغ من صلاته يقول :

« اللهم إني أسألك رحمةً من عندكَ تهدي بها قلبي ، وتجمع بها

أمري ، وتَلمُّ بها شَعْثي ، وتردُّ بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ، وتزكّي بها عملي ، وتُلهمني بها رشدي ، وتردُّ بها أُلْفتي ، وتعصِمني بها من كلِّ سوءٍ .

اللهم أعطني إيماناً ويقيناً ليس بعده كفر ، ورحمةً أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة .

اللهم إني أسألك الفوز في القضاء ، ونُزُلَ الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء . اللهمَّ إني أُنزل بك حاجتي وإنْ قصر رأيي وضَعُفَ عملي ، وافتقرتُ إلى رحمتك ، فأسألك يا قاضي الأمور ، ويا شافي الصدور ، كما تُجير بين البحور ، أن تجيرني من عذاب السعير ، ومن دعوة الثُّبور ، ومن فتنة القبور . اللهم ما قصُر عنه رأيي ، ولم تبلغْه مسألتي ، ولم تبلغه نيتي من خير وعدتَه أحداً من خلقك ، أو خيرٍ أنتَ معطيه أحداً من عبادك ، فإني راغبٌ إليك فيه ، وأسألك برحمتك يا ربَّ العالمين . اللهم يا ذا الحبلِ الشديد ، والأمر الرشيد ، أسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنةَ يوم الخلود ، مع المقرّبين الشهود ، الركَّعِ السجود ، الموفين بالعهود إنك رحيم ودود ، وإنك تفعل ما تريد . اللهم اجعلنا هادين مهتدين ، غير ضالّين ولا مُضلِّين ، سِلْماً لأوليائك ، حَرْباً لأعدائك ، نحبُّ بحبِّك مَنْ أحبَّك ، ونعادي بعداوتك مَنْ خالَفك . اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة ، وهذا الجُهد وعليك التُّكلان . اللهم اجعل لي نوراً في قلبي ، ونوراً في قبري ، ونوراً من بين يديَّ ، ونوراً من خلفي ، ونوراً عن يميني ، ونوراً عن شمالي ، ونوراً من فوقي ، ونوراً من تحتي ، ونوراً في سمعي ، ونوراً في بصري ، ونوراً في شعري ، ونوراً في بَشَري ، ونوراً في لحمي ، ونوراً

في دمي ، ونوراً في مخِّي ، ونوراً في عظامي ، اللهم أعظمْ لي نوراً ، وأعطني نوراً ، واجعل لي نوراً »[1] .

وفي رواية عند أبي عاصم قال في آخره : « وهب لي نوراً على نور » .

قال الحافظ الزرقاني : سأل النبي ﷺ النورَ في أعضائه وجهاته ، ليزداد في أفعاله وتصرُّفاته وتقلُّباته نوراً على نور ، فهو دعاء بدوام ذلك ، فإنه كان حاصلاً له ﷺ لا محالة ، أو هو تعليم لأمته .

قال : وقال الشيخ أكمل الدين :

أما النور الذي عن يمينه فهو المؤيِّد له ، والمعين على ما يطلبه من النور الذي بين يديه ، **والنور الذي عن يساره** فنور الوقاية .

والنور الذي خلفه هو النور الذي يسعى بين يدي من يقتدي به ويتبعه ، فهو لهم من بين أيديهم ، وهو له ﷺ من خلفه ، فيتبعونه على بصيرةٍ ، كما أنه المتَّبَع على بصيرة ، قال الله تعالى : ﴿ قل : هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتبعني ﴾ .

وأما النور الذي فوقه فهو تنزُّلُ نورٍ إلهيّ قدسي بعلمٍ غريب لم يتقدَّمه خبر، ولا يعطيه نظر . اهـ .

---

(١) قال الحافظ العراقي : رواه الترمذي وقال غريب ، قال : ورواه الطبراني أيضاً ، وقال العلامة الزبيدي في (شرح الإحياء) : رواه محمد بن نصر في (كتاب الصلاة) ، والبيهقي في (كتاب الدعوات) . اهـ .

ورواية الترمذي عن ابن عباس قد فصَّلتْ قول ابن عباس في رواية مسلم : ودعا رسول الله ﷺ ليلتئذ تسع عشرة كلمةً ـ كما تقدم .

هيئات صلاته ﷺ النافلة في الليل

كانت هيئة صلاته ﷺ النافلة في الليل على أنواع ثلاثة ـ كما في (المواهب للقسطلاني وشرحها) .

أحدها : أنه ﷺ كان أكثر صلاته قائماً ، دلَّ على ذلك الحديث الذي رواه أحمد ومسلم والترمذي وصححه ، عن حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : (ما رأيت رسول الله ﷺ صلَّى في سُبحته[1] قاعداً حتى كان قبل وفاته بعام ، فكان يصلي في سبحته قاعداً ، ويقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطولَ مِن أطولَ منها) .

أي : حتى تكون السورة القصيرة بسبب ترتيلها أطول من سورةٍ أطول منها خلت عن الترتيل .

الثاني : أنه ﷺ كان يصلي قاعداً ، ويركع قاعداً ، كما جاء في (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله ﷺ

(١) قال في (شرح المواهب) : السبحة بضم السين فسكون الباء ، هي النافلة ، وسميت بذلك لاشتمالها على التسبيح ، من تسمية الكل باسم البعض ، وخصت به دون الفريضة .
قال ابن الأثير : لأن التسبيح في الفرائض نفل، وفي النوافل نوافل مثلها .

يصلي ليلاً طويلاً قائماً ؛ وليلاً طويلاً قاعداً ، وكان إذا قرأ قائماً ، ركع قائماً ، وإذا قرأ وهو قاعد ركع وسجد وهو قاعد) .

الثالث : أنه ﷺ كان يقرأ قاعداً ، فإذا بقي يسير من قراءته ، قام فركع قائماً ، كما في (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها : (أن رسول الله ﷺ كان يصلي ـ أي : النافلة ـ جالساً[1] ويقرأ وهو جالس ، فإذا بقي من قراءته قدر ما يكون ثلاثين آية ، أو أربعين آية ، قام وقرأها وهو قائم . .) الحديث .

قال الحافظ الزرقاني : فجمع رسول الله ﷺ بين ما يطيقه من القيام والجلوس ، إبقاءً على نفسه ، ليستديم الصلاة[2] .

وكان ﷺ يُرشد من نام عن حزبه من الليل أن يأتي به ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر ، فيكتب له كأنما أتى به في الليل :

روى مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ نام عن حزبه ـ وفي رواية ابن ماجه : عن جزئه[3] ـ من الليل ، أو عن شيءٍ منه ، فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر ، كتب له كأنما قرأه من الليل » .

قال الإمام النووي : في هذا الخبر دلالة على المحافظة على الأوراد . اهـ .

(١) وذلك قبل وفاته بعام ، كما تقدم في حديث حفصة رضي الله عنها .
(٢) انظر ذلك ٧ : ٤١
(٣) الحزب والجزء والورد كلها تؤول إلى معنى واحد ، وهو ما يجعله المسلم على نفسه ويعينه : من صلاة وقراءة قرآن ، وذكر الله تعالى ، وغير ذلك .

يعني أنه ينبغي للمسلم أن يواظب على أوراد عبادته ونوافله ، في الليل والنهار ، وإن نام عن شيء من ذلك في الليل فليأتِ به حتى الظهر من النهار ، ليستمرَّ الخير والنور والأجر بلا انقطاع .

قال العلامة القرطبي : وهذا الفضيلة إنما تحصل لمن غلبه نوم أو عذرٌ منعه من القيام به ، مع أن نيَّته القيام به ، وظاهره أن له أجره مكملاً مضاعفاً ، وذلك لحسن نيته ، وصدق تلهُّفه وتأسُّفه ، وهو قول بعض شيوخنا .

وقال بعضهم : يحتمل أن يكون غير مضاعف ، إذ التي يصليها ليلاً أكمل وأفضل - والظاهر الأول . اهـ .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله ﷺ إذا فاتته الصلاة من الليل من وجعٍ أو غيره ، صلَّى من النهار ثنتيْ عشرة ركعةً) .

صلاته ﷺ في الضحى

روى الإمام مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله ﷺ يصلي الضحى أربعاً ويزيد ما شاء الله) .

وروى الترمذي عن أنس رضي الله عنه أن : (النبي ﷺ كان يصلي الضحى ستَّ ركعات) .

وروى مسلم عن أم هانىء بنت أبي طالب رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ دخل بيتها يوم فتح مكة فصلى ثماني ركعاتٍ .

قالت : ما رأيته صلى صلاةً قطُّ أخفَّ منها ، غير أنه كان يتمُّ الركوع والسجود .

وروى مسلم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (أوصاني خليلي ﷺ بثلاثٍ : بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وركعتي الضحى ، وأن أوتر قبل أن أرقد) - أي : قبل أن أنام .

وروى الحاكم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله ﷺ يصلي الضحى اثنتي عشرة ركعة)[1] .

قال العلماء : ولا تنافي بين هذه الروايات ، فقد صلى رسول الله ﷺ الضحى تارةً ركعتين وهو أقلها ، وتارةً أربعاً وهو الأغلب ، وتارةً ستّاً ، وتارة ثمانية ، وتارة اثنتي عشرة ، وذلك أفضلها وأكثرها[2] .

وقد أخبر النبي ﷺ عن عظيم أجر المسلم الذي يصلي صلاة الصبح في جماعة ، ثم يقعد في مصلاَّه ، يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس وترتفع ، فيقوم يصلي صلاة الضحى :

فعن سهل بن معاذ عن أبيه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من قعد في مصلاَّه حين ينصرف من صلاة الصبح ، حتى يسبِّح - أي : يصلي - ركعتي الضحى لا يقول إلا خيراً : غُفر له خطاياه وإن كانت أكثر من زَبَد البحر » .

قال الحافظ المنذري : رواه أحمد وأبو داود وأبو يعلى ، وأظنه قال :

---

(١) انظر (المواهب) للقسطلاني وشرحه للزرقاني .

(٢) انظر (حاشية العلامة الباجوري على الشمائل) .

« من صلى صلاة الفجر ، ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس : وجبت له الجنة »[1] .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « من صلى صلاة الغداة في جماعة ، ثم جلس يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ، ثم قام فصلى ركعتين : انقلب بأجرِ حجَّةٍ وعُمْرةٍ » .

قال المنذري : رواه الطبراني وإسناده جيِّد .

كان ﷺ إذا صلى الصبح ذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : (كان النبي ﷺ إذا صلى الفجر تربَّع ـ أي : جلس متربعاً ـ في مجلسه حتى تطلع الشمس حَسَناً) .

أي : طلوعاً بارزاً ينتشر ضياؤها .

قال في (الترغيب) : رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ، والطبراني ولفظه : (كان ﷺ إذا صلى الصبح جلس يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس) .

قال ورواه ابن خزيمة في صحيحه ولفظه : قال : عن سماكٍ أنه سأل جابر بن سمرة : كيف كان رسول الله ﷺ يصنع إذا صلى الصبح ؟

(١) ثم قال المنذري : رواه الثلاثة من طريق زبان بن فائد عن سهل ، وقد حسنت ـ أي : طريقه ـ وصححها بعضهم . اهـ .

فقال : (كان يقعد في مصلاَّه إذا صلى الصبح حتى تطلع الشمس) .

نوافله ﷺ بين المغرب والعشاء

عن محمد بن عمَّار بن ياسر رضي الله عنه قال : رأيت عمار بن ياسر يصلي بعد المغرب ستَّ ركعاتٍ ، وقال : رأيت حبيبي رسول الله ﷺ يصلي بعد المغرب ستَّ ركعاتٍ ، وقال :

« مَنْ صلى بعد المغرب ستَّ ركعات غُفِرتْ له ذنوبه ، وإن كانتْ مثلَ زَبَد البحر » .

قال الحافظ المنذري : حديث غريب ، رواه الطبراني في الثلاثة ، وقال : تفرَّد به صالح بن قطن البخاري ـ قال ولا يحضرني الآن فيه جرح ولا تعديل . اهـ .

ومن شواهد فضل هذه الركعات بعد المغرب :

ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى بعد المغرب ستَّ ركعاتٍ لم يتكلم فيما بينهنَّ بسوءٍ عُدِلْن بعبادة ثنتي عشْرة سنة » .

قال المنذري : رواه ابن ماجه وابن خزيمة في (صحيحه) ، والترمذي : كلهم من حديث عمر بن أبي خَثْعم ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة ، عنه ، وقال الترمذي : حديث غريب .

وله شاهد آخر من حديث عائشة رضي الله عنها ، كما هو عند ابن ماجه ، في فضل من صلى بعد المغرب عشرين ركعةً .

بل كان ﷺ في بعض الأحيان يتابع صلاة النفل بعد المغرب حتى العشاء :

كما جاء عن حذيفة رضي الله عنه قال : أتيتُ النبي ﷺ فصلّيتُ معه المغرب فصلى إلى العشاء .

قال الحافظ المنذري : رواه النسائي بإسناد جيّد . اهـ .

وأمّا ما يتعلق بالسنن الواردة قبل الفروض الخمسة ، والجمعة ، وبعدها : فالكلام عليها مفصّل في كتابنا : (الصلاة في الإسلام) .

وأما ما يتعلق بالصيام والصدقات والحج : فهو مفصل في كتب السنن ، ولولا مخافة ملل القارىء لأتينا بجملة واسعة من ذلك .

وقد أتينا بجملٍ واسعةٍ في كتاب : (تلاوة القرآن المجيد) حول قراءة النبي ﷺ للقرآن وحب استماعه من غيره ، إلى ما هنالك ، فارجع إليه .

في دعائه ﷺ

كان رسول الله ﷺ يُكثر من الدعاء ، ويرغّب فيه ، ويحثُّ عليه ، في مناسبات متعددة ، وذلك لأن الدعاء نوع من العبادة :

كما جاء في الحديث الذي رواه أصحاب السنن وصححه الترمذي عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال :

قال رسول الله ﷺ : « الدعاء هو العبادة » ثم قرأ ﴿ وقال ربكم : ادعوني استجِبْ لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتي ـ أي : التي من جملتها الدعاء ـ سيدخلون جهنم داخرين ﴾ أي : ذليلين صاغرين .

وروى الترمذي عن أنس مرفوعاً : « الدعاء مخُّ العبادة » أي : خالصها ، وذلك باعتبار أن الداعي يدعو الله تعالى عند انقطاع أمله عما سواه ، وفي ذلك حقيقة التوحيد والإخلاص .

كما أن في الدعاء إظهارَ الافتقار ، لسلطان العزيز الجبار .

وفيه التبرُّؤ من الحول والقوة ، وهو سِمة العبودية ، واستشعارُ التذلل لعزة الربوبية .

كما أن الدعاء يتضمن الثناءَ على الله تعالى ، والاعترافَ له بأنواع الفضل والكرم .

كما أن الدعاء مفتاح الرحمة الإلٰهية :

فقد روى الترمذي عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : « من فُتح له باب الدعاء ، فتحت له أبواب الرحمة ، وما سُئل الله تعالى شيئاً أحبَّ إليه من أن يُسأل العافية . . » الحديث .

كما أن الدعاء فيه استمداد القوة ، وهو سلاح قاصم :

فقد روى أبو يعلى والديلمي ، والحاكم وصححه ، عن علي كرم الله وجهه مرفوعاً : « ألا أدلُّكم على ما يُنجيكم من عدوكم ، ويُدرّ لكم أرزاقكم ؟ تدعون الله في ليلكم ونهاركم ، فإن الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السموات والأرض » .

كما أن الدعاء فيه إرضاءُ الله تعالى :

روى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه ، وصححه ابن حبان والحاكم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « مَنْ لم يسأل الله يغضب عليه » .

قال العلامة الطيبي : معناه أن مَن لم يَسأل الله يُبْغضه ، والمبغوض مغضوب عليه ، والله يحبُ أن يسأل . اهـ .

وقد بيَّن النبي ﷺ وجوه إجابة الدعاء :

ففي (مسند) أحمد وغيره ، عن أبي سعيد رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « ما من مسلم يدعو بدعوةٍ ليس فيها إثمٌ ولا قطيعةُ رحمٍ ، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يُعجِّل له دعوته ، وإما أن يَدَّخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها » .

آدابه ﷺ في الدعاء

كان ﷺ يرفع يديه في الدعاء حَذْو منكبيه .

وقد جاء ذلك في كثير من أدعيته ، دعا بها في مناسبات متعددة :

قال الإمام القسطلاني في (إرشاد الساري) : وقد جمع النووي في شرح المهذب نحواً من ثلاثين حديثاً في ذلك ـ أي : في رفع يديه ﷺ في الدعاء ـ من (الصحيحين) وغيرهما ، وللمنذري فيه جزء . اهـ .

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن

الله حيي كريم ، يستحيي إذا رفع الرجلُ إليه يديه أن يَردَّهما صِفراً خائبتين » [١] .

وكان ﷺ يدعو مشيراً بباطن كفيه نحو السماء تارةً إن كان الدعاء بنحو تحصيل شيء ، **وبظاهرهما إلى السماء تارةً** إن دعا بنحو دفع بلاء ، كما ورد في (سنن) أبي داود عن أنس [٢] .

ولذا قال الإمام النووي : قال العلماء : السنة في كل دعاء لدفع بلاء أن يرفع يديه ، جاعلاً ظهور كفيه إلى السماء ، وإذا دعا بسؤال شيء وتحصيله أن يجعل كفيه إلى السماء . اهـ .

وفي (صحيح) البخاري : قال أبو موسى الأشعري : (دعا النبي ﷺ ثم رفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه [٣]) .

وكان ﷺ يبالغ في رفع يديه في الاستسقاء ، وفي مواقف الاستغاثة بالله عز وجلّ ، والاستنصار على الأعداء ، كما جاء في (الصحيحين) : (أنه ﷺ رفع يديه يوم بدر يستنصر على المشركين حتى سقط رداؤه عن منكبيه ﷺ) .

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وحسنه ، وابن ماجه ، وابن حبان في (صحيحه) ، والحاكم وقال : صحيح على شرطهما ، كما في (جامع العلوم) ، و (نزل الأبرار) ، وغيرهما .

(٢) انظر (شرح المواهب) وغيره .

(٣) قال الحافظ الزرقاني : وذلك لعدم الشعر أصلا ، أو لدوام تعهده بالإزالة .

وكان ﷺ إذا رفع يديه في الدعاء لم يحطَّهما حتى يمسحَ بهما وجهه [1] :

وروى أبو داود عن بُريدة : (أن النبي ﷺ كان إذا دعا فرفع يديه : مسح وجهه بيديه) [2] .

قال العلامة المناوي : وذلك عند فراغه من الدعاء ، تفاؤلاً وتيمّناً أن كفيه مُلئا خيراً ، فأفاض منه على وجهه ، فيتأكد ذلك للداعي ـ ذكره الحَليمي . اهـ .

وكان يستقبل القبلة في دعائه :

كما ورد في (مسند) أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ لما أنزلت عليه عشر آيات من أول سورة : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ قال عمر : فاستقبل القبلة ، ورفع يديه ﷺ وقال :

« اللهم زدنا ولا تَنقصنا ، وأكرمنا ولا تُهنّا ، وأعطنا ولا تحرِمنا ، وآثِرْنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا وارضَ عنا . . » الحديث [3]

وقد استقبل رسول الله ﷺ القبلة يوم بدر ، ودعا الله تعالى .

وكان ﷺ يرشد الداعي إلى أن يفتتح دعاءه بالثناء على الله تعالى ، ثم بالصلاة على النبي ﷺ :

(١) رواه الترمذي والحاكم عن ابن عمر ، وقال الترمذي : صحيح غريب ، كما في (فيض القدير) .
(٢) وقد رمز السيوطي إلى حسنه .
(٣) ورواه الترمذي في : التفسير، والنسائي في : الصلاة .

قال النووي في (الأذكار) : روينا في كتابي الترمذي وابن ماجه ، عن عبد الله بن أبي أوفي رضي الله عنه قال :

خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً ، فقعد فقال:« من كانت له حاجة إلى الله أو إلى أحد من بني آدم ، فليتوضأ ، وليُحْسنِ الوضوء ، ثم ليصلِّ ركعتين ، ثم ليُثْنِ على الله عزَّ وجلَّ ، وليصلِّ على النبي ﷺ ، ثم ليقل :

لا إله إلا الله الحليمُ الكريمُ ، سبحان الله ربِّ العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين ، أسألك موجِباتِ رحمتك ، وعزائمَ مغفرتك ، والغنيمة من كل برٍّ ، والسلامة من كل إثم ، لا تدعْ لي ذنباً إلا غفرته ، ولا هماً إلا فرَّجته ، ولا حاجةً هي لك رضاً إلا قضيتها يا أرحم الراحمين » .

قال الترمذي : وفي إسناده مقال اهـ[1] .

ويدل على استفتاح الدعاء بالثناء : ما روى الإمام أحمد والحاكم ، عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يستفتح دعاءه بـ « سبحان ربي العليِّ الأعلى الوهاب » .

ولذا قال الإمام حجة الإسلام الغزالي رضي الله عنه : فيندب أن يفتتح الدعاء بذكر الله تعالى ، وبما هو اللائق من ذكر المواهب والمكارم أولى . اهـ .

(١) وقد رواه الحاكم في (المستدرك) ، وله شواهد متعددة ، كما في (نزل الأبرار) ، و (شرح الأذكار) ، و (تحفة الذاكرين) .

ومن آداب الدعاء التي أرشد إليها النبي ﷺ :

الصلاة عليه أول الدعاء ، وأوسطه ، وآخره :

كما جاء في (مسند) أحمد من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تجعلوني كقَدَح [1] الراكب » .

قيل : وما قدحه يا رسول الله ؟

قال ﷺ : « فإن الراكب يملأ قدحه ثم يضعه ويرفع متاعه على راحلته ، فإن احتاج إلى الشراب شربه ، أو الوضوء توضأ ، وإلّا هَراقه .

اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره » [2] .

والمراد : أن يصلَّى عليه في أول الدعاء وأوسطه وآخره ﷺ .

وعن علي رضي الله عنه قال : (كلُّ دعاءٍ محجوبٌ حتى يصلَّى على محمد ﷺ) [3] .

وروى الترمذي عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه موقوفاً قال : (إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيِّك ﷺ) .

---

(١) القدح بفتحتين : إناء صغير للشرب .

(٢) انظر (المواهب) للقسطلاني و (شرحه) .

(٣) قال في (الترغيب) : رواه الطبراني في (الأوسط) موقوفاً ، ورواته ثقات ، ورفعه بعضهم ، والموقوف أصح . اهـ .

ومن آداب الدعاء الإلحاحُ فيه :

روى أبو داود عن ابن مسعود رضي الله عنه : (أن النبي ﷺ كان يُعجبه أن يدعو ثلاثاً ، ويستغفر ثلاثاً) .

ورُوي عنه ﷺ أنه قال : « إن الله يحب الملحِّين في الدعاء » [1] .

ومن مطالب الدعاء التي أرشد إليها النبي ﷺ لتحصل الإجابة :

تطييب المأكل والمشرب والملبَس ، وذلك بأن يكون حلالاً :

روى مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن الله تعالى طيِّب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يا أيها الرسُل كلوا من الطيبات ـ أي : الحلال ـ واعملوا صالحاً . . ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيِّبات ما رزقناكم ، واشكروا لله إنْ كنتم إياه تعبدون ﴾ ثم ذكر ـ رسول الله ﷺ ـ الرجلَ يُطيل السفر أشعثَ أغبرَ ، يمدُّ يديه إلى السماء : يا ربِّ ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِي بالحرام ، فأنّى يُستجابُ لذلك ؟ » .

ومن ذلك إرشاده ﷺ الداعي إلى عدم الاستعجال ، بأن يقول : قد دعوتُ ربي فلم يُستجَب لي ، فإن ذلك يُبعد الإجابة ، لما ورد في (الصحيحين) وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال

---

(١) أخرجه ابن عدي في (الكامل) ، والبيهقي في (الشعب) ، من حديث عائشة رضي الله عنها ، كما في (نزل الأبرار) وغيره .

رسول الله ﷺ : « يُستجابُ لأحدكم ما لم يَعجل ، يقول : دعوتُ فلم يُستجب لي » .

وفي رواية : « دعوتُ ربي فلم يستجب لي » .

وروى أحمد وأبو يعلى برجال الصحيح من حديث أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يزال العبدُ بخير ما لم يستعجل » .

قالوا : يا نبي الله وكيف يستعجل ؟

قال : « يقول قد دعوتُ فلم يُستجب لي »[1] .

وكان ﷺ يرشد الداعي إلى العزم والجزم بوقوع مطلوبه :

ففي (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يقل أحدكم إذا دعا : اللهم اغفر لي إن شئتَ ، اللهم ارحمني إن شئتَ ـ وفي رواية للبخاري : اللهم ارزقني إن شئتَ ـ ولكن ليعزم المسألة ، فإن الله تعالى لا مُكرِه له » .

وإنما نهى عن ذلك لأن التعليق بالمشيئة إنما يُحتاج إليه ، إذا تأتَّى إكراه المطلوب منه ، وأمكن أن يُكره على تحقيق المطلوب ، وإن الله هو منزَّه عن أن يُكره على أمر ، أو أن يفعل كُرهاً ، وإنما يفعل جميع ما يفعل بمشيئته وإرادته سبحانه ، ولا مُكره له سبحانه .

ونقل في (شرح المواهب) عن النووي أن هذا النهي محمول على

(١) فبين النبي ﷺ الاستعجال المذموم ، وهو أن يقول الداعي : دعوت فلم يستجب لي ، وهذا لا يمنع أن يسأل العبد ربه تعجيل الإجابة ، فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال في دعاء الاستسقاء : « عاجلا غير رائث » .

الكراهة ، قال : وهو أولى ، قال : وظاهر كلام ابن عبد البرّ أنه نهي تحريم ـ وهو الظاهر . قاله الحافظ ـ أي: في (الفتح) ـ اهـ .

قال القسطلاني : وقيل : معنى العزم أن يُحسن الظن بالله في الإجابة ، فإنه يدعو كريماً ، وقد قال ابن عيينة : لا يمنعنَّ أحدَكم الدعاءَ ما يعلم من نفسه ـ يعني : من التقصير ـ فإن الله تعالى قد أجاب دعاء شرِّ خلقه ، وهو إبليس حين قال : ﴿ أنظِرْني إلى يوم يُبعثون ﴾ . اهـ .

وكان ﷺ يُرشد الداعي إلى ختم دعائه بالتأمين ؛ لتحصل الإجابة :

روى أبو داود عن أبي زهير النميريّ قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة نمشي ، فأتينا على رجلٍ قد ألحَّ في المسألة[1] فوقف النبي ﷺ يستمع منه .

فقال النبي ﷺ : « أوجَبَ[2] إن ختمه » .

فقال رجل من القوم : بأيِّ شيءٍ يختمه ؟

فقال « بأمين ، فإنه إن ختمه بآمين فقد أوجَبَ » .

فانصرف الرجل الذي سأل النبيَّ ﷺ فأتى الرجلَ ـ الذي ألحَّ في المسألة ـ فقال ـ له ـ: اختمْ يا فلان بآمين وأبشر .

(١) أي : أكثر من الرجاء والدعاء .

(٢) قال الزرقاني : قال الحافظ في أماليه : أي :عمل عملا وجبت له الجنة ، وقال السيوطي : الظاهر أن معناه فعل ما تجب له به الإجابة . اهـ .

وروى الحاكم عن حبيب بن سلمة الفهريِّ ـ وكان مجاب الدعاء ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يجتمع ملأ ـ أي : جماعة ـ فيدعو بعضهم ، ويؤمِّن بعضهم ، إلاَّ أجابهم الله تعالى »[1] .

وكان ﷺ يرشد الداعي إلى أن يوقن بالإجابة ، وأن يدعو عن قلبٍ شاهد ، لا عن قلب غافل :

ففي (مسند) الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال : « القلوب أوعية ، وبعضها أوعى من بعض ، فإذا سألتم الله عزَّ وجلَّ يا أيُّها الناس ، فاسْألوه وأنتم موقنون بالإجابة ، فإن الله لا يستجيب لعبدٍ دعاءَه عن ظهر قلبٍ غافلٍ »[2] .

ومن آداب الدعاء الواردة عنه ﷺ : أنه كان يستحب الجوامع من الدعاء :

روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها : (أن النبي ﷺ كان يستحبُّ الجوامع من الدعاء ، ويَدَع ـ أي : يترك ـ ما سوى ذلك)[3] .

ورواه الحاكم بلفظ : (كان يُعجبه ﷺ الجوامع) .

والمراد بجوامع الدعاء : ما جمع مع وَجازته خيري الدنيا والآخرة :

(١) انظر (ترغيب) المنذري .

(٢) قال الحافظ المنذري : إسناده حسن ، ثم أورد هذا الحديث من رواية الترمذي والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) قال الإمام النووي في (الأذكار) و (الرياض) : إسناده جيد . اهـ .

نحو : ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار ﴾ ـ وهذا أوجهُ ما قيل في معنى جوامع الدعاء .

وبناءً عليه يكون قول عائشة رضي الله عنها ـ ويدع ما سوى ذلك ـ محمولاً على أغلب الأحوال لا كلها ـ فقد قال الحافظ المنذري : كان ﷺ يجمع في الدعاء تارةً ويفصِّل أخرى . اهـ[1] .

وقيل : جوامع الدعاء هي الكلمات التي تجمع الأغراض الصالحة والمقاصد الحسنة .

وقيل : هي التي تجمع الثناء على الله تعالى وآداب المسألة .

من جوامع أدعيته العامة ﷺ

جاء في (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه قال : (كان أكثرُ دعاء النبي ﷺ : « اللهمَّ : ﴿ ربَّنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنةً ، وقنا عذاب النار ﴾ » .

والحسنة في الدنيا : هي ـ كما ورد عن علي كرم الله تعالى وجهه ـ: المرأة الصالحة .

وقال قتادة : هي العافية والكفاف .

وقال الحسن البصري : هي العلم والعبادة .

وقال السُّدي : المال الصالح .

(١) انظر ذلك في (شرح الزرقاني على المواهب) ، و (فيض القدير) للمناوي .

وقال ابن عمر : الأولاد الأبرار أو ثناء الخلق .

وقال جعفر الصادق رضي الله عنه : هي صحبة الصالحين .

قال العلامة الآلوسي : والظاهر أن الحسنة وإنْ كانت نكرةً في الإثبات وهي لا تعمُّ إلا أنها مطلقة فتنصرف إلى الكامل ، والحسنة الكاملة في الدنيا ما يشمل جميع حسناتها ، وهو توفيق الخير ، وبيانها ـ أي : تفسير الحسنة ـ بشيء مخصوص ، ليس من باب تعيين المراد ، إذ لا دلالة للمطلق على المقيَّد أصلاً ، وإنما هو من باب التمثيل .

قال : وكذا الكلام في ﴿ وفي الآخرة حسنة ﴾ فقد قيل : هي الجنة ، وقيل : السلامة من هول الموقف وسوء الحساب ، وقيل : الحور العين ، وقيل : لذة الرؤية ـ أي : رؤية الباري جلَّ وعزَّ ـ وقيل وقيل والظاهر الإطلاق وإرادة الكامل ، وهو الرحمة والإحسان . اهـ . أي : بجميع تلك الأصناف وغيرها .

وفي (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دعا رجلاً من المسلمين قد صار مثلَ الفرخ المنتوف .

فقال له ﷺ : « هل كنتَ تدعو الله بشيءٍ ؟ »

قال : نعم ، كنتُ أقول : اللهم ما كنتَ معاقبي به في الآخرة ، فعجِّله لي في الدنيا

فقال ﷺ : « سبحان الله إذاً لا تطيق ذلك ولا تستطيعه ، فهلاَّ قلتَ : ﴿ ربَّنا آتنا في الدنيا حسنةً ، وفي الآخرة حسنةً ، وقنا عذاب النار ﴾» ودعا له فشفاه الله تعالى .

ومن أدعيته الجامعة ﷺ :

« اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي ، واجعل الحياة زيادةً لي من كلِّ خير ، واجعل الموت راحةً لي من كلِّ شرٍّ » .

ومن ذلك :

« ربِّ أعنِّي ولا تُعنْ عليَّ ، وانصُرني ولا تنصُر عليَّ ، وامكُر لي ولا تمكر عليَّ[1] ، واهدني[2] ويَسِّرْ لي الهُدى ، وانصرني على من بغى عليّ .

ربِّ اجعلني لك ذكّاراً ، لك شَكَّاراً ، لكَ رهّاباً ، مِطْواعاً لك ، مُخْبتاً إليكَ ، أوَّاهاً منيباً .

ربِّ تقبَّل توبتي ، واغسل حَوْبتي[3] ، وأَجبْ دعوتي ، وثبِّت

---

(١) قال في (النهاية) : مكر الله إيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه ، وقيل : هو استدراج العبد بالطاعات ، فيتوهم ـ العبد ـ أنها مقبولة ، وهي مردودة ، والمعنى : ألحق مكرك بأعدائي لا بي . اهـ .
قال العلامة الزرقاني : ولا يسند ـ المكر ـ إلى الله تعالى إلا على سبيل المقابلة والازدواج ـ والمقابلة هنا مقدرة ، لأن قوله : « امكر لي » معناه جازِ مَن مكر علي . اهـ .

(٢) أي : اهدني لصالح الأعمال والأخلاق .

(٣) أي : خطيئتي .

حُجَّتي ، وسَدِّدْ لساني ، واهدِ قلبي ، واسلُلْ سخيمة[1] صدري - وفي رواية : قلبي »[2] .

ومن ذلك :

« اللهم إني أسألك الهُدى والتُّقى ، والعفاف[3] والغنى[4] » .

رواه مسلم من حديث ابن مسعود .

ومن أدعيته ﷺ :

« اللهم لك أسلمتُ ، وبك آمنت ، وعليك توكّلتُ ، وإليك أنبتُ ، وبك خاصمتُ .

اللهم إني أعوذ بعزَّتك لا إله إلا أنتَ : أن تُضلَّني ، أنت الحيُّ الذي لا يموت » .

وفي رواية : « أنتَ الحيُّ القيُّوم الذي لا يموت والجن والإنس يموتون » .

رواه الشيخان عن ابن عباس .

ومن أدعيته ﷺ :

« اللهم عافني في جسدي ، وعافني في سمعي وبصري ، واجعلهما

(١) بفتح السين وكسر الخاء هي : الحقد .
(٢) رواه أصحاب (السنن) وصححه الحاكم - كلهم عن ابن عباس .
(٣) أي : الصيانة عن مطامع الدنيا وعن المنهيات .
(٤) غنى النفس ، والغنى عن الناس .

الوارثَ مني[1] لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحانَ الله ربِّ العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين » .

رواه الترمذي والحاكم والبيهقي من حديث عائشة رضي الله عنها .

ومن أدعيته ﷺ الجامعة لأنواع من التعاويذ :

« اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجُبْن ، والهرَم ، والبخل ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات » .

رواه الشيخان من حديث أنس .

وفي رواية للبخاري :

« اللهم إني أعوذ بك من الهمِّ والحَزَن ، والعجز والبخل ، والجبن وضَلَع الدَّين[2] وغلبة الرجال »[3] .

ومن ذلك :

« اللهم إني أعوذ بك من الجُذام[4] والبَرَص والجنون وسيِّء الأسقام » .

(١) أي : أبقهما عليّ صحيحين سليمين إلى أن أموت ، بأن يلازماني لزوم الوارث لموروثه .
(٢) أي : ثقل الديون .
(٣) أي : تسلط الرجال وشدتهم بغير حق شرعي .
(٤) الجذام كـ (غراب) : علة تحدث في البدن ، فتفسد مزاج الأعضاء ، وربما تؤدي إلى تآكلها وسقوطها .

رواه أبو داود والنسائي من حديث أنس بإسنادٍ صحيح .

ومن ذلك :

ما جاء عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول :

« اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل والهرم ، وعذاب القبر .

اللهمَّ آتِ نفسي تقواها ، وزكِّها أنت خير مَنْ زكَّاها ، أنت وليُّها ومولاها .

اللهم إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع ، ومن قلبٍ لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يُستجاب لها »[1] .

قال العلامة الطيبي : في كلٍّ من هذه القرائن[2] إشعارٌ بأن وجود الشيء مبني على غايته ، والغرض ـ أي : المقصود الغاية :

فإن تعلم العلم إنما هو للنفع به ، فإذا لم ينفعه لم يخلُص كَفافاً ، بل يكون وبالاً ـ على صاحبه ـ

(١) رواه مسلم ، وكذا الإمام أحمد وأصحاب (السنن) ، كما في (شرح المواهب) .

(٢) أي : القرائن الواردة في قوله صلى الله عليه وسلم : « أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها » .

وإن القلب إنما خُلق ليخشع لربه تعالى ، فإذا لم يخشع فهو قاسٍ يُستعاذ منه ، ﴿ فويلٌ للقاسية قلوبُهم ﴾ .

وإنما يعتدُّ بالنفس إذا تجافتْ ـ أي : تباعدت ـ عن دار الغرور ، وأنابت إلى دار الخلود ، فإذا كانت ـ النفس ـ نهمةً لا تشبع ، كانت أعدى عدوّ للمرء ، فهي أهم ما يُستعاذ منه .

وعدم استجابة الدعاء : دليلٌ على أن الداعي لم ينتفع بعلمه ، ولم يخشع قلبه ، ولم تشبع نفسه . اهـ .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول :

« اللهم إني أعوذ بك من الشِّقاق والنفاق ، وسوء الأخلاق »[1] .

رواه أبو داود من حديث أبي هريرة .

وكان ﷺ يُعوِّذ الحسن والحسين يقول :

« أعوذ ـ هذا لفظ البخاري ووقع في الأذكار : أُعيذكما ـ بكلمات الله[2] التامَّة[3] ، من كلِّ شيطان وهامَّة[4] ، ومن كلِّ عين لامَّة »[5] .

(١) أما الشقاق : فالمراد به التعادي والخلاف ، والمراد بالنفاق : نفاق العمل ، وأن سوء الأخلاق من المهلكات والمخازي .

(٢) أي : كلامه على الإطلاق ، أو القرآن الكريم خاصة .

(٣) قال الزرقاني : أي الكاملة ، أو النافعة ، أو الشافية ، أو المباركة ، أو القاضية التي تمضي وتستمر ولا يردها شيء ولا يدخلها نقص ولا عيب . اهـ . وعلى كل فهي صفات مؤكدة وكاشفة .

(٤) بتشديد الميم : ذات السموم .

(٥) التي تصيب ما نظرت إليه بسوء .

ويقول : « إن أباكما ـ أي : جدكما الأعلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ـ كان يعوّذ بها إسماعيل وإسحاق » رواه البخاري وغيره .

وكان ﷺ يقول :

« اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحوُّل عافيتك ، وفُجاءة[1] نقمتك ، وجميع سَخَطك » .

رواه مسلم وأبو داود .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول :

« اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء » رواه الترمذي وغيره .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول :

« اللهم إني أعوذ بك من يوم السوء ، ومن ليلة السوء ، ومن ساعة السوء ، ومن صاحب السوء ، ومن جار السوء في دار المُقامة » .

رواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر .

(١) بضم الفاء والمد ، وبفتحها والقصر ، أي : بغتة العقوبة وأخذة الغضب ـ كما في (شرح المواهب) .

أدعيته صلى الله عليه وسلم
في مناسبات متعددة

دعاؤه ﷺ إذا أراد أن ينام :

كان رسول الله ﷺ يقول عند مضجَعه :

« اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم ، وبكلماتك التامَّة ، من شرِّ ما أنت آخذٌ بناصيته ، اللهم أنتَ تكشفُ المَغْرَم والمأثم ، اللهم لا يُهزم جندُك ، ولا يُخلَف وعدك ، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ ، سبحانك وبحمدك »[1] .

وكان إذا أراد أن يرقُد وضع يده اليمنى تحت خده ثم يقول :

« اللهم قِني عذابك يوم تبعث عبادك » ثلاث مرات[2] .

وكان إذا أوى إلى فراشه قال : « الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا ، وكفانا وآوانا ، فكم ممَّن لا كافي له ولا مُؤوي »[3] .

دعاؤه ﷺ إذا استيقظ من نومه :

كان ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال :

« باسمك أموت وأحيا »

(١) رواه أبو داود والنسائي وغيرهما من حديث علي كرم الله وجهه .
(٢) أخرجه أبو داود من حديث حفصة رضي الله عنها .
(٣) رواه مسلم وأصحاب (السنن) .

وإذا قام قال : « الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور »[1] .

دعاؤه ﷺ إذا دخل الخلاء وإذا خرج منه :

عن أنس رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ يقول إذا دخل الخلاء :

« بسم الله ، اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث »

وفي رواية الطبراني : « اللهم إني أعوذ بك من الرِّجس النَّجس ، الخبيث المُخْبث ، الشيطان الرجيم » .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يقول إذا خرج من الخلاء : « غفرانك »[2] .

وللطبراني عن ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ إذا خرج من الخلاء يقول : « الحمد لله الذي أذاقني لذتَّه ، وأبقى فيَّ قوتَّه ، وأذهب عني أذاه » .

دعاؤه ﷺ إذا خرج من بيته :

عن أم سلمة رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ إذا خرج من بيته قال :

« بسم الله ، توكَّلتُ على الله ، اللهم إني أعوذ بك أن أضِلَّ أو أُضَلَّ أو أزِلَّ أُزَلَّ ، أو أَظلِم أو أُظلَم ، أو أجهل أو يُجهل عليَّ »[3] .

(١) رواه الشيخان وغيرهما من حديث حذيفة رضي الله عنه .
(٢) رواه أصحاب السنن .
(٣) رواه أصحاب السنن .

ومن دعائه إذا توجَّه إلى المسجد ، وإذا دخله ، وإذا خرج منه :

عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ خرج إلى الصلاة وهو يقول :

« اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وعن يميني نوراً ، وخلفي نوراً ، وفي عصبي نوراً ، وفي لحمي نوراً ، وفي دمي نوراً ، وفي شعري نوراً ، وفي بَشَري نوراً »[1] .

وعن السيدة فاطمة بنت سيدنا رسول الله ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد يقول :

« بسم الله ، والصلاةُ والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب رحمتك »

وإذا خرج قال : « بسم الله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب فضلك »[2] .

وكان ﷺ يقول إذا دخل المسجد :

« أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم »[3] .

(٣) رواه الشيخان ، وتقدم رواية لمسلم حين خرج صلى الله عليه وسلم لصلاة الصبح .
(٤) رواه الترمذي وغيره .
(١) رواه أبو داود وقال النووي : إسناده جيد .

ومن أدعيته ﷺ إذا أصبح وإذا أمسى :

كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال :

« اللهم بك أصبحنا ، وبك أمسينا ، وبك نحيا وبك نموت ، وإليك النشور »

وإذا أمسى قال : « اللهم بك أمسينا ، وبك أصبحنا ، وبك نحيا وبك نموت ، وإليك النشور »[1] .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا أمسى قال :

« أمسينا وأمسى الملك لله ، والحمد لله ، لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

ربِّ أسألكَ خيرَ ما في هذه الليلة ، وخيرَ ما بعدها ، وأعوذ بك من شرِّ ما في هذه الليلة ، وشرِّ ما بعدها .

رب أعوذ بك من الكسل والهرم ، وسوء الكِبَر ، أعوذ بك من عذابٍ في النار ، وعذابٍ في القبر » .

وإذا أصبح قال :

« أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله . . »[2] إلى آخر ما سبق .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا أصبح قال :

« أصبحنا وأصبح الملك لله ، والحمد لله ، والكبرياء والعظمة لله ،

(١) رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه مسلم وأبو داود من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

والخَلْق والأمر ؛ والليل والنهار ؛ وما يسكن فيهما ؛ لله تعالى .

اللهم اجعل أوَّلَ هذا النهار صلاحاً ، وأوسطَه فلاحاً ، وآخره نجاحاً ، يا أرحم الراحمين »[1] .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول :

« إذا أصبح أحدكم فليقل :

أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين .

اللهم أسألُكَ خيرَ هذا اليوم : فتحَه ونصرَه ، ونورَه وبركته وهُداه .

وأعوذ بك من شرِّ ما فيه ، وشرِّ ما بعده .

ثم إذا أمسى فليقل مثل ذلك »[2] .

وكان ﷺ يدعو حين يمسي وحين يصبح بهذه الدعوات :

« اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة .

اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنيايَ ، وأهلي ومالي .

اللهم استُر عَوراتي وآمِنْ رَوْعاتي .

(١) رواه ابن أبي شيبة في (مصنفه) والطبراني وابن السني من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه ، كما في (تحفة الذاكرين) وغيره .

(٢) قال في (الأذكار) : رويناه في (سنن) أبي داود بإسناد لم يضعفه ، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .

اللهم احفظني من بين يديَّ ، ومن خلفي ، وعن يميني ، وعن شمالي ، ومِن فوقي ، وأعوذ بعظمتكَ أن أُغتالَ من تحتي »[1] .

وكان ﷺ يدعو إذا أصبح وإذا أمسى :

« اللهم عافني في بدني ، اللهم عافني في سمعي ، اللهم عافني في بصري ، لا إله إلا أنت ـ ثلاثاً ـ اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر ، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، لا إله إلا أنتَ ـ ثلاثا ـ[2] » .

وقال ﷺ لابنته الكريمة السيدة فاطمة رضي الله عنها :

« ما يمنعكِ أن تسمعي ما أوصيكِ به ؟ تقولين إذا أصبحتِ وإذا أمسيتِ : يا حيُّ يا قيُّوم برحمتك أستغيثُ ! أصلِحْ لي شأني كلَّه ، ولا تكلني إلى نفسي طرفةَ عين »[3] .

وكان ﷺ إذا أهمَّه الأمر رفع رأسه إلى السماء ، وقال : « سبحان الله العظيم » .

وإذا اجتهد في الدعاء قال : « ياحيُّ يا قيُّوم »[4] .

---

(١) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .
وأغتال : مبني لما لم يسم فاعله ، ومعناه : أؤخذ غيلة ، وقد فسر هنا بالخسف .
(٢) أخرجه أبو داود والنسائي .
(٣) رواه النسائي والحاكم في (المستدرك) من حديث أنس رضي الله عنه .
(٤) رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وكان ﷺ إذا أراد أمراً قال : « اللهم خِرْ لي واختر لي »[1] .

وكان ﷺ إذا استجدَّ ثوباً سمَّاه باسمه : قميصاً ، أو عمامةً ، أو رداءً ، ثم يقول :

« اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه ، أسألك من خيره ، وخير ما صُنع له ، وأعوذ بك من شرِّه ، وشرِّ ما صُنِع له »[2] .

وكان ﷺ إذا رأى المطر قال : « اللهم صيِّباً نافعاً »[3] .

وكان ﷺ إذا رأى الهلال قال :

« اللهم أهِلَّه علينا باليُمن والإيمان ، والسلامة والإسلام ، ربي وربُّك الله »[4] .

وكان ﷺ إذا رأى الهلال قال :

« اللهم أهِلَّه علينا بالأمن والإيمان ، والسلامة والإسلام ، والتوفيق لما تحبُّ وترضى ، ربُّنا وربُّك الله »[5] .

وكان ﷺ إذا رأى الهلال قال :

« الله أكبر ، الله أكبر ، الحمد لله ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، اللهم

---

(١) رواه الترمذي عن الصديق رضي الله عنه ، قال النووي : سنده ضعيف .
(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي .
(٣) رواه أصحاب السنن عن عائشة رضي الله عنها .
(٤) رواه أحمد والترمذي .
(٥) عزاه في (الجامع الصغير) للطبراني رامزاً لحسنه .

إني أسألك من خير هذا الشهر ، وأعوذ بك من سوء القدر ، ومن شر يوم المحشر »[1] .

وكان ﷺ إذا رأى الهلال قال :

« هلال خيرٍ ورشد ، آمنت بالذي خلقك » ـ ثلاثاً ـ ثم يقول : « الحمد لله الذي ذهب بشهر كذا وجاء بشهر كذا »[2] .

وكان ﷺ إذا دخل رجب قال : « اللهم بارك لنا في رجب وشعبان ، وبلِّغنا رمضان » .

وكان ﷺ إذا كانت ليلة الجمعة قال : « هذه ليلة غرَّاءُ ويوم أزهر »[3] .

وكان ﷺ إذا عصفت الريح ـ أي : اشتدَّت وهاجتْ ـ قال :

« اللهم إني أسألك خيرها ، وخير ما فيها ، وخير ما أُرسلتْ به . وأعوذ بك من شرّها ، وشرِّ ما فيها ، وشر ما أُرسلتْ به »[4] .

وكان ﷺ إذا تضورَ[5] **من الليل قال :**

(١) رواه الإمام أحمد والطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) رواه أبو داود عن قتادة بلاغاً ، وابن السني عن أبي سعيد ، كما في (الجامع الصغير) .

(٣) عزاه في (الجامع الصغير) للبيهقي وابن عساكر ، وقال النووي في (الأذكار) : إسناده ضعيف .

(٤) رواه مسلم الترمذي .

(٥) أي : تقلب أثناء النوم .

« لا إله إلا الله الواحد القهَّار ، ربُّ السماوات والأرض وما بينهما ، العزيز الغفّار »[1] .

وكان ﷺ إذا دخل السوق قال :

« بسم الله ، اللهم إني أسألك من خير هذه السوق ، وخير ما فيها ، وأعوذ بك من شرِّها وشرِّ ما فيها ، اللهم إني أعوذ بك أن أُصيب فيها يميناً فاجرة ـ أي : كاذبة ـ أو صَفقةً خاسرةً »[2]

وكان ﷺ إذا أُتي بباكورة الثمرة[3]

وضعها على عينيه ، ثم على شفتيه ، وقال :

« اللهمَّ كما أريتَنا أوَّله فأرنا آخره » ثم يعطيه مَنْ يكون عنده من الصبيان[4] .

وكان ﷺ إذا قُرِّب إليه طعامه ـ

وفي رواية أحمد : طعام ـ قال ﷺ : « بسم الله » .

فاذا فرغ قال :

(١) رواه النسائي والحاكم وابن حبان ، كلهم عن عائشة رضي الله عنها ، وقال الحافظ العراقي في (أماليه) : حديث صحيح ، كما في (فيض القدير) .

(٢) رواه الطبراني عن بريدة ، قال الحافظ الهيثمي : فيه ـ أي : في إسناده ـ محمد بن أبان الجعفي ، وهو ضعيف . اهـ . ورواه الحاكم أيضاً .

(٣) الباكورة : هي أول ما يدرك من الفاكهة .

(٤) قال الحافظ الهيثمي : رواه الطبراني عن ابن عباس في (الكبير والصغير) ، ورجال (الصغير) رجال الصحيح اهـ . ورواه الحاكم عن أنس .

« اللهم إنك أطعمتَ وسقيتَ ، وأغنيتَ وأقنيتَ [1] ، وهديتَ واجتبيتَ ، اللهم فلك الحمد على ما أعطيتَ » [2] .

وكان ﷺ إذا فرغ من طعامه قال :

« الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا ، وجعلنا من المسلمين » [3] .

وكان ﷺ يقول أيضاً إذا فرغ من طعامه :

« اللهم لك الحمد أطعمتَ وسقيتَ ، وأشبعتَ وأرويت ، فلك الحمد غيرَ مكفور ولا مودَّع ، ولا مُستغنىً عنك » [4] .

وكان ﷺ إذا أكل أو شرب قال :

« الحمد لله الذي أطعم وسقى ، وسوَّغه ، وجعل له مخرجاً » .

رواه أبو داود وغيره .

وكان ﷺ إذا أفطر ـ أي : من صومه ـ قال :

« اللهم لك صُمتُ ، وعلى رزقك أفطرتُ ، فتقبَّل مني ، إنك أنت السميع العليم » [5] .

(١) أي : أعطيت ما يقتنى فوق الحاجة .

(٢) رواه النسائي وأحمد ، قال الحافظ في (الفتح) : وسنده صحيح . اهـ قال المناوي : لكن قال النووي في (الأذكار) : إسناده حسن . اهـ .

(٣) رواه أحمد والضياء في (المختارة) عن أبي سعيد ، وقد رمز في (الجامع الصغير) لحسنه .

(٤) عزاه في (الجامع الصغير) إلى الإمام أحمد رامزاً لحسنه .

(٥) رواه أبو داود إلى قوله : « أفطرت » والطبراني وابن السني بالزيادة كما في (الجامع الصغير) .

وكان ﷺ يقول أيضاً إذا أفطر :

« ذهب الظمأ ، وابتلَّت العروق ، وثبت الأجر إن شاء الله تعالى » [1] .

وكان ﷺ إذا أفطر عند قوم قال ـ في دعائه لهم ـ:

« أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار ، وتنزَّلت عليكم الملائكة » أي : بالرحمة والخير الإلهي .

وفي رواية « وصلَّت عليكم الملائكة » بدلاً من « وتنزَّلت » [2] .

وكان ﷺ إذا أكل عند قوم دعا لهم فقال :

« أكل طعامَكم الأبرارُ ، وصلَّتْ عليكم الملائكة ، وأفطر عندكم الصائمون » .

رواه أحمد والبزار .

وكان ﷺ إذا رفَّأ الإنسان إذا تزوَّج قال له :

« بارك الله لك ، وبارك عليك ، وجمع بينكما في خير » [3] .

وقد كانوا في الجاهلية يقولون للرجل إذا تزوَّج : بالرفاء والبنين ، فنهاهم ﷺ عن ذلك ، لأنه ليس فيه حمد ولا ثناء ، ولا ذكر لله تعالى ،

(١) رواه أبو داود والحاكم عن ابن عمر رضي الله عنه .

(٢) عزاه في (الجامع الصغير) للإمام أحمد والبيهقي عن أنس رضي الله عنه رامزاً لحسنه ، قال في (فيض القدير) : رواه أيضاً عنه أبو داود .

(٣) رواه أصحاب السنن وابن حبان ، وقال الترمذي فيه : حسن صحيح . انظر (فيض القدير) و (تحفة الذاكرين) وغيرهما .

ولما فيه من الإشارة إلى بغض البنات ، لتخصيص البنين بالذكر ، وغير ذلك .

وعلَّمهم أن يقولوا لمن تزوَّج :

« بارك الله لك » أي : في هذا الزواج « وبارك عليك » بالأولاد والنسل المبارك « وجمع بينكما في خير » وذلك بحسن المعاشرة ، وتمام الموافقة والمودَّة بين الزوجين .

وكان ﷺ يعلِّم الرجل إذا تزوَّج امرأة أن يقول :

« اللهم إني أسألك خيرها ، وخيرَ ما جَبَلْتَها عليه ، وأعوذ بك من شرِّها ، وشرِّ ما جَبَلْتَها عليه »[1] .

وفي رواية : « وأن يأخذ بناصيتها ، ويدعو بالبركة في المرأة » .

وكان ﷺ يقول عند الكرب :

« لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم ، لا إله إلّا الله ربُّ السموات وربُّ الأرض ، وربّ العرش الكريم »[2] .

وفي رواية للبخاري :

« لا إله إلا الله الحليم الكريم » .

وفي رواية لمسلم : كان ﷺ إذا حَزَبه أمر قال ذلك .

---

(١) رواه أبو داود وأبو يعلى ، كما في (الحصن) وشرحه .

(٢) متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

وكان ﷺ يقول إذا كَرَبه أمر :

« يا حيُّ يا قيومُ ، برحمتك أستغيث » رواه الترمذي .

وكان ﷺ إذا خاف قوماً ـ أي : خاف من شرِّهم ـ قال :

« اللهم إنا نجعلكَ في نحورهم ، ونعوذ بكَ من شرورهم »[1] .

وقال أنس : كنا مع النبي ﷺ في غزوةٍ فلقي العدوَّ ، فسمعتُه يقول :

« يا مالكَ يوم الدِّين ، إيَّاك أعبدُ وإياك أستعين » .

فلقد رأيت الرجال ـ الأعداء ـ تُقرَع ـ تَضربها الملائكة ـ من بين أيديها ومن خلفها[2] .

وكان ﷺ إذا عاد مريضاً يمسح بيده اليمنى ويقول :

« اللهم ربَّ الناس ، أذهبِ البأس ، اشْفِ أنت الشافي ، لا شفاءَ إلا شفاؤك ، شفاءً لا يغادر ـ أي : لا يترك ـ سقماً »[3] .

وقال أنس رضي الله عنه لثابت البناني رحمه الله تعالى : ألا أرقيكَ رُقية رسول الله ﷺ ؟ قال : بلى ، قال :

---

(١) رواه أبو داود والنسائي من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن السني ، قال النووي : ويستحب أن يقول ما قدمناه في الباب السابق من حديث أبي موسى . اهـ .

(٣) متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

« اللهم ربَّ الناس ، مُذهبَ البأس ، اشفِ أنت الشافي ، لا شافيَ إلاّ أنتَ ، شفاءً لا يغادر سقماً »[1] .

وكان ﷺ إذا عاد مريضاً جلس عند رأسه ثم قال سبعَ مرات :

« أسأل الله العظيم ، ربَّ العرش العظيم ، أن يشفيَك » .

رواه ابن حبان وصححه ، والنسائي بهذا اللفظ .

ورواه أبو داود والترمذي وحسنه ، عن ابن عباس ، أن النبي ﷺ قال :

« مَنْ عادَ مريضاً لم يحضُر أجلُه ، فقال عنده سبع مرات : أسأل الله العظيم ، ربَّ العرش العظيم ، أن يشفيك ، إلاّ عافاه الله تعالى من ذلك المرض »[2] .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كان رسول الله ﷺ إذا دخل على مَنْ يعوده قال :

« لا بأسَ طَهُورٌ إن شاء الله » رواه البخاري .

وكان ﷺ يعلِّم الذي يفزع بالليل ، أو يعتريه الأرَق أن يقول :

« أعوذ بكلمات الله التامَّات ، من غضبه وعقابه ، وشرِّ عباده ، ومن هَمَزات الشياطين ، وأن يَحضُرونِ » .

---

(١) رواه البخاري .

(٢) انظر (شرح رياض الصالحين) و (نزل الأبرار) .

وكان ابن عمرو يُلقِّنها من عَقَل من ولده ، ومن لم يَعقِل كتبها له في صكٍّ ، ثم علَّقها في عنقه[1] .

وعلَّم رسول الله ﷺ خالدَ بن الوليد حين اعتراه الأرَق أن يقول :

« اللهم ربَّ السموات السبع وما أظلَّت ، وربَّ الأرضينَ وما أقلت ، وربَّ الشياطينَ وما أضلّت ، كنْ لي جاراً من شرِّ خلقك كلهم جميعاً ، أن يفرط عليَّ أحد منهم ، أو أن يطغى ، عزَّ جارُك ، وجلَّ ثناؤك » .

وفي رواية : « وتبارك اسمك ، ولا إله إلا أنت » .

رواه الترمذي والطبراني كما في (الترغيب) .

وكان ﷺ إذا أراد أن يقوم من **المجلس** يقول :

« سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » .

فقال رجل : يا رسول الله إنك لتقول قولاً ما كنتَ تقوله فيما مضى ؟

فقال ﷺ : « ذلك كفّارةٌ لما يكون في المجلس »[2] .

---

(١) رواه أبو داود ، والترمذي واللفظ له ؛ وقال : حسن غريب . ورواه النسائي والحاكم وليس عنده تخصيصها بالنوم ، كما في (الترغيب) للمنذري ، فهي تستعمل لكل من يعتريه الوحشة والفزع والخوف .
ويقول ذلك ثلاث مرات كما جاء في رواية .

(٢) رواه أبو داود والنسائي في (عمل اليوم والليلة) ، عن أبي برزة رضي الله عنه .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : قلّما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلسٍ حتى يدعو بهؤلاء الدعوات :

« اللهم اقسمْ لنا من خشيتك ما تحول بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنَّتك ، ومن اليقين ما تهوِّن علينا مصائب الدنيا .

اللهم متِّعنا بأسماعنا وأبصارنا ، وقوِّتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارثَ منا .

واجعل ثأرَنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعلْ مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبرَ همِّنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلِّط علينا من لا يرحمنا »[1] .

ومن آداب المجلس الواردة عن النبي ﷺ :

ما رواه الترمذي وحسنه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال :

« ما جلس قوم مجلساً ، لم يذكروا الله تعالى فيه ، ولم يصلُّوا على نبيِّهم فيه : إلا كان عليهم تِرَة[2] فإن شاء عذَّبهم ، وإن شاء غفر لهم » .

قال الإمام النووي : وروينا في (حلية الأولياء) عن عليٍّ كرَّم الله

(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

(٢) قال الإمام النووي : الترة بكسر التاء المثناة من فوق وهي النقص ، وقيل : التبعة وهي ما نطلب من ظلامة ونحوها .

وجهه أنه قال : من أحبَّ أن يكتال بالمكيال الأوفى ، فليقل في آخر مجلسه أو حين يقوم :

« سبحان ربِّك ربِّ العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله ربِّ العالمين » .

وكان ﷺ إذا ودّع رجلاً قال له :

« أستودعُ الله دينَك وأمانتك ، وخواتيم عملك[1] وأقرأ عليك السلام » .

وقال أنس رضي الله عنه : جاء رجل إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله إني أريد سفراً فزوِّدني .

فقال ﷺ : « زوَّدك الله التقوى » .

قال : زدني ، قال : « وغفر ذنْبَك » .

قال : زدني بأبي أنت وأمي .

قال : « ويسَّر لك الخيرَ حيثما كنت »[2] .

وكان ﷺ إذا استوى على بعيره ، خارجاً إلى السفر ، كبَّر ثلاثاً ، ثم قال :

(١) رواه أبو داود إلى هنا عن ابن عمر ، والزيادة عند النسائي ، ورواه الترمذي أيضاً ، والأمانة هنا ، كما قال الخطابي : الأهل ومن يخلفه ، وماله الذي عند أمينه ، قال : وذكر الدين هنا لأن السفر مظنة المشقة ، فربما كان سبباً لإهمال بعض أمور الدين .

(٢) رواه الترمذي وقال : حسن غريب ، ورواه النسائي والحاكم .

« سبحان الذي سخَّر لنا هذا ، وما كنا له مُقْرِنين [1] ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون .

اللهم إنا نسألكَ في سفرنا هذا البرَّ والتقوى ، ومن العمل ما ترضى .

اللهم هوِّن علينا سفرنا هذا ، واطوِ عنا بُعْده .

اللهم أنتَ الصاحب في السفر .

اللهم إني أعوذ بك من وَعْثاء [2] السفر ، وكآبة المنظر [3] ، وسوء المنقلَب [4] في المال والأهل » .

وإذا رجع ـ من سفره ـ قالهنَّ وزاد فيهنَّ :

« آيبونَ تائبون ، عابدون ، لربنا حامدون » [5] .

وكان ﷺ إذا خرج إلى المقبرة قال :

« السلام عليكم دار قومٍ مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » [6] .

(١) أي : ما كنا مطيقين له ، ولا قادرين عليه .
(٢) الوعثاء : الشدة والمشقة .
(٣) الكآبة : تغير النفس بسبب حزن ونحوه .
(٤) المنقلب : المرجع .
(٥) رواه مسلم آخر كتاب الحج ، وانظر (رياض الصالحين) .
(٦) رواه مسلم . والمعنى : وإنا إن شاء الله بكم لاحقون في الوفاة على الإيمان كما في (فيض القدير) . قالوا : والتقييد بالمشيئة هنا لقصد التبرك ، وامتثال أمر الله تعالى ، وكثيراً ما يستعمل التقييد بالمشيئة لقصد تأكيد ما تقدمه ، وأنه واقع على كل حال ، ولكن بمشيئته تعالى .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : مرّ رسول الله ﷺ بقبور المدينة ، فأقبل عليهم بوجهه فقال :

السلام عليكم يا أهل القبور ، يغفر الله لنا ولكم ، أنتم سلفُنا ونحن بالأثر » [1] .

وقال بُريدة رضي الله عنه : كان النبي ﷺ يعلِّمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم :

« السلام عليكم أهلَ الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، أسأل الله لنا ولكم العافية [2] ، أنتم لنا فَرط ، ونحن لكم تَبَع » .

ومن دعائه ﷺ للحاجِّ ، ما رواه البيهقي في (سننه) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« اللهم اغفِرْ للحاجِّ ، ولمن يستغفر له الحاج » [3] .

وروى ابن السني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : جاء غلام إلى النبي ﷺ فقال : إني أريد الحج ، فمشى معه رسول الله ﷺ ، فقال :

« يا غلام ، زوَّدك الله التقوى ، ووجَّهك في الخير ، وكفاك الهمَّ » .

فلما رجع الغلام سلَّم على النبي ﷺ فقال له :

(١) رواه الترمذي وحسنه . وفي هذا الحديث دليل على أن السلام على الأموات مطلوب من زائرهم ومن المار بهم .
(٢) رواه مسلم والنسائي ، والزيادة بعده من رواية ابن ماجه .
(٣) قال الحاكم : وهو صحيح على شرط مسلم .

« يا غلام ، قَبِل الله حجَّتك ، وغفر ذنبك ، وأخْلَفَ عليك نفقتك » .

حول تسبيحه وتحميده ﷺ

قال الله تعالى : ﴿ فسَبح بحمد ربك وكنْ من الساجدين ﴾ .

كان ﷺ يُكثر من التسبيح والحمد لله تعالى ، على وجه المحبة والشَّغف الشديد بذلك ؛ وقد قال ﷺ : « لأنْ أقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر : أحبُّ إليَّ مِمَّا طلعتْ عليه الشمس »[1] .

فليفكِّر المفكِّر ، وليتدبَّر المتدبِّر ، في شغف هذا الرسول الكريم ﷺ وحبِّه التسبيح والتحميد ، والتهليل والتكبير لله تعالى ، وأنَّ مرة واحدة من هذه الصيغة الجامعة للتسبيح والحمد والتهليل والتكبير يقولها ، هي أحبُّ إليه من جميع ما طلعتْ عليه الشمس من كائنات علويّة وسفليَّة ، وبريَّة وبحريَّة .

وقد قال ﷺ لأبي ذرّ رضي الله عنه : « ألا أُخبركَ بأحبِّ الكلام إلى الله تعالى ؟ » .

قال : قلت : يا رسول الله ، أخبرني بأحبِّ الكلام إلى الله تعالى .

فقال : « إن أحبَّ الكلام إلى الله تعالى : سبحان الله وبحمده »[2] رواه مسلم .

(١) رواه مسلم والترمذي من حديث أبي هريرة .

(٢) يعني : أن ذلك أحب الكلام إلى الله تعالى بعد القرآن ، فإنه كلامه تعالى .

وفي رواية له : إن رسول الله ﷺ سُئل : أيُّ الكلام أفضل ؟ قال : « ما اصطفَى الله لملائكته - أو لعباده - : سبحان الله وبحمده » .

وكان ﷺ يُكثر من التسبيح في الليل والنهار :

روى الطبراني عن ربيعة بن كعب الأسلمي قال : كنت أخدم النبيَّ ﷺ نهاري ، فإذا كان الليل أويتُ إلى باب رسول الله ﷺ فبتُّ عنده ، فلا أزال أسمعه يقول : « سبحان الله ، سبحان الله ، سبحان ربي » حتى تغلبني عيني فأنام .

فقال ﷺ يوما : « يا ربيعة ، سلني فأعطيَك ؟ » فقلت : أنظِرني يا رسول الله حتى أنظُرَ - وتذكَّرتُ أن الدنيا فانية منقطعة .

فقلت : يا رسول الله أسألك أن تدعوَ الله أن يُنجيني من النار ، ويدخلني الجنة .

وفي رواية مسلم قال : أسألكَ مرافقتك في الجنة .

فقال : « أوْ غيرَ ذلك » .

قال : هو ذاك .

قال ﷺ : « فأعنِّي على نفسكَ بكثرة السجود » .

وكان ﷺ يستحبُّ الجوامع من التسبيح والحمد :

ومن ذلك ماورد في تسبيحه وحمده في الضحى :

روى الإمام مسلم وأصحاب (السنن) عن جُويرية زوج النبي ﷺ ورضي الله عنها ، أن النبي ﷺ خرج من عندها ، ثم رجع بعد أن

أضحى النهار ـ وعند الترمذي : رجع قريباً من نصف النهار ـ وهي جالسة تُسبِّح .

فقال ﷺ : « مازلتِ على الحال التي فارقتك عليها ؟ » .

قالت : نعم .

فقال النبي ﷺ : « لقد قلتُ بعدكِ أربع كلمات ، ثلاث مرات ، لو وُزِنَتْ بما قلتِ من اليوم ـ أي : من أول النهار ـ لوزَنَتْهنّ :

سبحان الله وبحمده عددَ خلقه ، ورضاءَ نفسه ، وزنةَ عرشه ، ومداد كلماته » .

وفي رواية لمسلم أيضاً : « سبحان الله عددَ خلقه ، سبحان الله رضاء نفسه ، سبحان الله زِنةَ عرشه ، سبحان الله مداد كلماته » .

وزاد النسائي : « والحمد لله كذلك » .

وفي رواية : « سبحان الله وبحمده ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، عددَ خلقه ، ورضاء نفسه ، وزنة عرشه ومداد كلماته »[1] .

وروى الترمذي والحاكم عن صفيَّة رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ دخل عليها ، وبين يديها أربعةُ آلاف نواةٍ تسبِّح بهنَّ ـ أي : بعددهنَّ ـ

فقال ﷺ : « ألا أعلِّمكِ بأكثرَ مما سبَّحتِ به ؟ » .

فقالت : بلى علِّمني .

فقال : « قولي : سبحان الله عددَ خلقه » .

(١) كما في (الترغيب) للمنذري .

وفي رواية الحاكم : « قولي : سبحان الله عددَ ما خلقَ من شيءٍ »[1] .

وكان ﷺ يعلِّم الصحابة جوامع من التسبيح والحمد ـ ويحثُّهم على ذلك .

جاء عن أبي أمامة رضي الله عنه ، أنه قال : رآني رسول الله ﷺ وأنا أحرِّك شفتيَّ ، فقال : « بأيِّ شيءٍ تحرِّك شفتيك يا أبا أمامة ؟ » .

فقلت : أذكر الله يا رسول الله .

فقال : « ألا أخبركَ بأكثرَ وأفضلَ من ذِكرك بالليل والنهار ؟ »[2] .

قلت : بلى يا رسول الله .

قال : « تقول : سبحان الله عددَ ما خلقَ ، سبحان الله ملءَ ما خلق ، سبحان الله عدد ما في الأرض والسماء ، سبحان الله مِلء مافي الأرض والسماء ، سبحان الله عدد ما أحصى كتابه ، سبحان الله مِلء ما أحصى كتابه ، سبحان الله عدد كلِّ شيء ، سبحان الله ملء كلِّ شيء .

الحمد لله عدد ما خلق ، والحمد لله ملء ما خلق ، والحمد لله عدد ما في الأرض والسماء ، والحمد لله ملء ما في الأرض والسماء ، والحمد لله عدد ما أحصى كتابه ، والحمد لله ملء ما أحصى كتابه ،

(١) انظر (ترغيب) المنذري .

(٢) أي : بما هو أكثر وأفضل من ذكرك المستمرّ بالليل والنهار .

والحمد لله عدد كلِّ شيء ، والحمد لله ملء كلِّ شيء »[1] .

حول استغفاره ﷺ

قال الله تعالى : ﴿ واستغفرِ الله ، إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فسبِّح بحمد ربك واستغفره إنه كان توَّاباً ﴾ .

الاستغفار : هو طلب المغفرة من الله تعالى .

فكان ﷺ يُكثر من الاستغفار في الليل والنهار ، في الصلوات ووراء الصلوات ، وفي سائر مجالسه وأحواله .

وكان مكحول يُكثر من الاستغفار ، ويقول : كان أبو هريرة يكثر من الاستغفار ، ويقول : ما رأيت أحداً أكثر استغفاراً من رسول الله ﷺ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان ﷺ يقول في سجوده .

« اللهم اغفر لي ذنبي كلّه ، دِقَّه وجِلَّه ، أوَّله وآخره ، سرَّه وعلانيته » .

رواه مسلم .

وعن ثوبان رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر الله ثلاثاً ، وقال :

---

(١) قال الحافظ المنذري : رواه أحمد وابن أبي الدنيا واللفظ له ، والنسائي وابن خزيمة وابن حبان في (صحيحها) باختصار ، والحاكم وقال : صحيح على شرطهما . اهـ .

« اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام »

رواه مسلم .

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه ، في اليوم أكثر من سبعين مرَّة » .

قال العلماء : وقوله ﷺ : « أكثر من سبعين مرة » يحتمل الكثرة ، فإن العرب تضع السبع والسبعين والسبعمائة موضع الكثرة .

وقد قال الأعرابي لمن أعطاهُ شيئاً : سبَّع الله لك الأجر - أي : كثّره .

ويحتمل أن يراد به العدد بعينه ، ويكون لفظ « أكثر » مبهماً ، فسَّرته الرواية الأخرى : « إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » .

روى مسلم عن الأغرِّ المزني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنه لَيُغانُ على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » .

وأصل الغين في اللغة : الغيم الرقيق الذي يكون في السماء ، والمراد بالغين هنا : غين أنوارٍ لاغين أغيار .

وفي (الصحيحين) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ كان يقول :

« اللهمَّ لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت ، وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدِّم ، وأنت المؤخِّر ، لا إله إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

وكان ﷺ يُكثر من الاستغفار في مجالسه مع أصحابه :

فعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : إنْ كنا ـ أي : إنا كنا ـ لنعدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد : « ربِّ اغفر لي ، وتبْ عليَّ ، إنك أنت التواب الرحيم » مائة مرة .

رواه أبو داود وابن حبان وصححه .

ورواه الترمذي ـ وقال : حسن صحيح غريب ـ بلفظ « إنك أنت التواب الغفور » .

وأخرج النسائي بسند جيد من طريق مجاهد ، عن ابن عمر ، أنه سمع النبي ﷺ يقول :

« أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيَّ القيوم وأتوب إليه » في المجلس قبل أن يقوم ، مائة مرة[1] .

فإن قيل : لِمَ كان رسول الله ﷺ يُكثر من الاستغفار ، مع أنه ﷺ غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه ما تأخَّر ، بنصِّ قوله تعالى : ﴿ ليغفرَ لك الله ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر . . ﴾ الآية ؟ .

(١) انظر (للمواهب وشرحه) .

فالجواب عن ذلك من عدة وجوه ـ كما أوضحها العلماء العرفاء[1] .

أولاً : إن في استغفاره ﷺ عبادة لله تعالى ، وتحققاً بالعبودية ، وافتقاراً لكرم الربوبية .

ثانياً : إن في ذلك تعليما لأمته أن يُكثروا من الاستغفار ، لشدة حاجتهم .

ثالثاً : إن في ذلك تواضعاً لرب العالمين ، وهضماً للنفس .

وثمة أجوبة أخرى نأتي عليها في موضعها إن شاء الله تعالى .

وكان ﷺ يبين للصحابة صيغاً من الاستغفار جامعة ، ويرغِّبهم فيها ، لعظيم فضلها :

روى البخاري وغيره عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« سيد الاستغفار[2] أن يقول العبد : اللهم أنتَ ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني ، وأنا عبدُك ، وأنا على عهدك ووعدك[3] ما استطعتُ ،

(١) انظر (شرح الزرقاني على المواهب) وغيره .

(٢) قال العلامة الطيبي : لما كان هذا الدعاء جامعاً لمعاني التوبة كلها ، استعير له اسم السيد ، وهو في الأصل الرئيس الذي يقصد في الحوائج ، ويرجع له في الأمور . اهـ .

(٣) أي : أنا على عهدي الذي عاهدتك عليه منذ أخذت العهد على العباد وأخرجتهم أمثال الذر ، وأشهدتهم على أنفسهم ، وقلت لهم : ﴿ ألست بربكم ؟ ﴾ فأقروا وقالوا : بلى . وأنا على وعدك في الإيمان بك وبرسلك والعمل بطاعتك .

أعوذ بك من شرِّ ما صنعتُ ، أبوءُ[1] لك بنعمتك عليَّ ، وأبوء بذنبي ، فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

من قالها في النهار موقناً بها ، فمات قبل أن يُمسي : فهو من أهل الجنة .

ومن قالها في الليل وهو موقن بها ، فمات قبل أن يصبح : فهو من أهل الجنة » .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال : أستغفر الله الذي لا إله هو الحيَّ القيوم وأتوب إليه ؛ غُفِرت ذنوبه ، وإن كان قد فرّ من الزحف »[2] .

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول قبل موته ﷺ :

« سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » رواه الشيخان .

وكان ﷺ يرغِّب في الإكثار من الاستغفار ، لشدة حاجة العبد إليه في الآخرة :

فعن عبد الله بن بُسر رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول :

« طوبى لمن وُجد في صحيفته استغفار كثير »[3] .

---

(١) أي : أقر وأعترف .

(٢) قال الإمام النووي في (الرياض) : رواه أبو داود والترمذي والحاكم وقال : حديث صحيح على شرطهما .

(٣) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح والبيهقي ، كما في (الترغيب) .

كما بيَّن ﷺ أن في الاستغفار جِلاء للقلوب من الصدأ :

كما روى البيهقي عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

« إن للقلوب صدأ كصدأ النحاس ، وجِلاؤها الاستغفار » .

كما بيَّن ﷺ أن كثرة الاستغفار تفرِّج الهموم ، وتخرج من المضايق ، وتسهل الرزق :

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« من لزم الاستغفار : جعل الله له من كلِّ هم فرجاً ؛ ومن كل ضيق مخرجاً ؛ ورزقه من حيثُ لا يحتسب » .

رواه أبو داود والنسائي وغيرهما .

* * * *

نسبه الشريف وأصله المنيف ﷺ

قال الله تعالى : ﴿ الله أعلمُ حيثُ يجعل رسالته . . ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم ، عزيزٌ عليه ماعنتُم ، حريصٌ عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ .

وقد ذكر الإمام البخاري في صحيحه عمود نسبِه الرفيع ﷺ فقال : « هو محمد ﷺ[1] بنُ عبد الله بنِ

(١) فهو ﷺ سيدنا محمد ، وهذا الاسم الكريم ـ كما قال في (الفتح) ـ منقول من صفة الحمد ، وفيه المبالغة ـ أي : الكثرة ـ والمحمد : الذي حُمد مرة بعد مرة ، والذي تكاملت فيه الخصال المحمودة اهـ .

وذ لك أن من كثرت فيه الصفات المحمودة ، وكملت له : كثر حمد الناس له ، وثناؤهم عليه ، وإن أعظم خلق الله تعالى كمالا ، وأكرمهم خصالا ، وأجملهم فعالا ، وأعمهم نوالاً ، هو سيدنا محمد ﷺ .

وفي (الفتح) ، نقلا عن البيهقي في (الدلائل) بإسناد مرسل أن عبد المطلب لما ولد النبي ﷺ ، عمل له مأدبة ، فلما أكلوا سألوا : ما سميته ؟ قال : محمداً ، قالوا : فما رغبت به عن أسماء أهل بيته ؟ قال : أردت أن يحمده الله في السماء ، وخلقه في الأرض .

وقال بعض العلماء : بل سمته أمه قبل ذلك محمداً لما رأته ؛ وقيل لها في شأنه ﷺ .

كما روى أبو نعيم وغيره من حديث ابن عباس أنه قال : كانت آمنة تحدث وتقول : أتاني آت حين مرّ بي من حملي ستة أشهر ـ في المنام ، وقال لي : يا آمنة إنك قد حملت بخير العالمين ، فإذا ولدته فسميه محمداً ﷺ . =

عبد المطّلب[1] بنِ هاشم[2] بنِ عبد مَناف[3] بن قُصيّ[4] بن كِلاب[5] بن مُرَّة[6] بن كعب[7]

= ولا منافاة بين ذلك ، كما قال الحافظ الزرقاني ، فإن آمنة لما نقلت ما رأته لعبد المطلب ، سماه محمداً ﷺ فوقعت التسمية منه بسببها ، وإذا كان بسببها صح أن يقال إنها سمته محمداً ﷺ . انظر (شرح المواهب) ١ : ١١١ و٣ : ١١٤ ، و(الفتح) ١ : ١٢٤ .

(١) واسمه : شيبة الحمد ـ سمي بذلك لحمد الناس له ، لأنه كان مفزع قريش في النوائب ، وملجأهم في الأمور ، وشريفهم كمالاً وفعالاً .

(٢) واسمه عمرو ـ وإنما قيل له : هاشم ، لأنه أول من هشم الثريد بمكة لأهل الموسم ، ولقومه أولاً في سنة المجاعة .

(٣) واسمه : المغيرة ـ وهو منقول من الوصف ، والهاء للمبالغة ، سمي بذلك تفاؤلا أنه يغير على الأعداء ، وكان مطاعاً في قريش ، ويدعى القمر لجماله الفائق .

(٤) واسمه : مجمع ـ وذلك كما قال ثعلب في (أماليه) : أنه كان يجمع قومه يوم العروبة ـ الجمعة ـ فيذكرهم ، ويأمرهم بتعظيم الحرم ، ويخبرهم أنه سيبعث فيهم نبي . اهـ من (شرح المواهب) .

(٥) هذا لقب منقول من المصدر الذي في معنى المكالبة ، يقال : كالبت العدو ، مكالبة ، وكلاباً ، بمعنى : ضايقته وخانقته ، أما اسمه فهو : حكيم ، وقيل : عروة .

(٦) بمعنى القوة ، والهاء للمبالغة .

(٧) منقول من كعب القناة كما قال ابن دريد وغيره ـ سمي بذلك لارتفاعه على قومه ، وشرفه فيهم ، فلذلك كانوا يخضعون له ، حتى أرخوا بموته ـ كما في (الفتح) .

وكان خطيباً فصيحاً ، وكان يأمر قومه بتعظيم الحرم ، ويجمعهم ويخبرهم أنه =

ابن لؤيّ[1] بن غالب[2] بن فِهْر[3] بن مالك[4] بن النَّضْر[5]

سيبعث فيهم نبي ، ويأمر من أدركه باتباعه ، كما كان قصي يفعل ذلك ، كما في (شرح المواهب) و (الفتح) .

(١) قال الأصمعي : تصغير لواء ، زيدت فيه الهمزة .

(٢) اسم فاعل من الغلب .

(٣) منقول من الفهر ، وهو الحجر الصغير ملء الكف ، وقيل : الحجر الطويل ، وأما اسمه : فهو قريش ، وإليه تنسب بطون قريش ، فما فوقه كناني لا قرشي ، قال الحافظ الزرقاني : وهذا هو الذي صححه الدمياطي والعراقي وغيرهما ، والحجة لهم حديث مسلم والترمذي مرفوعاً : « إن الله تعالى اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة . . . » الحديث .

قال : وذهب آخرون إلى أن أصل قريش : النضر ، وبه قال الشافعي ، وعزاه العراقي للأكثرين ، وقال النووي : هو الصحيح المشهور ، وأيضاً صححه الحافظ الصلاح العلائي وعزاه للمحققين ، واحتجوا بحديث الأشعث بن قيس قال : قدمت على رسول الله ﷺ في وفد كندة ، فقلت : ألستم منا يا رسول الله ؟ قال : « لا ، نحن بنو النضر بن كنانة » رواه ابن ماجه وابن عبد البر وأبو نعيم في (الرياضة) . اهـ .

(٤) اسم فاعل من ملك ، ويكنى أبا الحارث .

(٥) بفتح النون وإسكان الضاد المعجمة ، فراء ، واسمه قيس ، ولقب بالنضر لنضارة وجهه ، وإشراقه وجماله ، كما في (شرح المواهب) .

ابن كِنَانة[1] بن خُزَيمة[2] بن مُدْرِكة[3] بن إلياس[4] بن مُضَر[5] ابن نزار[6] بن مَعَدّ[7] بن عدنان[8] .

(١) قال في (الفتح) : هو بلفظ وعاء السهام إذا كانت من جلود ، ونقل عن أبي عامر العدواني أنه قال : رأيت كنانة بن خزيمة شيخاً مسناً عظيم القدر ، تحج إليه العرب لعلمه وفضله بينهم . اهـ .

(٢) تصغير خزمة ، وهي المرة الواحدة من الخزم ، وهو شدة الشيء وصلاحه ، كما في (الفتح) وغيره .

(٣) منقول من اسم فاعل من الإدراك ، والهاء للمبالغة ـ ولقب بذلك لإدراكه كل عز وفخر كان في آبائه ، وكان فيه نور المصطفى ﷺ ظاهراً ، واسمه عمرو عند الجمهور ، وهو الصحيح .

وقال ابن إسحاق : عامر ، وضعف ، كما في (شرح المواهب) .

(٤) والمعروف أن هذا اسمه : وقيل : هذا لقبه ، واسمه : حبيب ، قال الزرقاني : وفي (المنتقى) : كان يسمع من ظهر إلياس أحياناً دوي تلبية النبي ﷺ بالحج ، ولم تزل العرب تعظمه تعظيم أهل الحكمة ، كلقمان وأشباهه ، وكان يدعى : كبير قومه ، وسيد عشيرته ، ولا يقطع أمر دونه ، ولا يقضي بينهم دونه . اهـ .

(٥) سمي بذلك لأنه كان يمضر القلوب ـ أي : يؤثر فيها ـ لحسنه وجماله .

(٦) بكسر النون من النزر ، وهو النادر القليل ، سمي بذلك لأنه كان فريد عصره ، وأجملهم ، وأكبرهم عقلا .

(٧) مفعل ، من العد .

(٨) فعلان ، من العدن ـ أي : الإقامة ـ قال الزرقاني : وفي (الخميس) : سمي بذلك ـ أي : عدنان ـ لأن أعين الجن والإنس كانت إليه ، وأرادوا قتله ، وقالوا : لئن تركنا هذا الغلام حتى يدرك مدرك الرجل ، ليخرجن من ظهره من يسود الناس ، فوكل الله به من يحفظه . اهـ .

فهو من عدن الأمان والحفظ .

قال الحافظ ابن كثير وغيره : وهذا النسب بهذه الصفة ، لا خلاف فيه بين العلماء ، وجميع عرب الحجاز ينتهون إلى هذا النسب ، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ قلْ : لا أسألكم عليه أجراً إلا المودّةَ في القُربى . . ﴾ الآية ، قال : لم يكن بطنٌ من بطون قريش إلا ولرسولِ الله ﷺ نسب يتصل بهم .

كما وأن جميع قبائل العرب العدنانية ، تنتهي إلى هذا النسب بالآباء ، وكثير منهم بالأمهات أيضاً ، ولذلك طالب رسول الله ﷺ جميعَ قبائل العرب أن يرعَوْا تلك القرابة ، ويناصروه ، ويكفوا عنه الأذى .

كما أنه لا خلاف بين العلماء أن عدنان هو من سُلالة إسماعيل بن سيدنا إبراهيم ، على نبينا وعليهما الصلاة والسلام .

وإنما اختلف العلماء فيمن بين عدنان وإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، على أقوالٍ متعددةٍ ، وفيمن بين إبراهيم وآدم عليهما الصلاة والسلام ، وهذه الأقوال مفصَّلة في (السيرة النبوية) للعلامة محمد بن يوسف الشامي ، وفي (فتح الباري) أيضاً .

قال الحافظ في (الفتح) : وأخرج ابن سعد من حديث ابن عباس ، أن النبي ﷺ كان إذا انتسب لم يجاوز في نسبه مَعَدَّ بنَ عدنان .

ومن هنا يعلم العاقل أصالة هذا النسب وشرافته ، وعزَّته وكرامته .

فضل نسبه الشريف ﷺ

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بُعثتُ من خير قرون بني آدم ، قرناً فقرناً ، حتى بعثتُ من القرن الذي كنت فيه » .

وزاد ابن سعد من مرسل أبي جعفر الباقر رضي الله عنهما :

« ثم اختار بني هاشم من قريش ، ثم اختار بني عبد المطلب من بني هاشم » .

فهو ﷺ خِيرة الله تعالى ، وصفوته من جميع القرون ، أي : الأجيال كلها .

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

« إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيلَ ، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من بني قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » .

رواه مسلم والترمذي واللفظ له .

وفي (صحيح) البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما :

أن هرقل ملكَ الروم سأل أبا سفيان عن نسب النبي ﷺ ، فقال : كيف نسبُه فيكم ؟

فقال أبو سفيان : هو فينا ذو نسب ـ يعني أن محمداً ﷺ هو ذو نسبٍ شريفٍ ، عالٍ مُنيفٍ ، على كل الأنساب ـ .

فقال هرقل : كذلك الرسل تبعث في أنساب قومها .

وعن العباس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ بلغه بعض ما يقول الناس ، فصعِد ﷺ المنبر فقال :

« من أنا ؟ » .

قالوا : أنت رسول الله .

فقال : « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلني من خِيرة خلقه ، وجعلهم فِرقتين ، فجعلني من خير فرقةٍ ، وخلق القبائل فجعلني من خير قبيلة ، وجعلهم بيوتاً ، فجعلني من خيرهم بيتاً ، فأنا خيرُكم بيتاً ، وخيركم نفساً » رواه الإمام أحمد.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ :

« قال لي جبريل : قلَّبتُ الأرض من مشارقها ومغاربها ، فلم أجد رجلاً أفضلَ من محمد ﷺ .

وقلَّبت الأرض من مشارقها ومغاربها فلم أجد بني أبٍ أفضلَ من بني هاشم »[1] .

وإنما ذكر ﷺ مكارم أصوله ، وَشرافتهم ، ونَقاوة أنسابهم ، تحدُّثاً بنعمة الله تعالى ، وشكراًله ،وتعريفاً بمنازلهم ومراتبهم ، وبياناً لكفايتهم ـ وليس ذلك من باب الاستطالة والكبر .

(١) رواه البيهقي والحاكم والطبراني وابن عساكر ، وقال الشامي ١ : ٢٧٦ من (سيرته) : قال الحافظ في (أماليه) : لوامح الصحة ظاهرة على صفحات هذا المتن . اهـ .

قال العلامة الحَليمي : أراد ﷺ تعريف منازل المذكورين ومراتبهم .

قال : وقد يكون أراد به الاشارة بنعمة الله عليه في نفسه وآبائه ، على وجه الشكر ، وليس ذلك من الاستطالة والفخر ـ أي : المصحوب بالكبر ـ في شيء . اهـ .

ولذا قال الحافظ ابن حجر : والنهي عن التفاخر بالآباء موضعه مفاخرة تُفْضي ـ أي : تؤدي ـ إلى تكبرٍ واحتقارِ مسلم . اهـ .

طهارة نسبه الشريف ﷺ

روى عبد الرزاق بإسناده إلى الإمام جعفر الصادق ، عن محمد الباقر رضي الله عنهما ، في قوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ قال : لم يُصبْه شيء من ولادة الجاهلية .

قال محمد ـ الباقر ـ: وقال رسول الله ﷺ : « إني خرجتُ من نكاحٍ ولم أخرج من سِفاحٍ »[1] .

وروى البيهقي بإسناده إلى أبي جعفر الباقر رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال « إن الله أخرجني من النكاح ، ولم يخرجني من السفاح » .

وروى البيهقي بإسناده أن النبي ﷺ خطب فقال :

« أنا محمد بنُ عبد الله ، بنِ عبد المطلب ، بن هاشم ، بن عبد مناف ، بن قصيّ ، بنِ كلاب ، بن مُرَّة ، بن كعب ، بن لؤيّ ، بن

(١) قال الحافظ ابن كثير : وهذا مرسل جيد .

غالب ، بنِ فهْر ، بن مالك ، بن النضر ، بنِ كنانة ، بن خُزيمة ، بن مُدرِكة ، بن إلياس ، بن مُضَر ، بن نزار .

وما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرها فرقة ، فأُخرجت من بين أبويَّ ، فلم يُصبني شيء من عُهْر الجاهلية ـ وخرجت من نكاحٍ ؛ ولم أخرج من سفاحٍ ؛ من لَدُنْ آدم حتى انتهيتُ إلى أبي وأمي ، فأنا خيرُكم نفساً وخيركم أباً »[1] .

وروى الطبراني وابن السَّكن وغيرهما ، أن النبي ﷺ لما دخل المدينة مرجِعه من غزوة تبوك ، قال العباس بن عبد المطلب : يا رسول الله أتأذنُ لي أن أمتدحك ؟ فقال له ﷺ : « قل ، لايَفضضِ الله فاك »[2] فقال العباس :

من قبلها طِبْتَ في الظلال ، وفي
مستودَعٍ حيث يُخصَف الورق[3]
ثم هبطتَ البلاد[4] لا بشرٌ أنـ
ـت ولا مضغةٌ ولا عـلَق

(١) قال الحافظ ابن كثير : تفرد به القدامى ، وهو ضعيف ، ولكن له شواهد ـ أي : تقوِّيه .

(٢) هذا دعاء للعباس بصيانة فمه عن كل خلل وفساد ، حساً ومعنى .

(٣) أي : من قبل الهبوط إلى الأرض طبت في ظلال الجنة ، حيث كنت في صلب آدم ، وفي مستودع ، أي : الموضع الذي كان آدم وحواء به في الجنة ، وهو حيث طفقاً يخصفان عليهما من ورق الجنة .

(٤) أي : نزلت إلى الأرض لما هبط إليها آدم ، وأنت في صلبه .

بل نطفةٌ تركب السَّفين[1] وقد
ألجم نَسْراً وأهلَه الغرق[2]
تنقُّلُ من صالب[3] إلى رحِمٍ
إذا مضى عالَم بدا طَبَق[4]
وردتَ نار الخليل مكتتماً[5]
في صلبه أنت كيف يحترق ؟ !
حتى احتوى بيتك المهيمن من
خِنْدِف علياء تحتها النُّطُق[6]

(١) اسم جنس ، والمراد به سفينة نوح عليه السلام ـ أي : كنت مستقراً في صلب سام بن نوح لما ركب السفينة .

(٢) أي : وقد ألجم الغرق بسبب الطوفان نسراً ، وهو أحد أصنام قوم نوح ، كما ألجم وأغرق أهل الصنم الذين عبدوه .

(٣) أي : من صلب .

(٤) أي : كلما مضى عالم أنت فيه بواسطة من كنت في صلبه ، ظهر طبق ـ أي : عالم ـ آخر تكون فيه بانتقالك من أصل لفرع ، فالطبق هو العالم ، والمراد به : القرن .

(٥) أي : مخفياً .

(٦) المراد بالبيت : الشرف ، والمهيمن : الشاهد المحفوظ من الشين ـ والمعنى : احتوى شرفك يا رسول الله الشاهد على فضلك ، أعلى مكان من نسب خندف ـ بكسر الخاء والدال ـ وهو في الأصل : المشي بهرولة ، ثم جعل علماً على امرأة إلياس بن مضر ، لما خرجت تهرول بين بنيها الثلاثة ، ثم ضرب مثلاً للنسب العالي ، والنطق : جمع نطاق ، وهي النواحي الواسعة ، والأوساط الشاسعة ، والمراد رفعة شرفه ﷺ فوق كل شرف ، كرفعة قمة الجبل فوق النواحي والأوساط . اهـ ملخصاً من (شرح المواهب) .

وأنت لمـا وُلـدت أشرقتِ الْـ
أرض ، وضـاءتْ بنورك الأُفُق
فنحن في ذلك الضياءِ وفي الْنـ
ـنُور وسبْل الرشاد نخترق [1]

حول مولده الشريف ﷺ

كان مولده ﷺ محفوفاً بالإكرام الإلهي ، ومعنياً بالعنايات الربانية ، وقد أظهر الله تعالى عند ولادته ﷺ خوارقَ وغرائبَ ، إرهاصاً لنبوته ، وتمهيداً لرسالته ، وإعلاناً بعظيم مرتبته ، وأنّ له ﷺ شأناً كبيراً .

فمن ذلك : انتشار النور : وامتداده عند ولاته صلى الله عليه وسلم .

روى الإمام أحمد عن العِرباض بن سارية رضي الله عنه ، أن رسول ﷺ قال : « إني عند الله لخاتَمُ النبيين ، وإنّ آدمَ لَمُنْجَدِلٌ [2] في طينته .

وسأخبركم عن ذلك : إني دعوةُ إبراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤيا أمي التي رأتْ ، وكذلك أمهات النبيين يَرَيْنَ .

(١) انظر هذه الأبيات في (تاريخ) ابن كثير ، و(المواهب وشرحها) ، و(مجمع الزوائد) ، و(تاريخ الإسلام) للذهبي ؛ وغيرها .
(٢) قال القسطلاني : يعني طريحاً ملقى في الأرض قبل نفخ الروح فيه .

- وإن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نوراً أضاءت له قصور الشام » [1] .

فهو ﷺ دعوة إبراهيم عليه السلام التي دعاها في قوله : ﴿ ربنا وابعثْ فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِك . . ﴾ الآية .

وهو بشارة عيسى عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ ومبشِّراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد . . ﴾ الآية .

وهذا النور الذي ظهر عند ولادته ﷺ رأته رؤيةَ عين بصرية ، كما دلت على ذلك بقية الروايات .

وأخرج أبو نعيم عن أم سلمة رض الله عنها ، عن آمنةَ والدةِ رسول الله ﷺ قالت : (لقد رأيت ليلةَ وضْعه نوراً أضاءتْ له قصور الشام حتى رأيتُها) .

وروى محمد بن سعد من حديث جماعة ، منهم : عطاء وابن عباس ، أن آمنة بنت وهب قالت : (لما فَصَلَ - أي : وُلد - مني - تعني النبي ﷺ - خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب ، ثم وقع على الأرض جاثياً على ركبتيه ﷺ . . .) الحديث .

وعن عثمان بن أبي العاص ، عن أمِّه أم عثمان الثقفية الصحابية

(١) ورواه البزار والطبراني ، وقال الحافظ ابن حجر : وصححه ابن حبان والحاكم ، وفي حديث أبي أمامة عند أحمد نحوه ، قال : وأخرج ابن إسحاق عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان ، عن أصحاب رسول الله ﷺ نحوه ، وقالت : أضاءت له بصرى من أرض الشام . اهـ .

ـ واسمها فاطمة بنت عبد الله [1] ـ أنها قالت : (لما حضرتُ ولادة رسول الله ﷺ رأيتُ البيت حين وقع ـ أي : نزل من بطن أمه ـ قد امتلأ نوراً ، ورأيت النجوم تدنو حتى ظننت أنها سقع عليَّ ، فلما وضعته آمنة خرج منها نور أضاء له البيت والدار ، حتى جعلتُ لا أرى إلا نوراً) [2] .

ونقل في (السيرة الشامية) عن الشيخ أبي شامة رحمه الله تعالى أنه قال : وقد كان هذا النور الذي ظهر وقت ولادته ﷺ قد اشتهر في قريش وكثر ذكره فيهم : .

وإلى ذلك أشارالعباس رضي الله عنه في شعره حيث قال :

وأنتَ لما ولدت أشرقت الأ
رض وضاءت بنورك الأُفُق

وظهور هذا النور عند ولادته ﷺ إشارةٌ إلى ما يجيء به من ذلك النور الذي يَهدي به العالَم ، ويُزيل به ظلماتِ الكفر ، قال الله تعالى : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يَهدي به الله مَن اتبعَ رضوانه سُبُل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه . . . ﴾ الآية .

وبذلك النور الذي جاء به من عند الله تعالى : نوَّر البصائر ، وأحيا القلوب الميتة ، وفتح الأعين العمياء ، والآذان الصماء .

(١) قال الزرقاني : ذكرها أبو عمر وغيره في الصحابة .

(٢) قال الزرقاني : وراه البيهقي والطبري وابن عبد البر ، وعزاه في (الفتح) إلى الطبراني ، وقال : شاهده حديث العرباض بن سارية ـ أي : المتقدم ـ . اهـ : ٤٢٦/٦

ومن العجائب التي ظهرت عند ولادته ﷺ إرهاصاً لنبوَّته :

ما أخرجه البيهقي وأبو نعيم ، عن حسان بن ثابت ـ شاعر المصطفى ﷺ قال :

(إني لغلامٌ ابن سبع سنين أو ثمانٍ [1] أعقِل ما رأيت وسمعت ، إذا يهودي يصرخ ذات غداة : يا معشرَ قريش ! هل ولد فيكم الليلة مولود ؟

قالوا : لا نعلم ،

قال : انظروا ، فإنه ولد في هذه الليلة نبيُّ هذه الأمّة . .) الحديث .

رواه الحاكم ، ورواه يعقوب بن سُفيان بإسنادٍ حسن كما قاله صاحب (الفتح) .

ومن عجائب ولادته ﷺ الدالة على نبوَّته :

اهتزاز إيوان كسرى وانصداعه وسقوط أربع عشرة من شُرفاته ، وبقاؤه على تلك الحالة إلى يومنا هذا ، كما قال الحافظ الزرقاني .

وانشق الإيوان لا لخللٍ في بنائه ، فقد كان بناؤه بالمدائن من العراق محكماً ، مبنياً بالآجر الكبار والجصِّ ، سمكه مائة ذراع في طول مثلها ، وقد أراد الخليفة الرشيد هدمه لما بلغه أن تحته مالاً عظيماً فعجز عن

(١) قال الزرقاني : فقد ذكروا أنه عاش مائة وعشرين سنة كأبيه وجده وأبي جده ، ومات سنة أربع وخمسين . اهـ .

هدمه ، وإنما أراد الله تعالى أن يكون ذلك آية باقية على وجه الدهر لنبيِّه ﷺ . اهـ .

وقد ذكر الحافظ ابن كثير في (البداية) فصلاً خاصاً فيما وقع من الآيات ، ليلة مولده ﷺ ، وذكر فيها :

ظهور النور معه ﷺ ، ونزوله على الأرض جاثياً ، رافعاً رأسه إلى السماء ، وما شوهد من النور في المنزل الذي ولد فيه ، ودنوّ النجوم منهم ، وانصداع إيوان كسرى ، وسقوط الشرفات ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان .

قال : وغير ذلك من الدلالات ـ ثم أورد الأخبار الواردة في ذلك من طرق متعددة .

كما أن الحافظ ابن حجر ذكر في (الفتح) جُمَلاً من علامات النبوة قبل المبعث ، ثم قال :

ومما ظهر من علامات نبوته ﷺ عند مولده ﷺ ، وذكر الأحاديث الواردة في ظهور النور .

ثم قال : وفي حديث مخزوم بن هانىء المخزومي عن أبيه ـ قال : وكان قد أتت عليه خمسون ومائة سنة ـ قال : لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ انكسر إيوان كسرى ، وسقطت منه أربع عشرة شرفة ، وخَمَدت نار فارس ، ولم تخمُد قبل ذلك بألف عام ، وغاضت بحيرة ساوة ، ورأى الموبذانَ إبلاً صعاباً تقود خيلاً عِراباً قد قطعت دجلة ، وانتشرت في بلادها ، فلما أصبح كسرى أفزعه ما وقع ـ أي :

من انصداع الإيوان وغيره ـ فسأل علماء أهل مملكته عن ذلك ؟ فأرسلوا إلى سطيح . . القصة .

وذكر ذلك أيضاً الحافظ القسطلاني ، وعزاه إلى البيهقي وأبي نعيم ، والخرائطي وابن عساكر وابن جرير ـ وإنما ذكرنا ذلك عن هؤلاء الحفاظ المحدثين ليكون حجة على أهل القلوب المريضة أو الزائغة ، وليزاد الموقنون يقيناً وقوة .

ومن الارهاصات والمقدِّمات لنبوته ﷺ التي وقعت قبل ولادته :

قصةُ أصحاب الفيل ، وكيف أرسل الله تعالى تلك الطير الأبابيل المتواصلة في إغاراتها ، الصائبة في رميها ، وإحكامها أهدافَها ، حتى إنها لم تخطىء واحداً منهم ، وكيف دمّرهم الله تعالى وكَبَتهم ـ وما ذاك إلا ليحفظ هذا البيت الذي هو قِبلة رسول الله ﷺ وأتباعه ، ومصّلاهم ومَحَجُّهم ، وقياماً لهم إلى يوم القيامة .

ومن أجل ذلك ذكر الله تعالى تلك القصة في القرآن الكريم ، النازل على رسول الله ﷺ مذكِّراً له بتلك النعمة الكبرى ، مُمْتَنّاً عليه بذلك الفضل ، أنه سبحانه تولّى بنفسه الدفاعَ عن هذا البيت ، الذي سيكون مصلّى رسول الله ومحجَّه ومعتمَره ، فقال سبحانه : ﴿ ألم ترَ كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ ﴾ السورة .

تاريخ مولده ﷺ : وكان مولده ﷺ في عام الفيل بعد الواقعة بخمسين يوماً ثاني عشرَ شهر ربيع الأول ، عند جمهور العلماء ، عند طلوع الفجر من يوم الإثنين ـ كما جاء في صحيح مسلم عن أبي قتادة في

حديث طويل وفيه : وسئل رسول الله ﷺ عن صوم يوم الإثنين ؟ فقال : « ذاك يوم ولدت فيه ، ويوم بُعثت فيه ـ أو أنزل عليَّ فيه . . » الحديث .

وفي (مسند) أحمد عن ابن عباس قال : ولد رسول الله ﷺ يوم الإثنين ، واستنبىء يوم الإثنين ، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الإثنين ، ودخل المدينة يوم الإثنين ، ورفع ﷺ الحجر ـ الأسود ووضعه في موضعه ـ يوم الإثنين . اهـ .

وذلك حين بَنَتْ قريش الكعبة ، واختصموا فيمن يرفع الحجر الأسود ، كما تقدم .

الابتهاج والاحتفال بيوم مولده ﷺ

إن حقاً على العاقل أن يفرح بيوم ميلاده ﷺ ، وأن يُسَرَّ ويبتهج بذلك اليوم الذي تدفّق فيه النور والهدى والعلم إلى هذا العالم أجمع ، لأنه ولد فيه رسول الرحمة للعالمين ، ونبي الهدى والنور للخلق أجمعين ، وإمامُ الأنبياء والمرسلين ، فأعظِمْ بذلك اليوم وأكرِم ، وأسعِد به وأنعِم .

وإن الاجتماع على قراءة قصة مولده ﷺ هو اجتماع على مجموعة رحَمات وبركات ، وخيرات ومبرّات ، وذلك لأن قصة المولد الشريف مشتملة على : تلاوة آيات من القرآن الكريم ، ثم ذكرِ إكرامِ الله تعالى وعنايته برسوله ﷺ ، وكيف تولاه الله وحفظه ، كما أنها تشتمل على ذكر

محاسن سيدنا محمد ﷺ الخَلْقية والخُلُقية ، كما أنها تشتمل على الصلوات والتسليمات على النبي ﷺ ، كما وأنها تشمل على القصائد والمدائح النبوية المحببة إلى سيدنا رسول الله ﷺ ، كما وأنها تشتمل على الدعوات والابتهالات إلى الله تعالى . . . .

وإن كل واحدة من هذه المشتمَلات ، هي مشروعة مطلوبة ، وقُربة محبوبة ، حثَّ الشارع عليها ورغَّب في أجرها وفضلها ، وعلى هذا جرى العلماء العاملون ، والأتقياء الصالحون .

كما قال الحافظ السخاوي : ولا زال أهل الإسلام في سائر الأقطار ، والمدن الكبار ، يحتفلون في شهر مولده ﷺ بعمل الولائم البديعة المشتمِلة على الأمور البهجة الرفيعة ، ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات ، ويُظهرون السرور ، ويزيدون في المبرّات ، ويعتنون بقراءة مولده الكريم ، ويظهر عليهم من بركاته كلُّ فضل عميم . اهـ من (السيرة النبوية) للإمام محمد بن يوسف الشامي [1] .

وقال أيضاً [2] : وقال الإمام الحافظ أبو الخير بن الجزري شيخ القراء رحمه الله تعالى : من خواصه [3] أنه أمان في ذلك العام ، وبُشرى عاجلة بنيل البغية والمرام .

---

(١) ا : ٤٣٩ وقد توفي سنة ٩٤٢هـ .

(٢) أي : الشامي صاحب السيرة .

(٣) أي : من خواص العناية بقراءة مولده الكريم ﷺ ، والاحتفال والابتهاج بشهر مولده ﷺ .

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في (تاريخه) : كان الملك المظفَّر أبو سعيد يعمل المولد الشريف في ربيع الأول ، ويحتفل به احتفالاً هائلاً ، وكان شهماً شجاعاً ، بطلاً عاقلاً عادلاً رحمه الله تعالى .

وقد صنف الشيخ أبو الخطاب بن دحية رحمه الله تعالى كتاباً له في المولد سمّاه : (التنوير في مولد البشير النذير ﷺ) فأجازه بألف دينار[1] .

وحكى سبط ابن الجوزي رحمه الله تعالى في (مرآة الزمان) عن بعض من حضر سماط المظفَّر في بعض الموالد ، بعدما عدَّدَ أصنافاً من اللحوم وأنواع الحلوى على شكل واسع جداً قال بعد ذلك : وكان يصرف على المولد ثلاثمائة ألف دينار . اهـ .

ونقل الإمام محمد بن يوسف الشامي في (سيرته) عن الشيخ أبي عبد الله ابن أبي محمد النعمان يقول : سمعت الشيخ أبا موسى الزَّرْهوني يقول : رأيت النبي ﷺ في النوم ، فذكرت له ما يقال في عمل الولائم في المولد .

فقال له ﷺ : « من فرح بنا فرحنا به » . اهـ .

وقال شيخ القراء الحافظ أبو الخير ابن الجزري رحمه الله تعالى :

قد رُئي أبو لهب بعد موته في النوم فقيل له : ما حالُك ؟

فقال : في النار إلا أنه يخفَّف عني كل ليلة اثنين ، وأمصُّ من بين

(١) انظر (السيرة) للشامي ، وانظر (المواهب وشرحها) .

أُصبعيَّ هاتين ، ماء بقدر هذا ـ وأشار لرأسي أصبعيه ـ وإن ذلك بإعتاقي لثُوَيْبة ، عندما بشرتني بولادة محمد ﷺ ، وبإرضاعها له .

فإذا كان أبو لهب الكافر الذي نزل القرآن بذمه ، جُوزي في النار[1] لفرحه ليلة مولد محمد ﷺ به ـ أي : بالمولد ـ فما حالُ المسلم الموّحد من أمة محمد ﷺ ببشره بمولده ، وبذل ما تصل إليه قدرته في محبته ؟ لعمري إنما يكون جزاؤه من الله الكريم ، أن يدخله بفضله جنة النعيم . اهـ[2] .

وقصة أبي لهب وإعتاقه ثويبة وما يترتب على ذلك : رواها البخاري والإسماعيلي وعبد الرزاق .

ففي (صحيح) البخاري : قال عروة : وثُويبة مولاة أبي لهب ، وكان أبو لهب أعتقها ، فأرضعت النبيَّ ﷺ ، فلما مات أبو لهب أُريه بعض أهله[3] بشرِّ حِيبةٍ[4] ، قال له : ماذا لقيت ؟

(١) أي : جازاه الله تعالى فخفف عنه العذاب ، وهو في النار ، لفرحه بمولد سيدنا محمد ﷺ .

(٢) انظر (السيرة) للإمام محمد بن يوسف الشامي ١ : ٤٤٤ وانظر (شرح) الزرقاني ١/١٣٩

(٣) وهو العباس رضي الله عنه ، كما دلت عليه بقية الروايات .

(٤) قال الزرقاني : حيبة : بحاء مهملة مكسورة ، وتحتية ساكنة ، وموحدة مفتوحة ـ أي : سوء الحال ، وأصلها : حوبة . قال : وذكر البغوي أنها بفتح الحاء ، وللمستملي بخاء معجمة مفتوحه ، أي : في حالة خائبة ، وقال ابن الجوزي : إنه تصحيف ، وروي بالجيم ، قال السيوطي : وهو تصحيف باتفاق . اهـ .

قال أبو لهب : لم ألقَ بعدكم ـ وفي رواية الإسماعيلي : لم ألق بعدكم رخاءً ـ وعند عبد الرزاق عن معمر ، عن الزهري : لم ألقَ بعدكم راحة ـ غير أني سُقيت في هذه ـ وأشار إلى النُقرة التي تحت إبهامه ، كما هو عند عبد الرزاق ـ وأشار إلى النقرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع في رواية الإسماعيلي ـ بِعتاقي ثويبة [1] ـ أي : سقيت ذلك بسبب إعتاقي ثويبة ـ .

وقال الحافظ في (الفتح) : وذكر السهيلي أن العباس رضي الله عنه قال : لما مات أبو لهب رأيته في منامي بعد حولٍ ، في شرِّ حالٍ ، فقال أبو لهب : ما لقيتُ بعدكم راحة ، إلّا أن العذاب يخفف عني كل يوم اثنين . قال :ـ أي : العباس ـ وذلك أن النبي ﷺ ولد يوم اثنين ، وكانت ثويبة بشَّرت أبا لهب بمولده ﷺ فأعتقها . اهـ .

عناية الله تعالى بالنبي ﷺ منذ صغره

إن عناية الله تعالى قد حَفَّتْ رسول الله ﷺ في جميع أطواره الخَلْقية ، وجميع تقلباته وأحواله منذ صغره .

فقد توفي والده عبد الله بعدما تمَّ له من حمله الشريف شهران ، على أشهر الأقوال .

وقيل : بعدما تمَّ له سبعة أشهر من الحمل .

وقيل : توفي والده وهو في المهد .

(١) انظر جميع ذلك في (صحيح البخاري) و (شرحه) لابن حجر .

فقيل : ابن شهرين ، وقيل : ابن سبعة أشهر ، وقيل : ابن تسعة أشهر ، والراجح المشهور هو القول الأول ـ يعني : أنه ﷺ توفي والده وهو حمل .

والحجة له ما جاء في (المستدرك) عن قيس بن مَخْرَمة قال : (توفي أبو النبي ﷺ وأمُّه حُبلى به) وقال الحاكم : على شرط مسلم وقد أقره الذهبي [1] .

فكان ﷺ مع أمه آمنة ، وهيَّأ الله تعالى له جده عبد المطلب يكفله ويقوم بحاجته وشأنه ، مع الحفاوة والتكريم .

فنشأ ﷺ في إيواء الله تعالى وكلاءته وحفظه ورعايته ، يُنبته الله تعالى نباتاً حسناً ، لما يريد به من كرامته ، ورفعة مكانته ﷺ بالنبوة والرسالة .

ولما بلغ ﷺ ست [2] سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب بالأبواء ، بين مكة والمدينة ، وقيل : بشعب أبي ذئب بالحجون ـ جبل بمعلاة مكة [3] ـ .

روى ابن سعد عن ابن عباس ، وعن الزهري ، وعن عاصم بن

(١) نقل ذلك الحافظ ابن كثير ، والإمام العسقلاني ، والحافظ الزرقاني ، وغيرهم .

(٢) على أرجح الأقوال ، وقيل : أربع سنين ، وقيل أكثر .

(٣) انظر (شرح المواهب) .

عمرو بن قتادة ، دخل حديث بعضهم في حديث بعض ، قالوا [1] : لما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين خرجتْ به أمه إلى أخواله بني عديِّ بن النجار بالمدينة تزورهم ، ومعه أم أيمن ، فنزلت به دار التبابعة ، فأقامت به عندهم شهراً ـ فكان ﷺ يذكر أموراً كانت في مُقامه ذلك .

ونظر ﷺ إلى الدار وهو بالمدينة بعد الهجرة ، فقال : « ها هنا نزلت بي أمي ، وأحسنتُ العَوْم ـ أي : السباحة ـ في بئر بني عديِّ بن النجار ، وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون إليَّ ، قالت أم أيمن : فسمعت أحدهم يقول : هو نبيُّ هذه الأمة ، وهذه ـ المدينة ـ دار هجرته ، فوعَيْتُ ذلك كلَّه من كلامهم » ثم رجعتْ به أمه إلى مكة ، فلما كانت بالأبواء توفيت . اهـ .

وفي رواية أبي نعيم ، قال ﷺ : « فنظر إليَّ رجل من اليهود ، فقال : يا غلام ما اسمكَ ؟ قلت : أحمد .

ونظر إلى ظهري فأسمعُه يقول : هذا نبيُّ هذه الأمَّة ، ثم راح إلى إخوانه من اليهود فأخبرهم ، فأخبروا أمي ، فخافتْ عليَّ ، فخرجنا من المدينة . . » [2] الحديث .

فكانت أم أيمن ـ واسمها بركة الحبشية ـ هي حاضنةً للنبي ﷺ بعد وفاة أمه ، وهي التي أعتقها أبو المصطفى ، وقيل : بل هو ﷺ أعتقها ،

(١) قال الزرقاني : أرسله الثلاثة إلا أن مرسل ابن عباس في حكم الموصول ، لأنه مرسل صحابي . اهـ .

(٢) انظر (البداية) ٢ : ٢٧٩ ، و (المواهب وشرحها) .

وقد أسلمت ، وهاجرت الهجرتين ، ومناقبها كثيرة رضي الله عنها .

قال ابن أم حنتمة : وكان ﷺ يقول : « أمُّ أيمن : أمي بعد أمي » .

وقال الحافظ في (الإصابة) : قال ابن سعد : أخبرنا أبو أمامة ، عن جرير بن حازم ، قال سمعت عثمان بن القاسم يحدِّث ، قال : لما هاجرتْ أم أيمن ـ إلى المدينة ـ أمست بالمنصَرَف دون الرَّوْحاء ـ أي : أقبل عليها المساء وهي في موضع بين الحرمين ـ فعطشت وليس معها ماء وهي صائمة ، فأجهدها العطش ، فدُلِّي عليها من السماء دلو من ماء برِشاء أبيض ، فأخذتْه فشربته حتى رويت ، فكانت تقول : ما أصابني بعد ذلك عطش ، ولقد تعرّضتُ للصوم في الهواجر ، فما عطشت بعد تلك الشربة .

وفي رواية ابن السكن : خرجت أم أيمن مهاجرةً من مكة إلى المدينة ، وهي ماشية ليس معها زاد ، قالت : فلما غابت الشمس ، إذا إناء معلَّق عند رأسي ، قالت : ولقد كنت بعد ذلك أصوم في اليوم الحار ، ثم أطوف في الشمس كي أعطش ، فما عطشت بعد . اهـ .

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب ـ بعد وفاة أمه ـ فكان يوضَع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك ، حتى يخرج إليهم ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له ، فكان رسول الله ﷺ يأتي حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخّروه عنه ، فيقول لهم عبد المطلب : دعوا ابني ، فو الله إن له

لشأناً ، ثم يُجلسه معه على فراشه ، ويمسح ظهره بيده ، وَيسرُّه ما يراه يصنع ﷺ . [1] اهـ .

فلما حضرت عبدَالمطلب الوفاةُ أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله ﷺ وحياطته ، وتوفي عبد المطلب وقد بلغ ﷺ ثمان سنين .

فكان أبو طالب يحوط رسول الله ﷺ ويكرمه ، وقد أسند الواقدي وغيره عن ابن عباس قال : كان أبو طالب يُحبّ رسول الله ﷺ حباً شديداً لا يحبه ولده ، وكان لا ينام إلا إلى جنبه ، ويخرج فيخرج معه ، وصُبَّ به أبو طالب صَبابة لم يصب مثلها بشيء قط .

قال : وكان أبو طالب يخصُّه بالطعام ، وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا ، فكان ـ أبو طالب ـ إذا أراد أن يغذِّيهم قال ـ أبو طالب ـ: كما أنتم ـ أي : لا تأكلوا ـ حتى يأتي ولدي محمد ، فيأتي رسول الله ﷺ فيأكل معهم ، فكانوا يُفضِلون من طعامهم .

وإذا كان لبناً شرب أولَهم ثم يشربون فيروون كلُّهم من قعب ـ إناءٍ ـ واحد ، فيقول أبو طالب : إنك ـ يا محمد ـ لمبارك .

وروى أبو نعيم وابن إسحاق وغيرهما ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان بنو أبي طالب يُصبحون رُمْصاً شُعْثاً ، ويصبح محمد ﷺ صَقيلاً ، دَهيناً ، كحيلاً ، وكان أبو طالب يحبه حباً شديداً . اهـ[2] .

(١) انظر (البداية) ٢ : ٢٨١

(٢) انظر جميع ذلك في (البداية) ٢ : ٢٨٢ و (شرح المواهب) ١ : ١٨٩

وهكذا نشأ ﷺ في بيت عزٍ وشرفٍ ، عزيزاً مكرماً ، معظَّماً ، محفوفاً بعناية الله تعالى ، ومطيَّباً بعنايته سبحانه .

وقد ذكر الله تعالى لنبيه ﷺ نعمته عليه ، وإيواءه ، وعنايته به منذ صغره في جملة صنوف الإفضال والإكرام ، الذي امتنّ الله تعالى به عليه .

فقال سبحانه :

﴿ والضحى . والليل إذا سَجَى . ما ودَّعكَ ربك وما قَلَى : وللآخرةُ خيرٌ لك من الأولى . ولَسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدْكَ يتيماً فآوى ؟ وَوجدك ضالاً فهدى ؟ ووجدك عائلاً فأغنى ؟ فأما اليتيمَ فلا تقهر . وأما السائلَ فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدِّث ﴾ .

فإنه سبحانه ذكر في هذه السورة وجوهاً من عنايته برسوله ﷺ وتولِّيه إياه في جميع أموره ، وتعهّده إياه ، وحسن تربيته ، ومواصلة بِرّه ﷺ وإكرامه ، أبدَ الآباد بلا انقطاع ولا نفاد .

فأقسم سبحانه بالضحى الذي يسطع فيه نور الشمس ، وينتشر فيه ضياؤها وبهاؤها ، وبالليل إذا سجى ، أي : إذا أظلم وامتدَّ سواده ، وفي ذلك تنبيه لكل ذي بصر إلى الفرق الكبير بينهما ، أي : بين رونق الضحى وضيائه ، وبين ظلام الليل وسواده ، فهذا هو القَسَم ، والمقسَمُ عليه : هو عناية الله تعالى برسوله ﷺ وإكرامه إياه ، وإفضاله عليه ، وذلك كله يتضمَّن تصديقه سبحانه وتأييده ، وشهادته أن سيدنا محمداً هو رسول الله حقاً .

ووجه المناسبة بين القسَم والمقسَم عليه : هو تنبيه العقلاء إلى الفرق الكبير بين ما كان عليه الناس في الجاهلية الجهلاء ، والضلالة الظلماء ، وبين النور الساطع والضياء اللامع ، الذي جاء به الرسول الكريم ﷺ ، وأنّ ذلك لايخفى على كل ذي عقل وروية ، كما لا يخفى على ذوي الأبصار الحسيّة الفرقُ بين الضحى وبين الليل إذا سجى .

وكما أن رحمته سبحانه اقتضت أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً ، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم ، فكذلك اقتضت رحمته وحكمته أن لا يترك عباده في ظلمة الجهل وتيه الغيّ والضلال ، بل يهديهم بأنوار النبوة والرسالة المحمدية ، إلى ما فيه صلاح دنياهم وأخراهم ، وإلى ما فيه سعادتهم في الأولى والآخرة .

قال تعالى : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يَهدي به الله مَن اتبع رضوانه سُبُل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ .

ثم قال سبحانه : ﴿ ما ودَّعك ربك وما قلى ﴾ فنفى سبحانه أن يكون ودّع نبيه وحبيبه ، أي : تركه ، ونفى أن يكون قلاه ، أي : أبغضه ، فإنه سبحانه كيف يتركه وقد عناه بعنايته الخاصة منذ بدء الأمر ، وكيف يَقليه ـ أي : كيف يُبغضه ـ وقد اتخذه حبيبه فهو ﷺ غيرُ متروك ولا مَقليّ ، بل هو في عناية الله تعالى ، كما قال:﴿ فإنك بأعيُننا ﴾ وهو ﷺ حبيب الله الأكرم ، كما قال ﷺ فيما رواه الدارمي وأحمد والترمذي : ﴿ ألا وأنا حبيبُ الله ولا فخرَ ﴾ .

ثم قال سبحانه : ﴿ وللآخرةُ خيرٌ لك من الأولى ﴾ وفي هذا تعميم لجميع أحواله ﷺ ، وأنه في الترقي الدائم ، وأن كل حالة يرقى لها ، هي خير له من الحال التي قبلها أبداً واستمراراً ، كما أن الدار الآخرة خير له ﷺ مما قبلها .

ثم قال سبحانه : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ وفي هذا وعد محتَّم من الله تعالى ، بما تقرُّ به عينه ﷺ ، وتفرح به نفسه ، أن يُعطيَه حتى يرضى ، وفي ذلك من الفضل الكبير ، والخير الكثير ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، **ويدخل في جملة ذلك العطاءِ الإلٰـهي** : كثرةُ أتباعه فوق أتباع كل نبي ، ودخول الناس في دينه أفواجاً ، ورفع ذكره ، وإعلاء كلمته ، والنصر على أعدائه بإلْقاء الرعب في قلوبهم ، وإظهار دينه على الأديان ، وظهور سلطانه ، وسطوع برهانه ، وإعطاؤه الحوض والكوثر والمقام المحمود ، وما في ذلك من الشفاعة العظمى والشفاعات الخاصة ، ومقام الوسيلة والفضيلة ، إلى ما هنالك مما أعدَّ الله تعالى له في الدار الآخرة من المقامات العالية ، والمرتبة الزلفى ، مما لا يحيط بعلمه إلا الله تعالى .

ثم ذكر سبحانه عنايته بحبيبه ﷺ منذ صغر سنِّه ، وتعهُّده إياه ، ورعايته له ـ تنبيهاً إلى أن الله تعالى الذي تولاَّه بعنايته منذ صغره ، وأتحفه بنعمه سبحانه ، سوف يواصل إليه برّه وإكرامه ، ويُديم عليه فضله وإنعامه ، ويُحقِّق له ما وعده به ، ويحيطه بعنايته ويكلأه برعايته أبد الأبد ، فقال سبحانه : ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ ؟ وذلك أن أباه عبد الله توفي وهو ﷺ حمل في بطن أمه ، وقيل بعد ولادته ﷺ ، ثم

توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ستُّ سنين ، ثم جعله سبحانه في كفالة جده عبد المطلب ، إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين ، فكفله عمه أبو طالب ، ثم لم يزل ﷺ يتربّى وينشأ في عناية من الله تعالى ، مُحاطاً محفوفاً محفوظاً موقَّراً ، إلى أن أكرمه الله تعالى بالنبوة والرسالة ﷺ .

﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ إعلم أن الضلال قد يُراد منه ضلال المعصية ، وهو الضلال عن الحق والخير والصلاح ، وقد يطلق على غير ذلك من المعاني المختلفة ، حسب المناسبة التي جاء فيها ، كما سيتضح معنا قريباً إن شاء الله تعالى .

فأما الضلال عن الحق والصلاح فهو غير مراد في هذه الآية قطعاً ، لأن الله تعالى نفاه عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ والنجم إذا هوى . ما ضَلَّ صاحبكم وما غوى ﴾ فنفى سبحانه عن رسول الله ﷺ الضلالة التي هي ضدُّ الهدى ، والغواية التي هي ضد الرشاد ، ونزّهه عن ذلك بعد التأكيد بالقسم ، وذلك يتضمن شهادة الله تعالى لنبيه ﷺ بالهدى والرشاد في علمه وعمله ، وقاله وحاله ﷺ ، فهو ﷺ ليس بضالٍّ ، بل هو على هدى وعلمٍ بالحق ، وليس بغاوٍ بل هو راشد في علمه وقصده ، لم يلتفت لشيء سوى الهدى والحق .

فإنَّ الضالَّ هو الجاهل الذي يمشي على غير علم ، فلا يهتدي السبيل ، والغاوي هو الذي علم الحق فكتمه وقصد غيره .

فالهدى والرشاد هما أصل الكمال في الإنسان .

ولقد امتن الله تعالى على خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأنه أتاه رُشْده من قبل النبوة ؛ قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ، وكنا به عالمين ﴾ فإذا كان الخليل كذلك ، فالحبيب الأكرم أولى وأجدر بذلك ، فإن الله تعالى آتاه رشده من قبل النبوة ، ولذا نبه الله تعالى قومه الذين عاندوه فقال لهم : ﴿ ما ضلَّ صاحبكم ﴾ أي : محمد ﷺ الذي تربى بينكم ، ونشأ فيكم ، فأنتم أعرف به من غيركم ، لم تعثروا له على ضلالة ولا غواية بل أموره كلها سَداد ورَشاد .

فليس الضلال الوارد في قوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ ليس هو الضلال عن الحق ، والميل إلى الفساد والشر ، فإنه منفي عنه ﷺ نصّاً في قوله تعالى : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ ـ ولذا قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم تكن له ضلالة معصية .

إذاً : **فقد يقول القائل** : فما المراد بقوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ ؟

قلنا في الجواب : قد ذكر علماء السلف وجوهاً من المعاني لقوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ .

الوجه الأول : إن معنى قوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ أي : وجدك غير عالم بالنبوة وعلومها ، والكتاب المبين وما حواه ، فهداك لذلك ، وعلَّمك جميع ما هنالك ، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ الر تلك آيات الكتاب المبين . نحن نقصُّ عليك أحسن القَصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإنْ كنتَ من قبله لمن

الغافلين ﴾ فليست هذه الغفلة غفلةً مطلقة ، ولا غفلةَ ضلالة أو غواية ، وإنما هي عدم دراية بتفاصيل الكتاب وعلومه ، قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنتَ تدري ما الكتابُ ولا الإيمان . . ﴾ الآية ـ أي : ما كنت تدري بتفاصيل الإيمان العملي وواجباته ، حتى علمناك يا رسول الله ﷺ ، قال تعالى : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب الحكمة وعلَّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ .

الوجه الثاني : ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما[1] من أنه ﷺ لما كان صغيراً عند جده عبد المطلب ، ضلَّ في شِعاب مكة ، فرآه أبو جهل منصرفاً من أغنامه ، فردَّه إلى جده عبد المطلب ، وهو متعلق بأستار الكعبة يتضرع إلى الله تعالى أن يردّ إليه محمداً ﷺ[2] .

ولذا قال بعضهم : إن إرجاعه ﷺ إلى جدِّه على يد أبي جهل ؛ فرعون هذه الأمة ، يُشبه إرجاع موسى إلى أمه على يد فرعون .

وقيل : ضلَّ مرة أخرى في شِعاب مكة ، فطلبوه فلم يجدوه ، فطاف عبد المطلب سبعاً ، وتضرَّع إلى الله تعالى ، فسمعوا منادياً : يا معشر الناس لا تضِجُّوا ، فإن لمحمدٍ ربّاً لا يخذله ولا يضيعه ، وإن

(١) رواه عنه البيهقي وابن عساكر وابن إسحاق ، كما في (شرح) الزرقاني وغيره .

(٢) انظر هذا القول في (تفسير) الرازي ، و (تفسير) ابن كثير ، و (المواهب) للقسطلاني ، وغيرها .

محمداً بوادي تهامة ، عند شجرة السَّمُر ، فسار عبد المطلب إليه فوجده قائماً تحت الشجرة .

فيكون هذا من باب قولهم : ضلَّ فلان في طريقه ، إذا سلك غير طريقه المقصودة ، ومنه قوله ﷺ في بيان حقوق الطريق : « وأن تغيثوا الملهوف ، وأن تهدوا الضالَّ . . » الحديث .

وهذا القول حول الآية يتناسب مع سياق الآية التي قبلها ، وهي قوله تعالى : ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ حيث إنه سبحانه يعدِّد نعمَه على رسوله ﷺ ، وعنايته به منذ حداثة سنه إلى ما وراء ذلك .

الوجه الثالث : أن قوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ يشير إلى الحالة التي مرت عليه ﷺ قبل البعثة ، وهي همُّه بالسَّمَر ، كما يسمُر الشباب ، فحفظه الله تعالى من ذلك وألقى عليه النوم[1] .

فعن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كلُّ ذلك يحول الله بيني وبين ذلك ، ثم ما هممت بعدها بشيء حتى أكرمني الله برسالته » .

قال الحافظ الهيثمي : رواه البزار ، ورجاله ثقات . اهـ وسيأتي هذا الحديث قريباً مفصلاً في بحث : حفظه ﷺ قبل النبوة من الباطل .

الوجه الرابع : أن معنى قوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾

(١) وهذا القول عزاه القسطلاني إلى أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه ، وذكره القاضي عياض في (الشفا) وانظره في (شرح) القاري والخفاجي .

أي : وجدك هائماً في محبته تعالى ، فهداك إلى نبوَّته ورسالته ، فهو ضلال الهيام والاستغراق في المحبة الإلهية .

وقد أخبر الله تعالى عن أولاد يعقوب على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، حين قالوا لأبيهم : ﴿ قالوا : تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾ فإنهم أرادوا بضلاله : هُيامَه في يوسف ، وشغفه به ، ولم يريدوا بذلك ضلال الإثم والمعصية قطعاً ، لأن السياق ينفي ذلك ، ولأنهم لو أرادوا بذلك ضلال المعصية أو الإثم لكفروا ، لأنه طعن في يعقوب ـ الذي هو نبيُّ الله ورسوله ـ بالفسق والمعصية وذلك يوجب الكفر .

وهناك أجوبة أخرى عن معنى آية : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ مذكورة في التفاسير ، و (شرح المواهب) و (شرح الشفا) .

وأما قوله تعالى : ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ فالمعنى : وجدك ذا عَيْلة ـ أي : إقلال ـ أو ذا عِيالٍ ، فأغناك ربك عمن سواه ، وفتح عليك أبواب الرزق والخير الكثير .

قال الإمام القسطلاني في (المواهب) : قال الحليمي في (شُعَب الإيمان) : من تعظيم النبي ﷺ أن لا يوصفَ بما هو عند الناس من أوصاف الضَّعَة ـ أي : النقص ـ فلا يقال : كان فقيراً . اهـ .

لأنه يوهم النقص ، وأنه فقير قهراً لا اختياراً .

قال القسطلاني : وقد ذكر القاضي عياض في (الشفا) ، ونقله عنه الشيخ تقي الدين السبكي في كتاب : (السيف المسلول) ، أن فقهاء

الأندلس أفتوا بقتل حاتم المتفقِّه الطليطلي وصَلبه ، لاستخفافه بحقِّ النبي ﷺ وتسميته إياه أثناء مناظرته باليتيم ، وزعمه أن زهده ﷺ لم يكن قصداً ، ولو قدر على الطيبات أكلها . اهـ .

قال الشارح الزرقاني : وكلُّ واحدة من ـ هذه ـ الثلاث كافية في القتل بلا استتابة عند مالك رحمه الله تعالى . اهـ .

ونقل القسطلاني ، عن الشيخ تقي الدين السبكي ، أنه كان يقول : لم يكن النبي ﷺ فقيراً من المال قطُّ ولا حاله حال فقير ، بل كان ﷺ أغنى الناس ، فقد كفى أمر دنياه في نفسه وعياله .

وكان الشيخ السبكي رحمه الله يقول في الحديث الذي رواه ابن ماجه والترمذي وغيرهما : « اللهم أحيني مسكيناً ، وتوفَّني مسكيناً ، واحشُرني في زمرة المساكين » :

المراد به استكانة القلب .

قال الزرقاني : أي : تواضع القلب وانكساره إلى الله تعالى ، لا المسكنة التي هي أن لا يجد ما يقع موقعاً من كفايته .

وكان يشدِّد النكير على من يعتقد خلاف ذلك . اهـ .

قال الزرقاني : وهو حسن نفيس . وحاصله أن المنفي سؤال مسكنة ترجع إلى القلة وعدم الكفاية . اهـ .

وقد سبق إلى ذلك الإمام البيهقي حيث قال : إنه ﷺ لم يسأل مسكنة ترجع إلى القلة ، بل إلى الإخبات والتواضع .

قال العلامة الزرقاني : ونحوه قول الغزالي رضي الله عنه :

استعاذتُه ﷺ من الفقر ، لا تنافي المسكنة ، لأن الفقر مشترك بين معنيين :

الأول : الافتقار إلى الله تعالى ، والاعتراف بالذلِّ والمسكنة له .

والثاني : فقر الاضطرار ، وهو فَقْد المال المضطَّر إليه ، كجائعٍ فقد الخبز ، فهذا الذي استعاذ منه ﷺ ، والأول ـ أي : الافتقار إلى الله تعالى ـ هو الذي سأله ﷺ[1] . اهـ .

قال عبد الله : وكيف يكون ﷺ فقيراً فقرَ اضطرارٍ وفقدَ مالٍ ، والحال قد عرض الله تعالى عليه أن يجعل له بطحاء مكة ذهباً فأبى ذلك ؟! وقد خيَّره بين أن يكون نبياً ملِكاً ، أو نبياً عبداً ، فقال : « بل نبياً عبداً » .

فعن أبي أمامة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « عَرَض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاءَ مكة ذهباً .

قلت : لا يا ربِّ ، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً ، فإذا جِعتُ تضرَّعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعتُ شكرتك وحمدتك » .

رواه الترمذي وقال حديث حسن ، ورواه الإمام أحمد .

وتقدم في بحث تواضعه ﷺ حديث الطبراني بإسناد حسن ، عن ابن عباس وفيه : (فأتاه إسرافيل فقال : إن الله قد سمع ما ذكرتَ فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض ، وأمرني أن أعرِض عليك أسيِّرُ معك جبال تِهامة زمرُّداً وياقوتاً ، وذهباً وفضةً ، فإنْ رضيتَ فعلتُ ـ فإنْ

(١) انظر جميع تلك النقول في (المواهب وشرحها) للزرقاني .

شئتَ نبياً ملكاً ، وإن شئت نبياً عبداً ، فأومأ إليه جبريل : أن تواضع ، فقال ﷺ : « بل نبياً عبداً » قالها ثلاثاً) .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « أُتيتُ بمقاليد الدنيا على فرسٍ أبلق ، جاءني به جبريل » رواه أحمد برجال الصحيح ، وصححه ابن حبان .

فقد ترفع رسول الله ﷺ بنفسه عن حُطام الدنيا وأموالها ، وذهبها وفضتها ، ولم يركن إلى نعيمها ، ولا إلى ترف عيشها ، مع تيسُّر ذلك له ، بل كانت همته أشرفَ من ذلك وأسمى ، وأمجدَ وأعلى .

قال عبد الله بن مسعود : نام رسول الله ﷺ على حصير ، فقام وقد أثَّر في جنبه فقلنا : يا رسول الله لو اتخذنا لك وِطاء ـ أي : فراشاً وطيئاً ليِّناً ـ .

فقال ﷺ : « مالي وللدنيا ؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرةٍ ، ثمَّ راح وتركها » .

رواه ابن ماجه والترمذي وقال حسن صحيح .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (دخلتْ عليَّ امرأة من الأنصار ، فرأت فراش رسول الله ﷺ قطيفة مثنية ، فبعثت إليَّ بفراش حشوه صوف ، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ فقال : « ما هذا يا عائشة ؟ » .

قالت : يا رسول الله فلانة الأنصارية ، دخلت فرأت فراشك ، فذهبت فبعثتْ إليَّ بهذا .

فقال ﷺ : « رُدِّيه يا عائشة ، فو الله لو شئتُ لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة ») رواه البيهقي .

ورواه أبو الشيخ بلفظ : (أن امرأة قالت : دخلتُ على عائشة رضي الله عنها فمسِستُ فراش رسول الله ﷺ فإذا هو خشن ، فقلت : يا أم المؤمنين إن عندي فراشاً أحسن من هذا وألين . .) الحديث .

فليس فقره ﷺ فقر اضطرار ، وإنما هو افتقار واختيار[1] .

وليس غناه غنى جمع ومنع واستئثار ، بل غناه ﷺ فياض بالعطاء والجود والإيثار . . فكان يأتيه السائلون ، ويقصده المحتاجون ، فيعطيهم ما يعطيهم ، ثم يأتيه السائلون ، فيعطيهم ما يعطيهم ، ثم يسألونه فيعطيهم ، حتى لا يبقى عنده شيء من المال ، بل ولا من الطعام قوت إنسان ، فيطوي هو ﷺ وأهله وهم جياع ! .

وكان ﷺ يقول لهم : « ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم . . » الحديث ـ كما تقدم في كرمه ﷺ .

ثم إن الله تعالى علَّم نبيه ﷺ أن يقابل تلك النعم السابق ذكرها في الآيات ، بما يليق بها من الحقوق والاعتراف والشكر لله تعالى ، فقال الله تعالى : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدِّث ﴾ .

وفي هذه الآيات مع التي قبلها لف ونشر .

(١) يعني أن ذلك افتقار إلى الله تعالى واستكانة له ، واختيار لعظيم الأجر ، ورفعة المقام عند الله تعالى .

فأما اليتيم فلا تذلّه ولا تحقره ، بل أكرمه وبِرَّه .

وأما السائل ـ أيْ : سائل بغيته وحاجته ، علماً كان أو مالاً ، فلا تزجره ، ولكن أكرمه بما سأله ، أو رُدَّه بقول حسن جميل .

﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ لأن في التحدث بها شكراً لله تعالى الذي أنعم بها .

ومن ثَم كان رسول الله ﷺ يذكر نعم الله تعالى عليه ، ويتحدث بما أعطاه من المقامات ، وما خصه به من الخصوصيات ، شكراً غير فخر .

فمن ذلك قوله ﷺ : « أنا سيدُ ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » أي : يقول ذلك من باب الشكر لا من باب الكبر .

وقوله ﷺ : « ألا وأنا حبيب الله ولا فخر ، آدم فمن دونه تحت لوائي ولا فخر » .

وقوله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة كنت أنا إمامَ النبيين ، وخطيبَهم ، وصاحب شفاعتهم غير فخر » .

إلى ما هنالك مما حدث به ﷺ .

فهذه السورة تدل على وجوهٍ من العنايات الإلهية برسوله ﷺ ، وأنه سبحانه قد تولى رسوله ﷺ وتعهَّده في جميع أطواره ، وسائر أحواله .

* * * *

حفظ الله تعالى لرسوله سيدنا محمد ﷺ من مساوىء الجاهلية منذ حداثة سنه

لقد حفظ الله تعالى رسوله الكريم في منشئه ومرباه ، فشبَّ سيدنا محمد ﷺ على أشرف الأحوال ، وأكرم الخصال ، يكلؤه الله تعالى ويحوطه من أدناس الجاهلية ومعايبها ، ومن غلظتها وخشوناتها ، ويُعدُّه الله تعالى ويُمدُّه ، لما يريده سبحانه من إكرامه بالرسالة ، حتى إنه ﷺ بلغ أنْ كان رجلاً ذا شأن عظيم ، ومقام كريم ، أفضلَ قومه مروءةً ، وأحسنهم خُلقاً ، وأكرمهم حسباً ، وأحسنهم جواراً ، وأعظمهم حلماً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش والأخلاق الدنيئة ، تنزهاً وتكرماً ، حتى سمَّاه قومه : الصادق الأمين ـ وكانوا يُقرُّون له بذلك ، ويعترفون له في مواقفهم الخاصة والعامة .

روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت : ﴿ وأنذِرْ عشيرتك الأقربين ﴾ صَعِد النبي ﷺ على الصفا ، فجعل ينادي : يا بني فِهر ، يا بني عدي ، لبطون قريش ، حتى اجتمعوا ـ كلهم ـ فقال ﷺ : « أرأيتَكم لو أخبرتُكم أن خيلاً بالوادي تُريد أن تُغير عليكم ، أكنتم مصدقيَّ ؟ » .

قالوا : نعم ، ما جرَّبنا عليك إلا صدقاً . . الحديث .

فلقد أعلنوها أنهم ما جربوا عليه ﷺ إلا الصدق منذ صغره !

ومن ذلك ما رواه ابن إسحاق ، أن النضر بن الحارث قال :

يا معشر قريش ! إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعدُ ، قد كان محمد فيكم غلاماً حَدَثاً ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صُدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به .

قلتم : ساحر !! لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونَفْثهم ، وعَقْدهم .

وقلتم : كاهن !! لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم ، وسمعنا سجعهم .

وقلتم : شاعر !! لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشِّعر وسمعنا أصنافه كلها ، وهَزجَه ورَجَزَه .

وقلتم : مجنون !! لا والله ما هو مجنون ، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ولا تخليطه .

يا معشر قريش فانظروا في شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

قال ابن إسحاق : وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش ، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ [1] .

ومن ذلك ما رواه ابن إسحاق وغيره ، عن المِسْور بن مَخرمة أنه قال : قلت لأبي جهل ـ وكان خالي ـ : يا خال هل كنتم تتهمون محمداً

(١) انظر (سيرة) ابن هشام ١ : ٣٢

بالكذب قبل أن يقول مقالته ؟ ـ أي : قبل أن يقول : إني نبي الله تعالى ـ .

فقال أبو جهل : والله يا ابن أختي ، لقد كان محمد وهو شاب يُدعى فينا : الأمين ، فلما وَخَطه الشيب ـ أي : بلغ الأربعين وقارب المشيب ـ لم يكن يكذب .

قلت : يا خال ! فلمَ لا تتبعونه ؟

فقال : يا ابن أختي ! تنازعْنا نحن وبنو هاشم الشرف ، فأطعموا وأطعمنا ، وسقَوْا وسقينا ، وأجاروا وأجرنا ، فلما تجاثينا على الرُّكَب وكنا ـ في المكارم والمفاخر ـ كفرسَيْ رِهان ـ أي : متساويين ـ قالوا ـ أي : بنو هاشم ـ: منا نبي ! فمتى نأتيهم بهذه ؟!

أي : من أين نأتي بنبي ، حتى نكون مثل بني هاشم في الفضائل .

ولما جدَّدت قريش بناء الكعبة ، وتنازعوا في رفع الحجر الأسود ، فتركوا الحكم لأول داخل من باب بني شيبة ، فإذا برسول الله ﷺ يدخل عليهم ، فقالوا كلهم : هذا الأمين وكلّنا نقبله .

وتقدم الحديث في ذلك في البحث حول أرجحية عقله الشريف ﷺ .

فكان ﷺ متصفاً منذ حداثة سِنه بالصدق والأمانة ، والعفة والحصانة ، بعيداً كل البعد عن الكذب والخيانة ، والمساوىء والأدناس .

وكان يُبعد عن الأصنام والأوثان ، وعن تعظيمها ، وعن الحلف بها ، مجانباً لما عليه المشركون .

روى الإمام أحمد عن عروة بن الزبير قال : حدثني جار لخديجة بنت خويلد قال : سمعت النبي ﷺ يقول لخديجة : « أي خديجة ! والله لا أعبد اللاتَ أبداً ، والله لا أعبد العُزَّى أبداً »[1] .

وروى البزار وغيره أنه ﷺ قال : « لستُ من دَدٍ ولا الدَّدُ مني » .

وفي رواية : « ولست من الباطل ولا الباطل مني »[2] .

وعن زيد حارثة قال : طِفْتُ مع رسول الله ﷺ ذاتَ يوم ، فمسِسْتُ بعض الأصنام ، فقال لي رسول الله ﷺ « لا تمسَّها . . » الحديث[3] .

وعن علي بن أبي طالب كرَّم الله تعالى وجهه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كلتاهما عصمني الله عز وجل منهما .

قلت لفتىً كان معي من قريش ، بأعلى مكة في غنم يرعاها : أبصرْ لي غنمي ، حتى أسمُر هذه الليلة بمكة ، كما يسمر الفتيان .

قال : نعم .

---

(١) قال الحافظ الهيثمي : رجاله رجال الصحيح .

(٢) وتقدم الكلام على هذا الحديث .

(٣) قال الحافظ الهيثمي : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ، وأورده الحافظ ابن كثير في (البداية) معزواً للبيهقي .

فخرجت ، فلما جئتُ أدنى دار من دور مكة ، سمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير .

قلت : ما هذا ؟

قالوا : فُلان يتزوج فلانة .

فجلست أنظر ، وضرب الله على أذني ـ أي : فنمت ـ فوالله ما أيقظني إلا مسُّ الشمس ، فرجعت إلى صاحبي ، فقال : ما فعلت ؟

فقلت : ما فعلت شيئاً ، ثم أخبرته بالذي رأيت .

ثم قلت له ليلة أخرى : أبصر لي غنمي ، حتى أسمُر ، ففعل ، فلما جئت مكة ، سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة ، فسألت ؟ فقيل : تزوج فلان فلانة ، فجلست أنظر ، وضرب الله على أذنيَّ ـ أي : فنمت ـ فما أيقظني إلا مسُّ الشمس ، فرجعت إلى صاحبي ، فقال : ما فعلت ؟ فقلت : لا شيء ، ثم أخبرته الخبر ، فوالله ما هممتُ ولا عُدتُ بعدهما لشيء من ذلك ، حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته » .

وفي رواية : « برسالته »[1] .

(١) انظر ص٥١٥ من (موارد الظمآن) ، تحت عنوان : باب في عصمته ﷺ . وانظره في (البداية) لابن كثير ٢ : ٣٨٧ معزواً للبيهقي ، وانظره في (تاريخ) الذهبي ١ : ٥٠ وأورده في (مجمع الزوائد) تحت عنوان : باب في عصمته ﷺ من الباطل وقال : رواه البزار ورجاله ثقات . اهـ .

سفره ﷺ إلى الشام

لما بلغ رسول الله ﷺ اثنتي عشرة سنة ، خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام ، حتى بلغ بُصْرى ـ مدينة في حَوران ـ فرآه بَحيرا الراهب ، وكان عالماً بالنصرانية ، فعرف النبيَّ ﷺ بصفاته التي وافقت ما أخبرت به الكتب السماوية السابقة ، فقال بحيرا : هذا سيد المرسلين ، هذا سيد العالمين .

وقد ذكرنا الحديث الوارد في هذه السفرة ، في بحث خاتم النبوة المتقدم من رواية الترمذي .

وعند ابن إسحاق : أن بحيرا قال للنبي ﷺ : يا غلام أسألك بحقّ اللات والعُزَّى إلا ما أخبرتني ـ أي : إلا أخبرتني ـ عما أسألك عنه .

فقال النبي ﷺ : « لا تسألني بهما شيئاً ، فوالله ما أبغضتُ شيئاً قط بغضهما » .

فقال له بحيرا : فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه .

فقال له ﷺ : « سلني عما بدا لك » .

فجعل يسأله عن أشياء من حاله ونومه وهيئته وأموره ، ويخبره ﷺ ، فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته .

قال في (الشفا) : وإنما سأله بحق اللات والعزى اختباراً . اهـ .

أي لتتبين له صفاته ﷺ المذكورة في الكتب السماوية السابقة ، ومن جملتها بغضه للأوثان والأصنام .

ثم إنه ﷺ خرج أيضاً إلى الشام مرةً ثانية ، في تجارةٍ للسيدة خديجة ، وله خمس وعشرون سنة .

وذلك ـ كما قال الواقدي وابن السكن وغيرهما ـ أن السيدة خديجة كانت تاجرةً ذاتَ شرفٍ ومالٍ كثير ، وتجارةٍ تبعث بها إلى الشام ، فيكون عِيرها ـ في الكمية والعدد ـ كعامةِ عير قريش .

وكانت تستأجر الرجال وتدفع إليهم مضاربةً ، وكانت قريش قوماً تجاراً ـ ومن لم يكن تاجراً فليس عنده شيء .

فقال أبو طالب للنبي ﷺ : يا ابن أخي ! هذهِ عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتَّجرون في مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتَها لفضلَّتك على غيرك ، لما بلغها عنك من طهارتك ، وإنْ كنتُ أكره أن تأتي الشام ، وأخاف عليك من يهودها ، ولكن لا نجد من ذلك بدَّاً .

فقال ﷺ : « لعلها تُرسل إليَّ في ذلك » ـ وهذا مظهر من مظاهر عزة نفسه ﷺ وعلوّ همته وكرامته الأبية .

فقال أبو طالب : إني أخاف أن تولّي غيرك !

فبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له ، وكان بلغها قبل ذاك صدق حديثه ﷺ ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ،

فقالت : ما علمتُ أنه يريد هذا .

وأرسلتْ إليه وقالت : دعاني إلى البعثة إليكَ ، ما بلغني من صدق حديثك ، وعظم أمانتك ، وكرم أخلاقك ، وأنا أعطيك ضِعف ما أعطي رجالاً من قومك .

فذكر النبي ﷺ ذاك لعمه فقال : إن هذا لرزقٌ ساقه الله إليك .

فخرج ﷺ ومعه ميسرة غلام ـ أي : مملوك ـ خديجة ، وسار حتى بلغ بُصرى ، فنزل تحت ظل شجرة في سوق بصرى ، قريباً من صومعة نَسْطُورا الراهب ، فاطلع الراهب إلى ميسرة ، وكان يعرفه .

فقال نسطورا : يا ميسرة مَنْ هذا الذي تحت هذه الشجرة ؟

فقال : رجل من قريش من أهل الحرم .

فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبيّ ـ وفي رواية : بعد عيسى ـ .

ثم قال لميسرة : أفي عينيه حمرة ؟

فقال ميسرة : نعم .

فقال : هو هو ؛ وهو آخر الأنبياء ، ويا ليت أني أدركه حين يؤمر بالخروج ـ فوَعَى ذلك ميسرة .

ثم حضر ﷺ سوق بُصرى ، فباع سلعته التي خرج بها واشترى ؛ وكان بينه وبين رجل اختلاف في سلعته .

فقال الرجل : احلفْ باللات والعزى .

فقال ﷺ : « ما حلفتُ بهما قطُّ » .

فقال الرجل : القول قولك .

ثم قال لميسرة ـ وَخَلا به ـ : هذا نبي ـ إنه لهو الذي تجده أحبارنا منعوتاً في كتبهم ـ فوعى ذلك ميسرة .

وانصرف أهل العير جميعاً .

وكان ميسرة يرى في الهاجرة ـ الظهيرة ـ مَلَكين يُظلّانه في الشمس .

ولما رجعوا إلى مكة في ساعة الظهيرة وخديجة في عليَّة ـ غرفة عالية ـ لها ، رأت رسول الله ﷺ وهو على البعير ، وملكان يظلّان عليه ، فأرتْه نساءها ، فعجبن لذلك .

ودخل عليها ﷺ فأخبرها بما ربحوا ، فسُرَّت .

فلما دخل عليها ميسرة ، أخبرته بما رأت .

فقال ميسرة : قد رأيت هذا منذ خروجنا من الشام ، وأخبرها بقول نسطورا ، وقول الرجل الذي خالفه في البيع .

وقدم ﷺ بتجارتها فربحتْ ضِعف ما كانت تربح ، وأضعفت له ما كانت سَمَّته له[1] .

زواجه ﷺ بخديجة بنت خويلد بن أسد رضي الله عنها

كانت السيدة خديجة رضي الله عنها تُدعى في الجاهلية والإسلام (**الطاهرة**) لشدة عفافها وصيانتها ، وكانت برّة نقيّة ذاتَ عقلٍ واسعٍ ، وذكاء لامع ، وجمالٍ وكمالٍ ، وحَسَب ومال ، وقد عَرَضَت السيدة خديجة رضي الله عنها نفسها على رسول الله ﷺ وله من العمر خمس وعشرون سنة عند أكثر العلماء ، ولها من العمر أربعون سنةً .

(١) انظر (المواهب وشرحه) ، معزواً إلى أبي نعيم والواقدي وابن السكن . وانظر (سيرة) ابن هشام و (الروض الأُنُف) .

فارسلت إليه نفيسة بنت منية .

كما روى ابن سعد من طريق الواقدي ، عن نفيسة بنت منية قالت : كانت خديجة امرأة حازمةً جَلْدة شريفة ، مع ما أراد الله تعالى بها من الكرامة والخير ، وهي يومئذ أوسط قريش نسباً ، وأعظمهم شرفاً ، وأكثرهم مالاً ، وكلُّ قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك ، وقد طلبوها وبذلوا لها الأموال .

قالت نفيسة: فأرسلتني دَسيساً ـ أي خفيةً ـ إلى محمد ﷺ بعد أن رجع في عِيرها من الشام ، بالتجارات الرابحة .

فقلت : يا محمد ما يمنعك أن تتزوج ؟

فقال : « ما بيدي ما أتزوج به » .

قلت : فإن كُفيتَ ذلك ، ودُعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ؛ ألا تجيب ؟

قال : « فمن هي ؟ » .

قلتُ : خديجة .

قالت نفيسة : فذهبتُ فأخبرت خديجة فأرسلت إليه : أنِ ائتِ اهـ .

وهكذا تعرض السيدة خديجة نفسها على رسول الله ﷺ بواسطة نفيسة لتعلم هل يرضى بها .

فلما علمت منه الرضا عرضتْ نفسها وكلَّمته بلا واسطة .

كما روى ابن إسحاق ، أن خديجة رضي الله عنها عرضت نفسها على النبي ﷺ فقالت : يا ابن عمّ إني رغبتُ فيك ، لقرابتك ووساطتك في قومك ، وأمانتك وحسن خلقك ، وصدق حديثك .

وسبب عرض نفسها على الرسول الله ﷺ هو ما حدثها به غلامها ميسرة الذي ذهب معه في سفره للشام ، وما شاهده من الآيات ، وكذلك أيضاً ما شاهدتْه هي رضي الله عنها من الآيات ؛ حين أقبل رسول الله ﷺ من السفر ، وهي في غرفة مشرفة .

وأيضاً من الأسباب التي حملتها على أن تعرض نفسها : ما ذكره ابن إسحاق في (المبتدأ) قال : كان لنساء قريش عيد يجتمعْنَ فيه ، فاجتمعن يوماً فيه ، فجاءهنَّ يهودي فقال : يا معشر قريش إنه يوشك فيكن نبيّ ، فأيّتكنَّ استطاعت أن تكون فراشاً له فلتفعل .

فحصَبْنَه ـ أي : رمينه بالحصباء والحجارة الصغيرة ـ وأغلَظْنَ له بالقول .

وأغْضتْ خديجة ـ أي : سكتت ـ على قوله ، ولم تعرض فيما عرض فيه النساء ـ أي : لم تشترك مع أولئك النساء فيما تعرَّضنَ له من مقابلة اليهودي بالإغلاظ ـ ووقر ذلك في نفسها ؛ فلما أخبرها ميسرة بما رآه من الآيات ، وما رأته هي ، قالت : إنْ كان ما قال اليهودي حقاً فما ذاك ـ النبيُّ ـ إلا هذا . اهـ[1] .

(١) انظر جميع ذلك في (المواهب وشرحها) للزرقاني ١ : ٢٠٠ وانظر بعضه في (سيرة) ابن هشام .

ثم إن رسول الله ﷺ ذكر ذلك لأعمامه ، فأقرُّوا له ذلك ، ورضوها زوجةً له ﷺ .

خطبتُها من أهلها : خرج النبي ﷺ ومعه عمه أبو طالب[1] وعمه حمزة ، حتى دخلوا على أبي خديجة : خويلدِ بن أسد ، وحضر المجلسَ رؤساءُ مضر ، فخطب فيهم أبو طالب وقال :

الحمد لله الذي جعلنا من ذريَّة إبراهيم ، وزَرْع إسماعيل وضِئْضىء[2] معدّ .

وجعلنا حَضنَة بيته[3] ، وسُوّاس حرمه[4] .

وجعل لنا بيتاً محجوجاً ، وحرماً آمناً ، وجعلنا الحكّام على الناس .

ثم إن ابن أخي هذا محمدَ بنَ عبد الله ، لا يُوزَن برجل إلا رَجَح به شرفاً ونُبْلاً ، وفضلاً وعقلاً ، فإنْ كان في المال قِل : فإن المال ظل زائل أو حائل ، وعارية مسترجَعَة ، ومحمد بين مَنْ قد عرفتُم قرابته ، وقد خطب إليكم راغباً كريمتكم خديجة ، وقد بذل لها من الصداق ما حكم عاجله وآجله اثنتا عشرة أُوقيَّة ذهباً ونَشّاً ـ أي : نصفاً[5] ـ .

(١) كما نقله السهيلي ، وعند ابن إسحاق أن الذاهب للخطبة هو حمزة .
قال في (النور) : فلعلهما خرجا مع النبي ﷺ ، والذي خطب خطبة النكاح هو أبو طالب ، لأنه أسن من حمزة . اهـ من (شرح) الزرقاني .
(٢) الضئضىء : هو الأصل .
(٣) حضنة البيت : الكافلون له ، القائمون بخدمته .
(٤) سواس حرمه : هم المتولون أمر الحرم .
(٥) وقال المحب الطبري : إن المصطفى ﷺ أصدق خديجة عشرين بكرة ، =

وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم . اهـ .

فزوَّجها أبوها ، وقيل زوَّجها عمها عمرو بن أسد ، وقيل أخوها عمرو بن خويلد .

فولدت له ﷺ جميع أولاده الكرام ، إلا إبراهيم فإنه من ماريةَ القِبطية .

أولاده الكرام :

وأولاده الكرام عليه وعليهم الصلاة والسلام : قد اختُلِف في عددهم ، والأصح ـ كما قال القسطلاني وغيره ـ أنهم سبعة :

ثلاثة ذكور : القاسم ، وعبد الله ويُلقَّب بالطيب والطاهر[1] ، وإبراهيم .

وأربع بنات : السيدة زينب وهي أكبرهنَّ ، والسيدة رُقَيَّة ، والسيدة أمُّ كلثوم ، والسيدة فاطمة الزهراء البتول ـ على أبيهن وعليهن الصلاة والسلام .

وكلهن أدركن الإسلام ، واجتمعن معه في المدينة بعد الهجرة .

= أي : ناقة فتية ، قال الزرقاني : ولاتضاد بين هذا وبين ما يقال أبو طالب أصدقها ـ أي بما ذكره في خطبة النكاح ـ لجواز أنه ﷺ زاد في صداقها ، فكان الكل صداقاً . اهـ .

(١) وقيل : إن هناك ولداً له ﷺ يقال له الطيب والطاهر ، وهو غير ولده عبد الله ، وقيل : بل إن الطيب ولد آخر غير الولد الملقب بالطاهر .

والسيدة زينب أكبر بناته ﷺ والخلاف فيها وفي القاسم : أيُّهما وُلد أولاً .

والسيدة فاطمة الزهراء أحبُّ أهله إليه .

فقد روى الترمذي وحسنَّه ، والحاكم ، عن أسامة أن النبي ﷺ قال : « أحبّ أهلي إليّ فاطمة » .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : ما رأيت أحداً أشبهَ سَمتاً ودَلًّا ، وهَدْياً وحديثاً برسول الله ﷺ في قيامها وقعودها ، من فاطمة بنت رسول الله ﷺ .

قالت عائشة رضي الله عنها : وكانت فاطمة رضي الله عنها إذا دخلت على رسول الله ﷺ قام إليها ، فقبّلها وأجلسها في مجلسه .

وكان النبي ﷺ إذا دخل عليها قامتْ له فقبَّلته ، وأجلسته في مجلسها .

فلما مرض رسول الله ﷺ أتتْ فاطمة فأكبّت عليه ، فقبّلته ثم رفعتْ رأسها فبكت ، ثم أكبت عليه ، ثم رفعت رأسها فضحكت .

فلما توفي رسول الله ﷺ قلتُ لها : رأيتُ حين أكببتِ على النبي ﷺ ورفعتِ رأسك فبكيتِ ، ثم أكببتِ عليه فرفعتِ رأسكِ فضحكتِ ، ما حملك على ذلك ؟

فقالت : أخبرني أنه ﷺ ميِّت من وجعه هذا فبكيتُ ، ثم أخبرني أني أسرع أهله لحوقاً به ؛ فذلك حين ضحكتُ .

أخرجه الترمذي وأبو داود والنسائي وقال الترمذي : حسن غريب[1] .

وروى الإمام أحمد عن ثوبان رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا سافر : آخرُ عهده إتيان فاطمة ، وأوَّلُ مَنْ يدخل عليه إذا قدم ـ من سفره ـ فاطمة رضي الله عنها .

وروى الحافظ أبو عمر أن النبي ﷺ كان إذا قدم من غزوٍ أو سفرٍ بدأ بالمسجد فصلَّى فيه ركعتين ، ثم أتى فاطمة ، ثم أتى أزواجه .

وقد بشرها رسول الله ﷺ أنها سيدة نساء أهل الجنة .

وفي رواية : سيِّدة نساء العالمين .

كما جاء في (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها قالت : (أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشيةُ رسول الله ﷺ فقال : « مرحباً بابنتي » ثم أجلسها عن يمينه ، ثم أسرَّ إليها حديثاً ؛ فبكت ، ثم أسرَّ إليها حديثاً ؛ فضحكت .

فقلتُ : ما رأيتُ كاليوم أقربَ فرحاً من حزن ؟

قالت عائشة : فسألتُها عمَّا قال ﷺ ؟

فقالت : ما كنتُ لأفشي على رسول ﷺ سرَّه .

فلما قُبض ﷺ سألتُها ، فأخبرتني أنه قال : « إن جبريل كان يُعارضني بالقرآن كلَّ سنةٍ مرةً ، وأنه عارضني العامَ مرتين ، وما أُراه إلا

(١) انظر (شرح المرقاة على المشكاة) .

قد حضر أجلي ، وإنك أوَّلُ أهل بيتي لحوقاً بي ، ونعم السلفُ أنا لكِ » .

قلت : فبكيتُ .

فقال ﷺ : « ألا ترضَيْنَ أن تكوني سيدةَ نساء العالمين » ؟ .

وفي رواية لهما : « سيدة نساء أهل الجنة » .

وعند أحمد : « ألا ترضينَ أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة أو نساء المؤمنين » ؟ .

قالت : فضحكتُ لذلك) .

وروى النسائي والحاكم بسند جيد ، عن حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « هذا ملَك من الملائكة استأذن ربَّه ليسلِّم عليَّ ، ويبشِّرني أن حسناً وحسيناً سيدا شباب أهل الجنة ، وأمَّهما سيِّدة نساء أهل الجنة »[1] .

بعثته ﷺ وبدء نبوَّته

إن الله تعالى بعث سيدنا محمداً ﷺ رسولاً للعالمين ، على تمام أربعين سنة من عمره الشريف ، كما جاء ذلك في (الصحيحين) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (بُعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة ، فمكث بمكة ثلاثَ عشْرة سنة يوحى إليه ، ثم أُمر بالهجرة ، فهاجر عشر سنين ، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة) وعلى ذلك الجمهور .

(١) انظر (شرح الزرقاني) ٣ : ٢٠٥

وقال الإمام السُّهيلي : هو الصحيح عند أهل السِّيَر والعلم بالأثر .

وقال الإمام النووي : هو الصواب . اهـ .

وتمام الأربعين إنما هو في شهر ربيع الأول ، وكان ذلك يوم الإثنين ؛ كما روى مسلم عن أبي قتادة أن النبي ﷺ سئل عن صوم يوم الإثنين ؟ فقال ﷺ : « ذلك يوم وُلدتُ فيه ، ويوم بُعثت فيه » .

وقال بعض العلماء : كان ذلك في شهر رمضان ، وذلك لأن بدء نزول القرآن كان في شهر رمضان ، قال الله تعالى : ﴿ شهرُ رمضان الذي أُنزِل فيه القرآن . . ﴾ الآية .

وكان ذلك في ليلة القدر من شهر مضان ، كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ فيكون بدء نبوته ﷺ على تمام أربعين سنة وستةِ أشهر .

وقد جمع المحققون بين القولين ـ كما ذكره الزرقاني وغيره ـ بأنه ﷺ نبِّىء بالرؤيا ـ أي : بدأ الوحي إليه ﷺ عن طريق الرؤيا ـ في شهر ربيع الأول على تمام أربعين سنة ، ثم أتاه جبريل عليه السلام في رمضان .

قال الحافظ الزرقاني : وحمل عليه بعضهم ـ حديث ـ « الرؤيا جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوة » لأن مدة الوحي كانت ثلاثاً وعشرين سنة ، فيها ستة أشهر منه ، وذلك جزء من ستة وأربعين . اهـ .

وقد روى الشيخان ـ واللفظ للبخاري ـ عن عائشة رضي الله عنها ، أنها قالت : (أوّلُ ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحي : الرؤيا الصادقةُ في النوم .

وفي رواية لهما : الرؤيا الصالحة[1] ؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءتْ مثلَ فلقِ الصبح .

ثم حُبِّب إليه[2] الخلاء ، وكان يخلو بغار حِراء ، فيتحنَّث فيه[3] ـ وهو التعبُّد ـ الليالِيَ ذواتِ العدد[4] قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزوّدُ

---

(١) قال الحافظ الزرقاني : الرؤيا الصادقة : هي التي لا كذب فيها ، أو لا تحتاج لتعبير ، أو هي ما يقع بعينه ـ أي : كما رؤيت ـ أو ما يعبر في المنام اهـ .
وأما الرؤيا الصالحة : فهي أخص من الصادقة ، وهي ما تأتي بالبشرى ـ كما في (شرح) القسطلاني على البخاري .

(٢) أي : ثم إن الله تعالى حبب إليه الخلاء ـ أي : الخلوة ـ قال الخطابي : وذلك لأن الخلوة فراغ القلب ، وهي معينة على التفكر ، وبها ينقطع الإنسان عن مألوفات البشر ، ويجتمع قلبه ، ويجمع همه . اهـ .
وفي قولها : (ثم حبب إليه الخلاء) دليل على أن حبه للخلوة إنما هو بتحبيب من الله تعالى ، وليس ذلك عن أمر نفساني ، بل عن وحي إلهامي ، كما نبه على ذلك في (الفتح) .

(٣) التحنث : هو البعد عن الحنث ، وهو الإثم الذي كان عليه المشركون ، وذلك بالتعبد ، لأن التعبد سبب لإزالة الإثم .

(٤) هذا العدد المبهم وضحته رواية (الصحيحين) عن جابر : أنه ﷺ قال : « جاورت بحراء شهراً » ؛ وفي رواية ابن إسحاق عينت ذلك الشهر الذي كان يخلو فيه ﷺ ، وهو أنه شهر رمضان .
وقد ذكر ابن إسحاق أنه ﷺ كان يخرج إلى حراء في كل عام شهراً ، وذلك الشهر هو رمضان .

لذلك ، ثم يرجِع إلى خديجة فيتزودُ لمثلها [1] ، حتى جاءهُ الحق [2] وهو في غار حراء .

فجاءه الملك فقال له : اقرأ [3] .

قال : « ما أنا بقارىء [4] » ـ قال : « فأخذني فغطَّني ـ وفي رواية

(١) قال الزرقاني : فكان ﷺ يتزود لبعض ليالي الشهر ، فإذا نفد الزاد رجع إلى أهله ، فيتزود قدر ذلك .

قال : وفيه أن الانقطاع الدائم عن الأهل ليس من السنة ، لأنه ﷺ لم ينقطع بالغار بالكلية ، بل كان يرجع إلى أهله ، لضروراتهم ، ثم يرجع لتحنثه .

(٢) أي : الأمر الحق ، وهو الوحي ، وسمي حقاً : لمجيئه من عند الله .

(٣) فقال له الملك وهو جبريل اتفاقاً : اقرأ .

قال الحافظ الزرقاني : هذا الأمر لمجرد التنبيه والتيقظ لما سيلقي عليه ـ أي : ليتوجه إلى ما سيلقي عليه ثم يقرأ ـ أو على بابه من الطلب ـ أي : طلب منه القراءة ـ قال : فهو دليل على تكليف مالا يطاق في الحال ، وإن قدر عليه بعد . اهـ .

(٤) جاء في رواية « قلت » وفي رواية « فقلت : ما أنا بقارىء » ، قال الحافظ في (الفتح) : (ما) فيه ـ أي : في قوله :« ما أنا بقارىء » ـ نافية ، إذ لو كانت استفهامية لم يصلح دخولها على الباء ، وإن حكي عن الأخفش جوازه ، فهو شاذ ، والباء ـ في : بقارىء ـ زائدة لتأكيد النفي ، أي : ما أحسن القراءة فلما قال ذلك ثلاثاً قيل له : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ ـ أي : لا تقرؤه بقوتك ولا بمعرفتك ، لكن بحول ربك وإعانته ، فهو يعلمك كما خلقك وكما نزع عنك علق الدم ، ومضمر الشيطان في الصغر ، وعلم أمتك حتى صارت تكتب بالقلم بعد أن كانت أمية ـ ذكره السهيلي . اهـ .

قال الزرقاني : وقيل : (ما) استفهامية ، وضعفه عياض وابن قرقول بدخول الباء في خبرها ، وهي لا تدخل على ما الاستفهامية . =

الطبراني : فضمَّني [1] ـ حتى بلغ مني الجَهد ، ثم أرسلني .

فقال : اقرأ .

قلت : ما أنا بقارىء ـ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني .

فقال : اقرأ .

قلت : ما أنا بقارىء ـ فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني .

فقال : ﴿ اقرأ باسمِ ربكَ الذي خلق . خلق الإنسان من عَلَق . اقرأ وربُّك الأكرمُ . الذي علَّم بالقلم . علَّم الإنسانَ مالم يعلم ﴾» .

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجُف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : « زمِّلوني زمِّلوني » فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوْع ، فقال

= قال : وأجيب بأن رواية أبي الأسود ، عن عروة : « كيف أقرأ » ؟ وابن إسحاق : عن عبيد بن عمير : « ماذا أقرأ » ؟ ـ دلتا على أنها استفهامية ، وقد جوز الأخفش دخول الباء على الخبر المثبت ، وجزم به ابن مالك في ـ قولك : ـ بحسبك زيد ، فجعل الخبر حسبك ، والباء زائدة . اهـ .

(١) ومعنى غطني : ضمني .

وهذه الضمات فيها إفاضات وإفراغات أسرار وأنوار إلَهية ، وعلوم ومعارف ربانية ، نزل بها جبريل عليه السلام من لدن حكيم عليم ، على وجه يعم النفس والقلب والروح .

وقد قال ابن عباس : ضمني رسول الله ﷺ إلى صدره الشريف ﷺ وقال : « اللهم علمه الكتاب » وبذلك فتح على ابن عباس وأفيض عليه .

لخديجة ـ وأخبرها الخبر ـ : « لقد خشيتُ على نفسي »[1] فقالت له خديجة : كلاّ ـ والله ـ ما يُخزيك الله أبداً ، إنك لتصِلُ الرحم ، وتصدُق الحديثَ ، وتحمِل الكلّ[2] ، وتَقْري الضيفَ ، وتُعين على نوائب الحق[3] .

فانطلقتْ به خديجة حتى أتت به ورقةَ بن نوفل بنِ أسد ، ابن عمّ خديجة ، وكان أمرأً تنصَّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب .

ـ وفي رواية لمسلم : فكان يكتب الكتاب العربي .

وفي رواية : ويكتب من الإنجيل بالعربية[4] ـ وكان شيخاً كبيراً قد

(١) أي : لقد خشيت على نفسي أن لا يتحمل جسمي ثقل الوحي ، وذلك لأن للوحي ثقلاً لا تقدر له الأقوياء ، إلا من أمده الله تعالى بمدد النبوة وقوتها ، وخصوصاً الوحي المحمدي ، فإنه من أعلى المراتب ـ قال الله تعالى : ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ وروى البيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت : (إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على ناقته فتضرب بجرانها من ثقل ما يوحي إليه . وقد نزل عليه الوحي يوماً وهو على ناقته ، فقعدت به الناقة) .

(٢) أي : الضعيف الذي لا يستقل بأمره .

(٣) أي : تعين على دفع الحوادث والكوارث الجارية على الخلق ، بتقدير الحق ، وقيل : النوائب جمع نائبة ، وهي الحادثة ، وإنما أضيفت إلى الحق ، لأن النائبة قد تكون في الخير وقد تكون في الشر اهـ (مرقاة) .

(٤) قال الحافظ : والجميع صحيح ، لأن ورقة تعلم اللسان العبراني ، والكتابة العبرانية ، فكان يكتب الكتاب العبراني ، كما كان يكتب الكتاب العربي ، لتمكنه من الكتابين واللسانين . اهـ .

عمي .

فقالت له خديجة : يا ابنَ عم اسمعْ من ابن أخيك .

فقال له ورقة : يا ابن أخي ! ماذا ترى ؟

فأخبره ﷺ خبرَ ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس[1] الذي نزَّل الله على موسى ، يا ليتني فيها جَذَعاً ! ليتني أكونُ حيّاً إذ يخرجك قومك !

فقال رسول الله ﷺ : « أوَ مخرجيَّ هم ؟ » .

قال : نعم ، لم يأتِ رجل قطُّ بمثل ما جئت به إلاّ عودي ، وإنْ يُدركني يومك أنصرْك نصراً مؤزَّراً .

ثم لن ينشَب ـ أي : لم يلبث ـ ورقة أنْ توفي .

وفتر الوحي) أي : انقطع الوحي مدة من الزمن ، مقدرة بسنتين ونصف ، وقيل ثلاث سنوات .

ثم أنزل الله تعالى عليه بعد فترة الوحي أوائل سورة المدثر .

كما جاء في (الصحيحين) عن جابر رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « جاورتُ[2] بحراء

(١) الناموس : صاحب السر ـ والمراد به جبريل عليه السلام ، لأنه صاحب سر وحي الله تعالى إلى رسله وأنبيائه ، ويسمى الناموس الأكبر .

(٢) أي : أقام فيه ـ والفرق بين الجوار والاعتكاف ـ كما قال ابن عبد البر وغيره ـ : أن الاعتكاف لا يكون إلا داخل المسجد ؛ وأما الجوار فإنه قد يكون خارجه ، وذلك لم يسمه ﷺ اعتكافاً ، لأن حراء ليس من المسجد .

شهراً[1] فلما قضيت جِواري هبطت ، فناديت ، فنظرت عن يميني فلم أرَ شيئاً ، ونظرتُ عن شمالي فلم أرَ شيئاً ، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً ـ أي : جبريل ـ فلم أثبت له » .

وفي رواية « فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء ، جالس على كرسيّ بين السماء والأرض ، فرعبت منه ـ فرجعت » .

وفي رواية :« فجئت ـ إلى أهلي ، فقلت : زمّلوني زملوني ـ فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها المدثِّر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرُّجزَ فاهجر ﴾ » .

فقام ﷺ ينذر الناس ويدعوهم إلى الله تعالى .

وقد جرت عادة الله تعالى مع حبيبه الأكرم ﷺ أنه يناديه في القرآن الكريم بالصفات الكريمة ، التي تؤذن بالرتبة العظيمة :

كقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً . . ﴾ الآية .

وقوله تعالى ﴿ يا أيها الرسول لا يَحزُنْك الذين يسارعون في الكفر . . ﴾ الآية .

كما أنه سبحانه يناديه بالصفات المشتقة من الحال التي هو عليها ، تلطيفاً وتأنيساً له ﷺ :

(١) أي : في مدة الفترة ، غير الشهر الذي نزل عليه فيه جبريل بأوائل سورة اقرأ ؛ ففي مرسل عبيد بن عمير عند البيهقي ، أنه كان يجاور في كل سنة شهراً ، وهو رمضان . اهـ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ياأيها المزمِّل ﴾ وقوله : ﴿ يا أيها المدثر ﴾ ـ وفي ذلك إعلان بفضل هذا الرسول الكريم على سائر العالمين ﷺ .

ولم ينادِه باسمه ، كما نادى الأنبياء والرسل بأسمائهم ، حيث قال سبحانه : ﴿ قال يا آدم أَنبئهم بأسمائهم . . ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ قلنا يا نوح اهبِطْ بسلامٍ منا . . ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ يا إبراهيمُ أعرِضْ عن هذا . . ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ يا موسى لا تَخفْ . . ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليَّ . . ﴾ الآية .

حفظ الله تعالى رسوله ﷺ من شر القرين الجني

روى الإمام مسلم وأحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجنِّ ، وقرينه من الملائكة » .

قالوا : وإيَّاك يا رسول الله ؟

قال : « وإيَّايَ ، إلَّا أن الله تعالى أعانني عليه فأسلمَ ، فلا يأمرني إلا بخير » .

وقوله ﷺ « فأسلم » روي بضم الميم ، والمعنى : فأسلم أنا من فتنته وكيده ـ قال الحافظ الزرقاني : وصحح الخطابي رواية الرفع ، ورجَّح عياض والنووي الفتح ، لقوله ﷺ:« فلا يأمرني إلا بخير » قال : وقال

الدَّميري : وهو المختار .

والإجماع على عصمته ﷺ من الشيطان .

وإنما المراد تحذير غيره من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه ، فأعلمنا النبي ﷺ أن القرين ـ الجني ـ معنا ، لنحترز منه بحسب الإمكان . اهـ .

فهو ﷺ معصوم من الوساوس والتزيينات الشيطانية ، فلا يتكلم إلا بالحق ، ولا ينطق إلا بالصواب ، ولا يعمل إلا بما يرضاه الله تعالى .

حفظ الله تعالى رسوله ﷺ من الخطأ والباطل وتسديده بالحق والصواب في جميع أحواله

إن الله تعالى قد أيَّد رسوله سيدنا محمداً ﷺ بالحق ، وسدَّده في أقواله وأفعاله في جميع أحواله ، في حال رضاه وغضبه ، وحال جِدِّه ومزاحه ، وحال صحته ومرضه .

فكان ﷺ إذا غضب لا يخرجه غضبه عن الحق والصواب ، بل هو على الحق في حال غضبه ، كما هو على الحق في رضاه ، بخلاف غيره من الأمة ، فإن الغضب قد يخرجهم عن الاعتدال والنطق بالصواب ، ولذلك نبهنا رسول الله إلى أنه لا يَعتريه ما يعتري غيرَه في حال الغضب ، بل هو على كمال الاعتدال ، وصواب الأقوال والأفعال ، في سائر الأحوال .

روى أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه ، فنهتني قريش وقالوا : أتكتب

كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ بَشرٌ يتكلم في الغضب والرضا ؟ ! فأمسكت عن الكتابة ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ .

فأومأ بأصبعه إلى فيه ـ أي : فمه ـ فقال : « اكتبْ ، فو الذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق » .

وعند الدرامي : « اكتب ، فو الذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق » .

نعم ما خرج من فمه ﷺ وما يخرج منه إلا حق ! .

كما أن مزاحه ﷺ حق وليس فيه باطل ؛ ولذا قال ﷺ : « إني لأمزح ، ولا أقول إلا حقاً » .

وقال : « لستُ من دَدٍ ـ أي : لست من أهل اللهو واللعب ـ ولا الدَّدُ مني ، ولست من الباطل ولا الباطل مني » الحديث كما تقدم في مزاحه ﷺ .

فليس للشيطان عليه تأثير فيخرجه عن الحق والصواب ، بل هو معصوم من ذلك كما تقدم .

وليس للغضب ونحوه عليه تأثير يخرجه عن كمال الاعتدال ، وعن الحق والصواب في الأقوال والأعمال ، ولذا قال : « اكتب كل شيء تسمعه مني ، فوالله ما يخرج منه ـ أي : من فمه ـ إلا حق » .

وليس له من نفسه الطيبة الطاهرة الزكية النقية إلا داعيةُ الخير والحق والصواب والصدق ، ولذا قال : « لست من ددٍ ولا الدد مني ، ولست من الباطل ولا الباطل مني » .

فكان سيدنا رسول الله ﷺ صائبَ الرأي ، سديدَ النظر ، حفظه الله من الخطأ في جميع قضاياه وآرائه ، وكيف لا يكون كذلك وقد أعطاه الله تعالى العقل الواسع الأكمل ، والعلم الفائض الأفضل ، ودقَّة النظر ، وقوَّة الفكر ، وكمال التبصُّر في جميع ميادين الأمور! .

وقد شهدت له بذلك المشاهد ورجالها ، وأثبتت له ذلك الوقائع وقوادها ، حتى إنه ﷺ كان يرى الرأي في الأمور ، فإذا خالف بعضُ الصحابة رأيه ، عاد الأمر عليهم بالوبال والشر .

وخذ مثالاً لذلك قضية يوم أحد :

فإنه ﷺ عيَّن خمسين من الرماة ، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير ، وأمرهم أن يقيموا في موضعٍ عيَّنه لهم ، وقال لهم : « احْمُوا ظهورنا ، فإنْ رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا ، وإن رأيتمونا نغنم فلا تَشْرَكونا » .

وفي رواية قال لهم : « إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » اهـ كما في السِّيَر .

وفي (مسند) الإمام أحمد قال لهم ﷺ : « إن رأيتمونا تخطَفنا الطير فلا تبرحوا ، حتى أرسل إليكم » .

فلما هَزم المسلمون المشركين قال أصحاب عبد الله : الغنيمةَ ! ظهر أصحابكم فما تنتظرون ؟

فقال لهم عبد الله : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟

فقالوا : إنا والله لنأتينَّ فلنصيبنَّ من الغنيمة .

فإذا بالمشركين يأتون من الثغرة وراء المسلمين التي كانت محمية بالرماة ، وحملوا على المسلمين فانهزم كثير منهم ـ وكان ذلك بسبب مخالفة أمر النبي ﷺ .

وقد تقدم في بحث أرجحيَّة عقله الشريفِ ﷺ أنواع من الوجوه الدالَّة على سداد نظره ، وصواب رأيه في مواقفه الخاصة والعامة ، وفي مواقفه مع أعدائه ، وفي جميع المعارك والحروب .

وقد ذهب الجمهور من العلماء والمحققين إلى أن النبي ﷺ معصوم عن الخطأ بعصمة الله تعالى له ، واستدلوا على ذلك بوجوه من الأدلة المفصلة في مطوَّلات كتب التفسير وأصول الفقه .

قالوا : وإن نسبة الخطأ إليه ﷺ في أمرٍ ما ، تحتاج إلى دليل يثبت ذلك ، ولم يرد نص من آية أو حديث تثبت تخطئته ﷺ في أمر من الأمور ؛ بل ولم يرد عل لسان الصحابة نسبة الخطأ إلى النبي ﷺ أصلاً .

وذهب جماعة من العلماء إلى أنه يجوز الخطأ عليه ﷺ دون أن يُقَرَّ عليه ، لتنبيه الوحي إيَّاه ؛ واستدلوا على ذلك بقصة أسرى بدر ، وقصة تأبير النخل ، وربما أوردوا قصة نزوله ﷺ يوم بدر في مكان ثم تحوّله عنه ، عملاً برأي الحُباب بن المنذر .

ولكن لدى التحقيق وتسديد النظر ، يتضح أنه ليس للاستدلال بذلك على ما قالوه من أثر ، بل إن الصواب هو فيما فعله رسول الله ﷺ وفيما قاله قطعاً ، وإنه لم يخطىء رسول الله ﷺ في جميع ذلك أصلاً.

بيان ذلك :

أما قصة أسرى بدر : فهي كما في (المسند) عن أنس رضي الله عنه أنه قال :

استشار النبي ﷺ الناسَ في الأسرى يوم بدر فقال : « إن الله تعالى قد أمكنكم منهم » .

فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي ﷺ .

ثم عاد رسول الله ﷺ فقال : « يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم ، وإنما هم إخوانكم بالأمس » .

فقام عمر فقال : يا رسول الله اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي ﷺ ـ فقال للناس مثل ذلك .

فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال : يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم ، وأن تقبل منهم الفداء .

قال : فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم ، فعفا عنهم ، وقبل منهم الفداء ، قال : وأنزل الله تعالى : ﴿ لولا كتابٌ من الله سَبَق لمسَّكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ .

وفي رواية لأحمد أيضاً :

استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً[1] ، فقال أبو بكر : يا نبي الله

(١) قال في (شرح المواهب) : وفي هذا دليل على أنه ﷺ استشار الناس عامة ، كما تقدم في قوله : « يا أيها الناس » الحديث .

هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، وإني أرى أن تأخذ منهم الفداء ، فيكون ما أخذناه منهم قوةً لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عَضُداً .

فقال النبي ﷺ : « ما ترى يا عمر ؟ » .

فقال : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكنِّي من فلانٍ ـ قريبٍ لعمر ـ فأضربَ عنقه ، وتمكِّن علياً من عقيل ، فيضربَ عنقه ، وتمكن حمزة من فلان ، فيضربَ عنقه ، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادةٌ للمشركين ، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم .

قال عمر : فهوِي رسول الله ﷺ ـ أي : أحب ـ ما قال أبو بكر ، ولم يهوَ ما قلت ، وأخذ منهم الفداء .

فلما كان من الغد قال عمر : فغدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر وهما يبكيان .

فقلت : ما يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدتُ بكاءً بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما .

فقال النبي ﷺ : « أبكي للذي عرض عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عُرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة » ـ لشجرة قريبة من النبي ﷺ وأنزل الله عز وجل : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثخِنَ في الأرض ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فكلوا ممّا غنمتم حلالاً

= واستشار هؤلاء الثلاثة خاصة كما دل عليه هذا الحديث ، ولم يذكر عن علي كرم الله وجهه جواب مع أنه أحد المستشارين .

طيباً ﴾ فأحلَّ الله لهم الغنائم .

وروى مسلم وأبو داود والترمذي نحواً من هذا .

فهذه قصة الأسرى يوم بدر ، وليس في النصوص الواردة فيها ما يدل على أنه ﷺ أخطأ ـ أي : لم يُصب فيما سلكه مع الأسرى يوم بدر ـ بل إن من تأمَّل في هذه القصة وتدبَّر آياتها وأحاديثها يتضح له جلياً أنه ﷺ كان مصيباً فيما فعله ، وذلك من وجوه متعددة :

الوجه الأول : أن النبي ﷺ عمل بذلك ، بمقتضى المشاورة التي أمره الله تعالى بها في قوله : ﴿ وشاورهم في الأمر فإذا عزمتَ فتوكَّل على الله ﴾ .

الوجه الثاني : أنه ﷺ جَنَح إلى رأي من قال بالفداء وهَويه ـ أي : أحبَّه ـ لما فيه من الرحمة والعطف واللين ، بمقتضى المقام الذي أقامه تعالى فيه ، وهو قوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين ﴾ حتى إنه ﷺ لما قيل له يوم أحد ـ وقد أصيب بجراح ـ قيل له : ادعُ الله على المشركين ، فقال : « إنما بعثت رحمة ـ اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون » .

الوجه الثالث : أن فعله ﷺ كان موافقاً لما سبق في الكتاب الأول ، الذي قضى الله تعالى فيه حِلَّ الغنائم له ﷺ خاصَّة ، ولم تحِلَّ لأحد قبله ، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ : يعني في أم الكتاب الأول ، أن المغانم والأسارى

حلال لكم ﴿ لمسكم فيما أخذتم ﴾ من الأسرى ﴿ عذاب عظيم ﴾ .

اهـ .

قال الحافظ ابن كثير : وروي مثله عن أبي هريرة وابن مسعود ، وسعيد بن جبير وعطاء ، والحسن البصري وقتادة والأعمش أيضاً ، أن المراد : لولا كتاب من الله سبق لهذه الأمة ، بإحلال الغنائم ، لمسَّكم فيما أخذتم عذاب عظيم .

وهو اختيار ابن جرير رحمه الله تعالى . اهـ .

فإن قيل : ليس في الآية دليل على حل الفداء ، وإنما هي في حل الغنائم !

أجيب : بأن الفداء في معنى الغنائم ، لأنه مال مأخوذ من الكفرة ، ويشهد لذلك قوله ﷺ : « وأحلتْ ليَ الغنائم ، ولم تكن تحِلُّ لأحد قبلي » فإن هذا الحديث بيَّن ما دلت عليه الآية من تخصيصه ﷺ بذلك ـ كما في (شرح) الزرقاني .

وفي (تفسير) العلامة الآلوسي رحمه الله تعالى : قال محيي السنة : رُوي أنه لما نزلت الآية الأولى ، كفَّ أصحاب النبي ﷺ أيديَهم عما أخذوا من الفداء ، فنزلت هذه الآية وهي : ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً . . ﴾ الآية .

أي : فعرفوا حِلَّ الفداء من هذه الآية .

قال : فالمراد بقوله تعالى : ﴿ مما غنمتم ﴾ إما الفداء ، وإما مطلق

الغنائم ، والمراد ـ أي : ويكون المراد ـ بيان حكم ما اندرج فيها من الفدية . اهـ .

الوجه الرابع : وكما أن قبوله ﷺ الفداء ، وافق قضاء الله تعالى السابق في الكتاب الأول ، فإنه وافق أيضاً الشرع اللاحق النازل في الكتاب الحكيم ، وهو قوله تعالى : ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً . . ﴾ الآية .

فكيف يقال في أمرٍ وافق الكتابَ الأول ، ووافق الشرعَ النازل بعدُ ، كيف يقال : إنه خطأ ؟ ! ـ ويتضح ذلك بالوجه الخامس .

الوجه الخامس : أن نزول التشريع بإحلال الغنائم ، وهو قوله تعالى : ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ﴾ هو إقرار لما فعله رسول الله ﷺ ، وتصويب لما رآه ، إذ لو كان فعله ﷺ خطأً ، كيف يقره الله تعالى عليه ويجعله شرعاً باقياً ؟ حتى إنه على قول من جوَّز الخطأ عليه ﷺ دون أن يقره الله عليه ، لا يقال : إنه ﷺ أخطأ في قضية أسرى بدر ، لأن الله تعالى أقره على ذلك فمن أين يأتي الخطأ ؟! .

قال الحافظ ابن كثير في (تفسيره) : وقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء ، أن الإمام مخيَّر فيهم :

١ ـ إنْ شاء قَتَل ، كما فُعل ببني قُريظة ، ٢ ـ وإن شاء فادى بمال كما فُعل بأسرى بدر ، أو ـ فادى ـ بمن أُسر من المسلمين ، كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سَبي سلمة بن

الأكوع ، حيث ردَّهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين ، ٣ ـ وإن شاء استرقَّ مَنْ أُسر .

هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء ، وفي المسألة خلاف بين الأئمة مقرَّر في موضعه من كتب الفقه . اهـ كلام ابن كثير .

الوجه السادس : لو كان موقفه ﷺ مع أسرى بدر خطأ ، لأمره الله تعالى أن يردَّ الفداء ، وأن يستغفر الله تعالى من الخطأ الذي وقع فيه ، مع أنه سبحانه أقرّه على ذلك وشرع له ذلك فقال : ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ﴾ الآية ـ فلو كان خطأ لما أقرَّه الله تعالى عليه ، ولما شرع له ذلك .

الوجه السابع : لو كان فعله ﷺ بأسرى بدرٍ خطأً ، لما كان رسول الله ﷺ يمتدح ويتحدَّث بنعمة الله عليه في حلِّ الغنائم له ، مع أنه ﷺ كان يتحدَّث بما خصَّه الله تعالى به من الخصائص ، ومن أعظمها وأعمِّها وأنفعها : تلك العطايا الخمسة الخاصَّة به ﷺ ، كما ورد في (الصحيحين) وغيرهما ، عن جابر رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « أعطيتُ خمساً لم يعطهنَّ أحد قبلي : كان كل نبيٍّ يُبعثُ إلى قومه خاصَّةً ، وبُعثتُ إلى الأحمر والأسود ، وأُحلَّت ليَ الغنائم ولم تحلَّ لأحد قبلي . . » الحديث .

قال العلامَّة الخطابي : كان من تقدَّم ـ أي : شرائعهم ـ على ضربين :

مِنهم مَن لم يُؤذن له في الجهاد ، فلم يكن لهم غنائم .

ومنهم مَنْ أذن لهم فيه ، لكن كانوا إذا غنموا شيئاً لم يحلّ لهم أن يأكلوه ، وجاءت نار فأحرقته . اهـ .

الوجه الثامن : أن موافقته ﷺ على أخذ الفداء من الأسرى ، فيه حكمة رشيدة وخطّة سديدة ، وذلك أن الشرع الذي ينزل بعده :

إمَّا : أن يُقرَّه على فعله فهو المقصود ، وقد حصل ذلك والحمد لله .

وإما : أن يأمره بردِّ الفداء وضرب الرقاب ، فحينذاك يردُّ الفداء على الأسرى ، ويضرب الرقاب .

ولكن لو أنه كان ضَرَب أعناق الأسرى ، وجاء الشرع بعدُ بقبول الفداء منهم ، فماذا يعمل ﷺ حينئذ ؟ فكان تريُّثه في القتل هو عينُ الحكمة ، وتبيَّن أنه الصواب ـ ولذا أقرَّه سبحانه وشرعه .

وفي (أحكام القرآن) للقاضي أبي بكر بن العربي رحمه الله تعالى :

فإن قيل : فقد اختار النبي ﷺ الفداء مع الصحابة الذين اختاروا الفداء ، فهل يكون ذنباً منه ؟

قلنا : كذلك توهَّم بعض الناس فقال : إنه كان من النبيِّ معصية غير معنيَّة .

قال القاضي أبو بكر : وحاشا لله من هذا القول ، إنما كان من النبيِّ ﷺ توقفٌ وانتظار ـ أي : لأن يحكم الله تعالى في ذلك ـ ولم يكن القتل ليفوت ، مع أنهم كانوا قد قَتَلوا الصناديد ، وأثخنوا في الأرض ـ وذلك أنهم قتلوا من صناديد المشركين يوم بدر سبعين ، ثم أسروا

سبعين ـ فانتظر النبي ﷺ : هل ذلك كافٍ ـ أي : في الإثخان ـ أم لا ؟ وهذا بيِّنٌ عند أهل الإنصاف . اهـ .

الوجه التاسع : كيف يُحكم بأنه ﷺ أخطأ في أسرى بدر ، مع أنه ﷺ أُمِرَ أن يخيِّر أصحابه في ذلك ، ثم عمل بمقتضى ذلك :

فقد روى الترمذي والنسائي ، وابن حبان والحاكم ، بإسناد صحيح ، عن عليٍ كرم الله تعالى وجهه قال : جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ يوم بدر ، فقال له : « خيِّر أصحابك في الأسارى ؛ إن شاءوا القتل ، وإن شاءوا الفداء ، على أن يُقْتل منهم ـ أي : الصحابة ـ في العام المقبل مثلهم » .

فقالوا : نختار الفداء ، ويُقتل منا ـ أي : يقتل منهم سبعون رغبةً في الشهادة في سبيل الله تعالى .

وعند ابن سعد من مرسل قتادة : فقالوا : بل نُفاديهم ، فنقوى بهم عليهم ، ويدخل العامَ القابلَ منا الجنةَ سبعون ـ ففادوهم .

قال الحافظ القسطلاني : وهذا دليل على أنهم لم يفعلوا إلا ما أُذن لهم فيه . اهـ .

الوجه العاشر : كيف يُحكم بأنه ﷺ أخطأ في قبول الفداء من أسرى بدر مع أنه ﷺ كان قبل غزوة بدر ، فادى سريَّة عبد الله بن جحش ، التي قتل فيها عمرو بن الحضرمي ، ولم يعتب الله تعالى عليه في ذلك .

فقد جاء في السِّيَر وغيرها أنه ﷺ بعث عبد الله بن جحش في سرية يعترض بها عِير قريش ، فنزلوا بطن نخلة ـ موضعاً قريباً من مكة ـ

فقتلوا عمرو بن الحضرمي وأسروا عثمان بن عبد الله ، والحكم بن كيسان ، وهرب من هرب ، فاستاقوا العير . .

وبعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء الأسيرين ، وهما : عثمان بن عبد الله ، والحكم بن كيسان .

فقال ﷺ : « لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا ـ يعني سعداً وعتبة[1] ـ فإنا نخشاكم عليهما ، فإنْ تقتلوهما نقتل صاحبَيْكم » .

فقدم سعد وعتبة بعدهم بأيام ـ ففداهما رسول الله ﷺ كل واحد بأربعين أوقية .

فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه ، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً .

وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافراً .

وقد كانت هذه السريَّة في رجب ، وقيل في جمادى الآخرة ، وكانت غزوة بدر في رمضان ، وكلاهما في ثانية الهجرة ، فما عتب الله تعالى على أخذ الفداء في تلك السرية ، فلو كان ممنوعاً لعتب سبحانه[2] .

الوجه الحادي عشر : أن قوله تعالى : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة . . ﴾ الآية : ليس فيها معاتبة للنبي ﷺ أصلاً ، وإنما فيها العتاب لمن أشار على النبي ﷺ بالفداء ، بُغية عرَض الدنيا ، وهو المال

(١) أي : لأنهما كانا في السرية ، ولكنهما تأخرا في العودة

(٢) راجع (المواهب وشرحها) و (شرح الشفا) للقاضي عياض .

المفدى به ، حين استشار عامَّة الناس ، قبل أن يستشير خاصتهم : أبا بكر وعمر وعلياً رضي الله عنهم ، كما تقدم .

فأراد بقوله سبحانه : ﴿ تريدون عرَض الدنيا ﴾ أولئك النفر الذين أرادوا المال .

أما سيدنا رسول الله ﷺ فلم يَقصد بقبول الفداء عرَض الدنيا ، وحاشاه من ذلك ! فإن الدنيا كلها مالها قيمة عنده ، وقد قال ﷺ : « مالي وللدنيا ! ما أنا والدنيا إلاَّ كراكب استظلَّ تحت شجرةٍ ، ثم راح وتركها » ، وقد عرضت عليه جبال تهامة أن تكون له ذهباً فأبى ، فأين هو من عرَض الدنيا ! .

كما أن قوله تعالى : ﴿ لولا كتاب من الله سبق لمسَّكم فيما أخذتم عذاب عظيم . فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ﴾ فإن هذا إعلانٌ منه سبحانه بنعمته ومنَّته على هذه الأمة ، بفضل نبيها ﷺ وإعلامٌ بأنه سبق منه القضاء ، في الكتاب الأسبق ، بحِلِّ الغنائم لهذه الأمة دون غيرها ، فضلاً منه ونعمةً ، بفضل نبيها وكرامته على الله تعالى .

ومن ثَمَّ كان ﷺ يُشِيد بهذه المنقَبَة ويتحدث بهذه النعمة في جملة من المناقب التي خصه الله تعالى بها فيقول : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي : كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الأحمر والأسود ، وأحلَّت ليَ الغنائم ، ولم تكن تحل لأحد قبلي . . » الحديث كما تقدم .

فكما أن إرساله إلى الناس عامَّةً دون غيره ، وجَعْل الأرض له

مسجداً دون غيره ، كل ذلك كان عن قضاء من الله تعالى سابق ، وحكم شرعي محكم من الله تعالى لاحق ، فكذلك جاء إحلال الغنائم أيضاً ، فهو شرع مبني على حِكَم وإحكام .

فاعتبِر في ذلك وتبصَّر ، وأنصف وتدبَّر .

ولذلك قال القاضي أبو زيد رحمه الله تعالى :

فإن قيل : أليس الله تعالى عاتب رسوله على الفداء ، وقال رسول الله ﷺ : « لو نزل العذاب ما نجا إلا عمر » فدلَّ على أن أبا بكر كان مخطئاً ؟

قلنا : هذا لا يجوز أن يُعتقد ، فإن رسول الله ﷺ عمل برأي أبي بكر ، ولا بدَّ أن يقع عمل رسول الله إذا أُقِرَ عليه ـ صوابا ـ والله تعالى قرَّره عليه فقال : ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً . . ﴾ الآية .

وتأويل الآية : ﴿ ما كان لنبيٍّ أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ وكان لك ـ يا رسول الله ﷺ ـ كرامةً خُصِّصتَ بها رخصةً ، لولا كتاب من الله سبق بهذه الخصيصة لمسَّكم العذاب ، لحكم العزيمة على ما قال عمر .

ثم قال القاضي أبو زيد رحمه الله تعالى : **والوجه الآخر** ـ أي : في تأويل الآية ـ : ما كان لنبي أن يكون له أسرى قبل الإثخان ، وقد أثخنتَ يوم بدر ، فكان لك الأسرى كما كان لسائر الأنبياء عليهم السلام ، ولكن كان الحكم في الأسرى : المنّ أو القتل دون المفاداة ، فلولا الكتاب السابق في إباحة الفداء لك ـ يا رسول الله ﷺ لمسَّكم العذاب .

ثم قال القاضي رحمه الله تعالى : ولو كان حكمه ﷺ فيه خطأ ، لكان الأمر بالنقض ـ أي : بردّ الفداء والأمر بالقتل ـ مع أنه ليس فيه إلزامُ ذنب للنبي ﷺ ، بل فيه بيان ما خُصَّ به وفُضِّل به من بين سائر الأنبياء فكأنه سبحانه قال : ما كان هذا لنبيٍّ غيرك ، وأما الخطاب بقوله : ﴿ تريدون ﴾ : فهو لمن أراد منهم ذلك ، وليس المراد بالمريد النبيَّ ﷺ لعصمته[1] . اهـ بحروفه .

وقال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) : اختلف السلف في أيِّ الرأيَيْن كان أصوب ؟ :

فقال بعضهم : كان رأي أبي بكر ، لأنه وافق ما قدرَّ الله تعالى في نفس الأمر ، ولما استقرَّ عليه الأمر ، ولدخول كثير منهم في الإسلام ، إمَّا بنفسه ، وإمَّا بذريته التي وُلدت بعد الوقعة ، ولأنه وافق غلبة الرحمة على الغضب ، كما ثبت ذلك عن الله تعالى في حقِّ من كتب له الرحمة .

وأما من رجَّح الرأي الآخر : فتمسك بما وقع من العتاب على أخذ الفداء .

لكن الجواب عنه : أنه لا يدفع حجة الرجحان عن الأول ـ أي : بل الرأي الأول له الرجحان على غيره ـ بل ورد ـ العتاب ـ للإشارة إلى ذمِّ مَن آثر شيئاً من الدنيا على الآخرة ولو قلَّ . اهـ .

يعني أن العتاب الذي قد يفهم من الآية ، موجَّه لمن أراد بالفداء

(١) وقد نقل هذا عن القاضي أبي زيد في كتاب (التقرير والتحبير) على (تحرير الكمال) ابن الهمام في بحث الاجتهاد ٣ : ٢٩٧ وغيره من كتب الأصول .

عَرَض الدنيا ، وهم بعض الناس الذين أشاروا عليه بالفداء ، حين استشار النبي ﷺ عامة الناس ، قبل أن يستشير خاصتهم ، كما تقدم .

أما قضيَّة تأبير النخل : فقد ورد في (صحيح) مسلم و (المسند) عن أنس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ مرَّ بقوم يُلقِّحون النخل فقال : « لو لم تفعلوا لصلح » .

قال : فخرج شِيصاً .

فمرَّ بهم ﷺ فقال : « ما لنخلكم ؟ » .

قالوا : قلتَ كذا وكذا ! .

قال : « أنتم أعلمُ بأمر دنياكم » .

فمن هذا الحديث فهم بعض الناس أن النبي ﷺ قد يخطىء في أمور الدنيا ، وراح يقول : أخطأ رسول الله ﷺ في كذا وأخطأ في كذا !! .

ولكن الحق أحقُّ أن يتبع ، وذلك أن أقواله ﷺ وأفعاله يُفسِّر بعضها بعضاً ، ويشبه بعضها بعضاً ، وأن الله تعالى حفظه عن الخطأ كما حفظه من الخطيئة ، فنقول وبالله التوفيق :

أولاً : إنه ﷺ قد نشأ في تلك الأراضي المباركة التي هي منابت النخيل ، وتربى بين قوم يعلمون فنون زرع النخيل ، وما يتطلبه من عنايات ولِقاحات ، وكيف يُتصور في حقه ﷺ أن تخفى عليه تلك العادة المطَّردة في إنتاج النخيل ، ولزوم التلقيح له بموجب الأصول الزراعية ؟ في حين أن ذلك ليس من خفايا معلومات الزراعة لشجر النخيل ، ولا من غوامضها ؛ إذاً لا بد وأنه يعلم ذلك كما يعلمون ، ولكن أراد

أن يظهر لهم أمراً لا يستطيعون نيله بأنفسهم .

ثانياً : إن الرسول الكريم ﷺ الذي نال من العلوم ما نال ، وأفاض الله تعالى عليه ما أفاض ، حتى أنه ذكر للصحابة وبحث لهم في كل شيء .

كما روى الطبراني عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال : (تركَنا رسولُ الله ﷺ وما طائر يقلِّب جناحيه في الهواء ، إلا وهو ذكر لنا منه علماً) .

فكيف يتصور أنه يخفى عليه ﷺ أن النخيل لا يحتاج إلى تلقيح بمقتضى العادة في علم الزراعة ؟ ولكن رسول الله ﷺ أراد أمراً آخر .

ثالثاً : إن الذي يدلنا على ذلك الأمر الآخر الذي أراده ﷺ هو النظر في أشباه هذه الواقعة الصادرة منه ﷺ ، ومن ذلك حديث : « ناوِلْني الذراع » .

ففي (المسند) عن أبي رافع[1] قال : صُنع لرسول الله ﷺ شاةٌ مَصْليَّة فأُتي بها فقال : « يا أبا رافع ناولْني الذراع »[2] فناولته .

ثم قال : « ناولني الذراع » فناولته .

---

(١) أبو رافع القبطي مولى رسول الله ﷺ ، أسلم ومات في أول خلافة أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه . اهـ من (شرح) الزرقاني .

(٢) الذراع : هو اليد من كل حيوان ، ولكنه من الإنسان من طرف المرفق إلى طرف الأصبع الوسطى ، يؤنث ويذكر ، ومن البقر والغنم : ما فوق الكراع ، وهو المراد هنا . اهـ من الزرقاني .

ثم قال : « ناولني الذراع » فقال : يا رسول الله ﷺ هل للشاة إلا ذراعان ؟ ! .

فقال ﷺ « لو سكتَّ لناولتني منها ذراعاً ما دعوتُ به » .

قال : وكان رسول الله ﷺ يعجبه الذراع .

قال في (مجمع الزوائد) : رواه أحمد والطبراني من طرق ، وقال في بعضها : أمرني رسول الله ﷺ أن أصْلِيَ له شاةً فَصَلَيْتُها .

ورواه في (الأوسط) باختصار ، وأحد إسنادي أحمد حسن . اهـ .

وعن أبي عبيد [1] أنه: طَبخ لرسول الله ﷺ قدراً فيها لحم .

فقال رسول الله ﷺ : « ناولني ذراعَها » فناولته .

فقال : « ناولني ذراعها » فناولته .

فقال ﷺ : « ناولني ذراعها »

فقال : يا نبيَّ الله كم للشاة من ذراع ؟ ! .

فقال له ﷺ : « والذي نفسي بيده لو سكتَّ لأعطيتَ ذراعاً ما دعوتُ به » .

(١) قال في (شرح المواهب) ٤ : ٣٢٨ : أبو عبيد مولى رسول الله ﷺ ، ذكره الحاكم أبو أحمد فيمن لم يعرف اسمه من الصحابة ، هكذا في نسخ (المصنف) : أبي عبيد ، بلا هاء على المعروف ، ولعله الواقع عند الدارمي وإلا فالذي في الترمذي : أبي عبيدة بهاء . قال الحافظ العراقي : هكذا في أصل سماعنا من كتاب (الشمائل) أبي عبيدة بزيادة تاء التأنيث ، وهكذا ذكره المزي في (الأطراف) . اهـ .

وهذه القصة غير التي تقدمت ، كما نبه عليه الحافظ الزرقاني وغيره .

وفي (مجمع الزوائد) عن ابن إسحاق قال : حدثني رجل من بني غِفار ، في مجلس سالم بن عبد الله ، قال : حدثني فلان أن رسول الله ﷺ أُتي بطعامٍ : خبزٍ ولحمٍ .

فقال ﷺ : « ناولني الذراع » فنُوول ذراعاً فأكله .

ثم قال : « ناولني الذراع » فنُوول ذراعاً فأكله .

ثم قال : « ناولني الذراع » فقال : يا رسول الله إنما هما ذراعان !

فقال : « وأبيك لو سكتَّ مازلتُ أناوَل منها ذراعاً ما دعوتُ به » .

قال : ورواه أحمد وفيه راوٍ لم يسمَّ .

فقوله ﷺ : « ناولني الذراع » في المرة الثالثة ـ مع العلم أن الشاة لها ذراعان ـ إنما أراد أن يظهر أمراً معجزاً فيه الإكرام ، وفيه البرهان ، وفيه الإشهاد بالعيان ، ولكن لما لم يجد محلاً قابلاً ، لم تظهر تلك المعجزة .

ولذلك قال الحافظ الزرقاني عند قوله ﷺ : « أما إنك لو سكتَّ لناولتني ذراعاً فذراعاً ما سكتَّ » ـ أي : مدة سكوتك ، لأنه سبحانه يخلق فيها ذراعاً فذراعاً ، معجزةً له ﷺ ، فحملتِ المناوِلَ عجلتُه المركبةُ في الإنسان على قوله : إنما للشاة ذراعان ، فانقطع المدد ، لأنه إنما كان من مدد الكريم سبحانه ، إكراماً لخلاصة خلقه ﷺ ، فلو تلقاه المناوِلُ بالأدب ، ساكتاً مُصْغِياً إلى ذاك العجب : لكان شكراً منه مقتضياً لتشريفه بإجراء هذا المدد على يديه ، ولكنه تلقَّاه بصورة الإنكار ، فرجَع الكرم مولِّياً ، لما لم يجد قابلاً ، إذ لا يليق لمشاهدة هذه المعجزة

العظيمة ـ إذ في شهودها نوع تشريف للمطلع عليها ـ إلا لمن كمل تسليمه ولم يبقَ فيه أدنى حظٌّ ولا إرادة . اهـ .

وهكذا في حادثة تأبير النخل ، لما مرَّ ﷺ بقوم يؤبِّرون النخل ، أراد أن يُكرمهم ويُتحِفهم ، وأن يظهر لهم معجزة خارقة للعادة المطردة في إصلاح النخيل بالتأبير ، فيكرمهم خاصة بصلاحه دون تأبير ، إذ هو ﷺ ممن يعلم بموجب العادة حاجة النخيل إلى تأبير كما يعلمون ، لأنه ﷺ بينهم مطلع على أمورهم .

ولكن لمَّا لم تقبل قلوب بعض أولئك النفر ، ولم تستسلم كل الاستسلام إلى قوله ﷺ : « لو لم تفعلوا ـ أي : التأبير ـ لصلح » بل وقفوا عند معلوماتهم الدنيوية المطردة من فنِّ زراعة النخيل ، وأن صلاحه موقوف على التأبير ، فلم يلق الكرم محلاً قابلاً فرجع .

ولذلك ردّهم ﷺ بعد ذلك إلى الأسباب المعتادة لديهم ، المعلومة عندهم التي وقفوا عندها ولم يجاوزوها فقال لهم : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » ـ أي : فارجعوا إلى العمل بموجب علمكم بأمور دنياكم .

ويشهد لصحة ما قلناه ، وصواب ما فهمناه ، من أنه ﷺ لم يخطىء في ذلك ، قولُ الشيخ العارف بالله تعالى ، صاحبِ (الإبريز) نفعنا الله تعالى بمعارفه ، حين سئل عن حديث تأبير النخل ؟
فقال رضي الله عنه :

قوله ﷺ : « لو لم تفعلوا لصلحت » كلام حق ، وقول صدق ، وقد خرج منه هذا الكلام على ما عنده من الجزم واليقين بأنه تعالى هو

الفاعل بالإطلاق ، وذلك الجزم مبني على مشاهدة سَرَيان فعله تعالى في سائر الممكنات مباشرةً بلا واسطة ولا سبب ، بحيث إنه:لا تسكن ذرة ، ولا تتحرك شعرة ، ولا يخفق قلب ، ولا يضرب عرق ، ولا تطرف عين ، ولا يومىء حاجب ، إلّا وهو تعالى فاعله مباشرة من غير واسطة .

وهذا أمر يشاهده النبي ﷺ كما يشاهد غيره وسائرَ المحسوسات ، ولا يغيب ذلك عن نظره لا في اليقظة ولا في المنام ، لأنه ﷺ لا ينام قلبه الذي فيه هذه المشاهدة ، ولا شكَّ أن صاحب هذه المشاهدة تطيح الأسباب من نظره ، ويترقّى عن الإيمان بالغيب إلى الشهود والعيان ؛ فعنده من قوله تعالى : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ مشاهدة دائمة لا تغيب ، ويقين يناسب هذه المشاهدة ، وهو أن يجزم بمعنى الآية جزماً لا يخطر معه بالبال نسبة الفعل إلى غيره تعالى ، ولو كان هذا الخاطر قدر رأس النملة .

قال : ولا شك أن هذا الجزم الذي يكون على هذه الصفة ، تُخرَق به العوائد ، وتنفعل به الأشياء ، وهو سرُّ الله تعالى الذي لا يبقى معه سبب ولا واسطة .

فصاحب هذا المقام إذا أشار إلى سقوط الأسباب ، ونسبةِ الفعل إلى ربِّ الأرباب كان قوله حقاً ، وكلامه صدقاً .

قال : وأما صاحب الإيمان بالغيب فليس عنده في قوله تعالى : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ مشاهدة ، بل إنما يشاهد نسبة الأفعال إلى من ظهرت على يده ، ولا يجذبه إلى معنى الآية ونسبة الفعل إليه

تعالى إلا الإيمان الذي وهبه الله تعالى ؛ فعنده جاذبان :

أحدهما : من ربه وهو الإيمان الذي يجذبه إلى الحق .

وثانيهما : من طبعه وهو مشاهدة الفعل من الغير الذي يجذبه إلى الباطل .

فهو بين هذين الأمرين دائماً ، لكن تارة يقوى الجاذب الإيماني ، فتجده يستحضر معنى الآية السابقة ساعة وساعتين ، وتارة يقوى الجاذب الطبيعي فتجده يغفل عن معناه اليوم واليومين ، وفي أوقات الغفلة ينتفي اليقين الخارق للعادة .

فلهذا لم يقع ما أشار إليه النبي ﷺ لأن ـ أولئك النفر ـ من الصحابة رضي الله عنهم فاتهم اليقين الخارق وقتئذٍ ، الذي اشتمل عليه باطنه ﷺ ، وبحسبه خرج كلامه الحق ، وقوله الصدق ﷺ .

ولمَّا علم ﷺ العلَّة في عدم وقوع ما ذكره ـ لهم ـ وعلم أن زوال تلك العلَّة ليس من طوقهم رضي الله عنهم ـ وقتئذٍ ـ أبقاهم على حالتهم ، وقال : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » اهـ كلام (الإبريز) .

وعلى كل حال فإنه لا يقال : أخطأ ﷺ في قصة تأبير النخل ، كما لا يقال : إنه ﷺ أخطأ في قوله لأبي عبيد : « ناولني الذراع » في المرة الثالثة ، فإن ذلك ليس من باب الخطأ ، بل من باب الصواب ، وإرادة الإكرام والإتحاف لأولئك النفر ، بأمر فيه اليمن والبركة على وجه خارق للعادة ، ولكن تخلَّف ذلك لوجود المانع والعارض .

ونظير هذا : انقطاعُ مدد الإكرام والبركة من ظرف السمن ، الذي

بارك فيه النبي ﷺ لما عصرته أم مالك ؛ كما جاء في (صحيح) مسلم وغيره ، عن جابر رضي الله عنه ، أن أم مالك الأنصارية كانت تُهدي النبي ﷺ من عكّةٍ لها سمناً ، فيأتيها بنوها فيسألونها الأدُم ـ وفي رواية : فيسألون السمن ـ وليس عندهم شيء ، فتعمد ـ أي :تقصد ـ إلى الظرف الذي كانت تُهدي فيه ، فتجد فيه سمناً ، فما زال يُقيم لها أدُم بيتها حتى عصرتْه ـ أي : عصرت الظرف فنفذ السمن ـ فأتت النبي ﷺ ـ أي : ذكرت له ذلك ـ .

فقال ﷺ « عصرتيها ؟ » ، قالت : نعم .

فقال ﷺ : « لو تركتيها ما زال ـ أي : السمن ـ قائماً » .

وروى مسلم عن جابر رضي الله عنه ، أن رجلاً من أهل البادية ، أتى النبيَّ ﷺ يَستطعمه ، فأطعمهُ شَطر وَسْقٍ من شعير ، فما زال يأكل منه وامرأتُه وضيفُها ـ أي : أضيافها الذين ينزلون عندهما ـ حتى كاله ـ أي : فنقص ـ فأتى النبي ﷺ فأخبره .

فقال له : « لو لم تكلْه لأكلتم منه ـ أي : دائماً يكفيكم ـ وأقام لكم » أي : مدة الحياة من غير نقص .

فالكيل العارض منع المدد الفائض .

وقد بين الإمام النووي حكمة ذلك كله حيث قال : قال العلماء : الحكمة في ذلك أن عصرها وكَيْله ، مضادَّة للتسليم والتوكل على رزق الله تعالى ، ويتضمن التدبير والأخذ بالحول والقوة ، وتكلّف الإحاطة بأسرار حكم الله تعالى وفضله .

فعوقب فاعله بزواله . اهـ[1] .

قال الحافظ الزرقاني : ولا يعارض هذا قوله ﷺ : « كِيلوا طعامكم يبارك لكم فيه » لأنه فيمن يخشى الخيانة ، أو كيلوا ما تخرجونه للنفقة لئلا يخرج أكثر من الحاجة أو أقل ، بشرط بقاء الباقي مجهولاً ، أو كليوا عند الشراء ، أو عند إدخاله المنزل . اهـ .

أما قضية الحُباب بن المنذر يوم بدر : فهي كما روى ابن إسحاق[2] أن النبي ﷺ خرج يُبادرهم إلى الماء ، حتى جاء إلى ماءٍ في بدر ، فنزل به .

فقال الحُباب بن المنذر : يا رسول الله هذا منزلٌ أنزلكه الله ، لا تتقدمه ولا تتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ .

فقال ﷺ : « بل هو الرأي والحرب والمكيدة » .

فقال الحباب : فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس ، حتى تأتي أدنى ماءٍ من القوم فننزل ، ثم نغوِّر[3] ما وراءه من الطلب ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤها ماءً ، فنشرب ولا يشربون ـ أي : المشركون ـ .

فقال ﷺ : « أشرتَ بالرأي » .

وعند ابن سعد : فنزل جبريل فقال : « الرأي ما أشار به الحباب » .

(١) انظر (شرح) مسلم ١٥ : ٤١ .
(٢) انظر (سيرة) ابن هشام وغيرها .
(٣) بالغين المعجمة وشد الواو أي : ندفنها ونذهبها ـ كما في (شرح المواهب) .

فليس في هذا الحديث ما يدل على أنه ﷺ كان مخطئاً في رأيه ، لأن هذه الواقعة لست من باب إلزام القضية أو التزامها ، إنما هي من باب عرض القضية ، لإبداء رأي أهل الرأي والخبرة في ذلك ، على عادته ﷺ من عرضه أمثال هذه الأمور على أهل الرأي من الصحابة ، ومشاورتهم فيها .

وليس ذلك من باب أنه رأي رآه ﷺ واستحسنه والتزمه ، وراح يحمل الناسَ عليه ويُلزمهم به ! بل من باب عرض القضية للرأي والمشاورة فيها .

ويدل على ذلك صريح قوله ﷺ للحباب : « أشرتَ بالرأي » فكان موقفه ﷺ موقفَ المستشير الذي عرض القضية ولم يلتزمها ، ولو أنه ﷺ رأى ذلك أو التزام ذلك لحمل الصحابة على ذلك ولاستمرَّ على ذلك ﷺ .

إفاضته ﷺ بالبركات والخيرات

كان رسول الله ﷺ فياضاً بالخيرات والبركات ، والأسرار والأنوار ، على القوابل المستعدة ، والمتوجِّهة المستمدة .

روى البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ضمني رسول الله ﷺ إلى صدره وقال : « اللهم علِّمه الكتاب » .

فقد نال ابن عباس بهذه الضَّمة والدعوة فهماً عظيماً في كتاب الله تعالى .

وروى البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله إني لأسمعُ منك حديثاً كثيراً أنساه ! .

فقال : « ابسُطْ رداءك » .

فبسطتُه ، فغرف بيديه ثم قال : « ضُمّه » فضممته فما نسيت شيئاً بعدُ .

هذا لفظ البخاري .

وعند غيره : ثم قال : « ضُمَّه إلى صدرك » فضممتُه ، فما نسيتُ حديثاً بعدُ .

وروى أبو نعيم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال له : « ألا تسألني من هذه الغنائم ؟ » .

قلت : أسألك أن تعلمني مما علَّمك الله .

قال : فنزع نَمِرةً على ظهري ووسَّطها بيني وبينه ، فحدَّثني ، حتى إذا استوعبتُ حديثه قال : « اجمعها فصُرْها إليك » .

قال أبو هريرة : فأصبحتُ لا أُسقِط حرفاً مما حدثني[1] .

وفي هذا إفاضةُ الحفظِ على أبي هريرة رضي الله عنه ، حتى إنه ما نسي حديثاً بَعْدُ .

ومن ذلك إفاضته ﷺ العلمَ بالقضاء على سيدنا علي كرم الله تعالى وجهه حين أرسله إلى اليمن :

(١) انظر (الإصابة) ، وما فيها من أنواع الروايات في ذلك .

ففي (المسند) و (السنن) وكذلك روى البيهقي والحاكم وصححه عن علي رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقلت : (يا رسول الله تبعثني وأنا شابّ أقضي بينهم ولا أدري ما القضاء ؟ فضرب ﷺ بيده في صدري وقال : « اللهم اهد قلبه وثبت لسانه » .

فو الذي فلق الحبَّة ، ما شككتُ في قضاءٍ بين اثنين بعدُ) .

وأورده الحافظ ابن كثير في (البداية) من طريق أبي يعلى .

وقال جرير بن عبد الله : (يا رسول الله إني لا أثبُتُ على الخيل ، فضرب رسول الله ﷺ في صدري حتى رأيتُ أثر أصابعه في صدري وقال : « اللهم ثبِّته ، واجعله هادياً مَهدياً » كما في (المسند) .

ومن ذلك إفاضته ﷺ القوة على سفينة وسماه سفينة حيث قال له : « احمل فإنما أنت سفينة » .

قال : (فلو حملت يومئذٍ وقر بعير أو بعيرين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة أو سبعة ما ثقل عليَّ) .

كما في (مسند) أحمد وغيره .

رسول الله ﷺ يغمسُ يده في الماء ، لتحلَّ فيه البركة والشفاء :

روى الإمام مسلم وغيره عن أنس رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة جاء خَدَم المدينة بآنيتهم ، فيها ماء ، فلا يأتونه بإناء إلا غمس فيه يدَه ، وربما جاؤوه بالغداة الباردة فيغمس يدَه فيها) .

فكانوا يتبركون بذلك الماء ويستشفون به .

رسول الله ﷺ يغسل يديه ووجهه ، ويمجُّ في الماء ، ويأمر بالشرب منه والإفراغ على الوجه :

روى الشيخان ـ واللفظ لمسلم ـ عن أبي موسى الأشعري قال : (كنت عند النبي ﷺ وهو نازل بالجِعْرانة ، بين مكة والمدينة ، ومعه بلال ، فأتى رسولَ الله ﷺ أعرابي فقال : ألا تنجزني يا محمد ما وعدتني ؟

فقال له رسول الله ﷺ : « أبشر » .

فقال الأعرابي : أكثرتَ عليَّ من : أبشِر ! .

فأقبل رسول الله ﷺ على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان فقال لهما : « إنّ هذا قد رَدَّ البشرى فاقبلا أنتما » .

فقالا : قبلنا يا رسول الله .

ثم دعا رسول الله ﷺ بقدح فيه ماء ، فغسل يديه ووجهه ومجَّ فيه ، ثم قال : « اشربا منه ، وأفرِغا على وجوهكما ونحوركما ، وأبْشِرا » .

فأخذا القدح ، ففعلا ما أمرهما به رسول الله ﷺ ، فنادتْهما أمّ سلمة من وراء السِّتر : أفْضِلا لأمِّكما في إنائكما ـ فأفْضَلا منه طائفةً) .

وفي هذا تكريم لأبي موسى وبلال رضي الله عنهما ، لأن في غُسالة أطرافه أسراراً وأنواراً ، وبركات ورحَمات .

وروى البخاري عن جابر رضي الله عنه قال : جاء رسول الله ﷺ يعودني وأنا مريض لا أعقل ـ وفي رواية : فوجدني قد أُغمي عليَّ ـ فتوضأ وصبَّ عليَّ من وَضوئه ، فعقلتُ ـ أي : أفقتُ من الإغماء ـ فقلت : يا رسول الله لمن الميراثُ ؟ إنما يرثني كلالة ! فنزلت آية الفرائض .

وفي (الصحيحين) عن أبي جُحَيفة رضي الله عنه أنه قال : (خرج علينا رسول الله ﷺ بالهاجرة ـ أي : الظهيرة ـ فأُتي بوَضوءٍ ، فتوضأ ، فجعل الناسُ يأخذون من فضل وضوئه فيتمسَّحون به ، وصلّى النبي ﷺ الظهر . .) الحديث .

وروى الإمام أحمد عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال : (رأيت قُبةً حمراء من أدَم ـ أي : جلد ـ لرسول الله ﷺ ورأيتُ بلالاً خرج بوَضوئه ﷺ ليصبَّه ـ أي : ليُريقه ـ فابتدره الناس ، فمن أخذ منه شيئاً تمسَّح به ، ومَن لم يجد منه شيئاً أخذ من بلل يد صاحبه) .

وروى الطبراني عن عبد الرحمن بن الحارث بن أبي مرداس السلمي قال : كنا عند النبي ﷺ فدعا بطَهور ، فغمس يده فتوضأ فتتبَّعناه ـ أي : ماء الوضوء ـ فحسوناه ـ أي : شربناه ـ .

فقال النبي ﷺ : « ما حملكم على ما فعلتم به ؟ » .

قلنا : حبُّ الله ورسوله ! .

قال : « فإن أحببتم أن يُحبّكم الله ورسوله : فأدّوا إذا ائتُمنتُم ، واصْدُقوا إذ حَدّثتُم ، وأحْسِنوا جِوار مَنْ جاورَكم » .

فكانت الصحابة يحرصون على غُسالة أطرافه ﷺ ؛ وعلى ماء وضوئه ؛ حباً في الله ورسوله ، وإيماناً منهم بما يعلمون من خصائصه ﷺ التي خصَّه الله تعالى بها ، ورسولُ الله ﷺ يُقرُّهم على ذلك دون إنكار .

مسحاته الشريفة ﷺ وآثاره الطيبة

كان رسول الله ﷺ إذا مسح على وجِع ذهب وجَعه بإذن الله تعالى .

وإذا مسح على مريض أو جريح برىء بإذن الله تعالى .

وإذا مسح على صدر ضعيف أو خائف قَوِي وأمِن بإذن الله تعالى .

وإذا مسح على وجه مسلم بقيت نَضارة الشباب في وجهه مهما كبِرتْ سِنُّه .

روى البخاري عن السائب بن يزيد قال : (ذهبتْ بي خالتي إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إن ابن أختي وَجِعٌ ـ فمسح رسول الله ﷺ رأسي ودعا لي بالبركة وتوضأ ، فشربتُ من وَضوئه ﷺ) .

وروى الطبراني عن أبيض بن حَمَّال : (أنه كان بوجهه حزازة ـ يعني القُوباء ـ فالتقمتْ أنفه ، فدعاه رسول الله ﷺ فمسح على وجهه فلم يُمس ذلك اليوم وفي أنفه أثر)[1] .

(١) قال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني ورجاله ثقات، وثقهم ابن حبان . اهـ .

وعن عطاء مولى السائب بن يزيد قال : (رأيتُ مولاي السائب بن يزيد لحيته بيضاء ورأسه أسود .

فقلت : يا مولاي ما لرأسكَ لا يبيضُّ ؟ ! .

فقال له : لا يبيضّ رأسي أبداً ، وذلك أن رسول الله ﷺ مضى ـ أي : مرّ ـ وأنا غلام ألعب مع الغلمان ، فسلَّم وأنا فيهم ، فرددتُ عليه السلام ، فدعاني فقال لي : « ما اسمُكَ ؟ » فقلت : السائب بن يزيد ابن أخت النَّمِر .

فوضع يده ﷺ على رأسي وقال : « بارك الله فيك » .

قال السائب : فلا يبيضُّ موضع يد رسول الله ﷺ أبداً)[1] .

وعن حنظلة بن حِذْيَم قال : (وفدتُ مع جدي حِذْيَم إلى رسول الله ﷺ فأدْناني رسول الله ﷺ ومسح رأسي وقال : « بارك الله فيك ») .

قال الراوي عن حنظلة : فلقد رأيت حنظلة يؤتى بالرجل الوارمِ وجهُهُ ، أو الشاةِ الوارمِ ضرعُها فيقول : (بسم الله ، على موضع كفّ رسول الله ﷺ ، فيمسحه ، ثم يمسح الوارم فيذهب الورم)[2] .

(١) قال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني في الثلاثة ثم قال : ورجال (الصغير) و (الأوسط) ثقات .

(٢) قال في مجمع الزوائد) : رواه الطبراني في (الأوسط) وأحمد ورجاله ثقات وقال الزرقاني : ورواه البخاري في (تاريخه) وأبو يعلى وغيرهم .

وعن عائذ بن عمرو رضي الله عنه قال : (أصابتني رمية - وأنا أقاتل بين يدي رسول الله ﷺ يوم حنين - في وجهي ، فلما سالتِ الدماء على وجهي وصدري إلى ثُنْدوَتي ، وضع النبي ﷺ يده ثم دعا لي).

قال حَشْرج : فكان عائذ يخبرنا بذلك كلِّه في حياته ، فلما مات وغسلناه ، نظرنا إلى ما كان يصف لنا من أثر يد رسول الله التي مسّها ما كان يقول لنا من صدره ، فإذا غرّةٌ - أي : بياض - سائلة كغُرة الفرس . رواه الطبراني والحاكم وغيرهما .

وعن عمرو بن ثعلبة الجهني قال : (لقيتُ رسول الله ﷺ فأسلمتُ ، فمسَحَ رأسي) .

قال الراوي : فأتَتْ على عمرو مائة سنة وما شاب موضعُ يد رسول الله ﷺ من رأسه[1] .

وعن عبد الله بن هلال الأنصاري رضي الله عنه قال : (ذهب بي أبي إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ادع الله له .

قال عبد الله : فما أنسى وَضْع رسول الله ﷺ يده على رأسي ، حتى وجدتُ بَرْدها ، فدعا لي وبارك عليَّ) .

قال الراوي عنه : فرأيت عبد الله بن هلال يصوم النهار ويقوم الليل وقد كبِرت سنُّه[2] أي : بقيت فيه قوة الشباب وعزيمتهم .

وعن عمرو بن أخطب الأنصاري قال : (مسح رسول الله ﷺ على

(١) قال الهيثمي : رواه الطبراني ورجاله إلى أبي نعيم ثقات .
(٢) رواه الطبراني وإسناده حسن .

رأسي ولحيتي ثم قال : « اللهم جمّله » قال الراوي عنه : فبلغ عمرو بضعاً ومائة سنة وما في لحيته بياض - ولقد كان منبسطَ الوجه ولم ينقبض وجهه حتى مات[1] .

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (مسح النبي ﷺ رأسي ودعا لي بالحكمة) .

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه كما في (المسند) أيضاً أنه قال :

(قلت : يا رسول الله علمني من هذا القول .

قال : فمسح رسول الله ﷺ رأسي وقال : « يرحمك الله فإنك غُلَيِّم معلَّم . . ») الحديث .

فلقد نال ابن عباس وابن مسعود بتلك المسحة المحمدية على رؤوسهما خيراً كبيراً وعلماً كثيراً .

وعن أبي عطية البكري رضي الله عنه قال : (انطلق بي أهلي إلى النبي ﷺ وأنا غلام شاب فمسح على رأسي) .

قال الراوي عنه : فلقد رأيت أبا عطية أسود الرأس واللحيةِ وقد أتتْ عليه مائة سنة - أي : فلم يشب شعره ببركة تلك المسحة المحمدية ﷺ .

(١) رواه الترمذي وحسنه ، والحاكم وابن حبان ، كما في (شرح المواهب) و (مجمع الزوائد) .

وعن الحارث بن عمرو السهمي : (أنه أتى النبي ﷺ في حجة الوداع وهو على ناقته العَضْباء ، وكان الحارث رجلاً جسيماً ، فدنا من النبي ﷺ حتى حاذى وجهَه بركبة النبي ﷺ فأهوى نبيُّ الله ﷺ فمسح وجهَ الحارثِ) .

فما زالت النضرة على وجه الحارث حتى هلك ـ أي :مات .

رواه الطبراني ورجاله ثقات ، كما في (الإصابة) .

وعن عبد الله بن بُسر رضي الله عنه قال : (وضع رسول الله ﷺ تسليماً ـ يده على رأسي وقال : « يعيش هذا الغلام قرناً » فعاش مائة سنة) .

وكان في وجهه ثُؤْلول فقال ﷺ : « لا يموت حتى يذهب الثُّؤلول من وجهه » .

قال الراوي : فلم يمت حتى ذهب الثؤلول من وجهه[1] .

وعن يحيى بن أبي الهيثم قال : سمعتُ يوسف بن عبد الله بن سلام يقول : (أجلسني رسول الله ﷺ في حجره ومسح على رأسي وسمّاني : يوسف) .

رواه أحمد ورواته ثقات .

أخرج البغوي من طريق ابن وهب قال : حدثني يعقوب بن

(١) قال الحافظ الهيثمي : رواه الطبراني ، والبزار بإختصار الثؤلول ، ورجال أحد إسنادي البزار رجال الصحيح غير الحسن بن أيوب الحضرمي وهو ثقة . اهـ .

عبد الرحمن القارّي قال : (أتى أبي بعبد الرحمن وعبد الله ابني عبدٍ إلى رسول الله ﷺ فبرَّك عليهما ومسح برؤوسهما ، وقال لعبد الله « هذا عائذ » فكانا إذا حَلَقا رؤوسهما نبتَ موضعُ يد رسول الله ﷺ قبل الباقي) .

كما في (الإصابة) .

وروى الطبراني وابن السكن عن مالك بن عمير : (أن النبي ﷺ وضع يده على رأسه ووجهه ، فعُمِّر ـ أي : طال عمره ـ حتى شاب رأسه ولحيته وما شاب موضع يد النبي ﷺ من رأسه ولحيته) .

وروى الزبير بن بكار في (أخبار المدينة) عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد : (أن النبي ﷺ مسح رأس عبادة بن سعد بن عثمان الزُّرقي ودعا له فمات وهو ابن ثمانين سنة وما شاب) .

ولو تتبعنا ما ورد في ذلك لعجز القلم عن إحصاء ذلك ، وإن هذه الأحاديث التي أوردناها عن عدة من الصحابة رضي الله عنهم ـ لهي أكبر دليل قاطع على إيمان الصحابة رضي الله عنهم كبارهم وصغارهم وقوة اعتقادهم بأن سيدنا محمداً رسول الله ﷺ هو فيَّاض بالخيرات والبركات ، والأسرار والأنوار ، ولذا كانوا يحرصون كل الحرص على أن يمنحهم رسول الله مسحةً على وجوههم أو رؤوسهم أو صدروهم ، أو يكرمهم رسول الله ﷺ بتفلة من تفلاته الشريفة الفياضة بالبركات من الله تعالى ، أو يكرمهم بسؤره الشريف ، أو ماء وضوئه المبارك ،أو مجَّةٍ يمجُّها في فمهم ، وذلك لتسري بركاتها في ذواتهم وذراتهم .

وهم يعلمون كلَّ العلم أن ذلك كلَّه من فضل الله تعالى على حبيبه الأكرم ﷺ ومن إكرامه تعالى وإنعامه عليه ﷺ .

قال الله تعالى : ﴿ وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ .

وقال ﴿ وأما بنعمة ربك فحدِّث ﴾ .

وقال له : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي : أعطيناك الخير الكثير ؛ ومن ذلك الخير الكثير : نهرُ الكوثر في الجنة ؛ والحوض في الموقف - إلى ما وراء ذلك .

مسحاته الشريفة ﷺ على الصدور ليثبت الإيمان في قلوب أصحابها

فمن ذلك قصةُ شيبةَ بن عثمان الأوقصي الذي أسلم يوم الفتح :

قال في (الإصابة) : وكان شيبة ممن ثبت يوم حنين بعد أن كان أراد أن يغتال النبي ﷺ فقذف الله في قلبه الرعب ، فوضع النبي ﷺ يده على صدره ، فثبت الإيمان في قلبه ، وقاتل بين يدي النبي ﷺ . رواه ابن أبي خيثمة .

قال في (الإصابة) وذكره ابن إسحاق في (المغازي) بمعناه ، وأخرجه ابن سعد عن الواقدي ، وكذا ساق البغوي بإسناد آخر عن شيبة ، وفيه : قال شيبة : فجئتُ النبيَّ ﷺ من خلفه ، فدنوتُ ثم دنوت حتى إذا لم يبق إلا أنْ أَتِرَه - أقتُله - بالسيف وقع لي شهاب من نارٍ

كالبرق ، فرجعتُ القهقرى - أي:إلى الوراء فَزعاً - فالتفتَ إليّ النبيُّ ﷺ فقال:« تعالَ يا شيبة » فوضع يده ﷺ على صدري ، فرفعتُ إليه بصري وهو أحبُّ إليَّ من سمعي وبصري . . الحديث .

أي : فصار النبي ﷺ أحبَّ من سمعه وبصره بعدما وضع يده الشريفة على صدره ، وقد كان قبلُ شديد البغض يحاول أن يغتال النبي ﷺ ! .

فانظر في أثر هذه المسحة المحمدية كيف حوَّلتْه من حَال إلى حال ! .

ومن ذلك : قصة أبي محذورة التي جاءت في (السنن) و (مسند) أحمد وفيه :

أن أبا محذورة قال : خرجتُ في نفرٍ فكنا ببعض طريق حنين ، فقَفَل رسول الله ﷺ - أي : رجع - من حنين ، فلقينا رسولُ الله ﷺ فأذَّن مؤذنُ رسول الله ﷺ بالصلاة عند رسول الله ﷺ فسمعتُ صوت المؤذِّن ونحن متنكِّبون - فصرخنا نحكيه ونستهزىء به .

فسمع رسول الله ﷺ الصوت ، فأرسل إلينا ، إلى أنْ وقفنا بين يديه ، فقال رسول الله ﷺ : « أيُّكم الذي سمعتُ صوته قد ارتفع ؟ » .

فأشار القوم كلُّهم إليَّ - وصدقوا - فأرسلهم كلَّهم وحبسني ، فقال : « قم فأذِّن بالصلاة » .

فقمتُ ولا شيء أكره إليَّ من رسول الله ﷺ ، ولا مما يأمرني به ، فقمتُ بين يدي رسول الله ﷺ فألقى إليَّ رسول الله ﷺ التأذينَ هو

فسكتَ عنه النبي ﷺ فردَّد ذلك عليه حرملة ـ أي : يشكو أمره إلى النبي ﷺ .

فأخذ النبي ﷺ بطرف لسان حرملة فقال : « اللهمَّ اجعلْ له لساناً صادقاً ، وقلباً شاكراً ، وارزقه حبِّي وحبَّ من يحبُّني ، وصَيِّر أمره إلى الخير » .

فقال حرملة : يا رسول الله إن لي إخواناً منافقين كنت فيهم رأساً ألا أدلُّك عليهم ؟ .

فقال النبي ﷺ « مَنْ جاءنا كما جئتنا استغفرنا له كما استغفرنا لك ، ومَنْ أصرَّ على ذنبه فالله أولى به ، ولا نخرق على أحدٍ سِتْراً »[1] .

رسول الله صلى الله عليه وسلم

يمسح وجه قتادة بن ملحان فيصير كالمرآة

عن أبي العلاء بن عمير قال : (كنت عند قتادة بن ملحان حيث حضر فمرَّ الرجل في أقصى الدار قال : فأبصرته في وجه قتادة ! .

قال : وكنت إذا رأيته كأن على وجهه الدهان ـ كان رسول الله ﷺ مسح وجهه) رواه الإمام أحمد ، وقال في (مجمع الزوائد) : ورجاله رجال الصحيح .

قال في (الإصابة) : وأخرج ابن شاهين عن حيان بن عمير قال :

(١) قال في (مجمع الزوائد) : ورجاله رجال الصحيح . اهـ . وأورده في (الإصابة) وعزاه أيضاً إلى ابن منده وغيره .

نفسهُ فقال : « الله أكبر الله أكبر . . » إلى آخر الأذان .

ثم دعاني حين قضيتُ التأذين فأعطاني صرَّةً فيها شيء من فضَّة ، ثم وضع ﷺ يده على ناصية أبي محذورة ، ثم أمرَّ على وجهه مرتين ، ثم مرتين على يديه ثم بلغتْ يد رسول الله ﷺ سُرَّة أبي محذورة ، ثم قال رسول الله ﷺ : « بارك الله فيك » .

قال أبو محذورة : فقلت : يا رسول الله مُرني بالتأذين بمكة ! فقال : « قد أمرتك به » .

قال أبو محذورة : فذهب كل شيء كان لرسول الله ﷺ من كراهية ، وعاد ذلك محبةً لرسول الله ﷺ . . الحديث .

وجاء في رواية أخرى : وكان أبو محذورة لا يجزُّ ناصيته ولا يفرِقُها ، لأن رسول الله ﷺ مسح عليها .

أي : فهو يريد بقاء بركتها .

فانظر في أثر هذه المسحة المحمدية كيف حَولت المبغض اللدود إلى عاشق ودود .

ومن ذلك : قصة حرملة بن زيد رضي الله عنه ـ يأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسانه ويدعو له ؛ فيذهب النفاق من صدره :

روى الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كنت عند النبي ﷺ إذ جاء حرملة بن زيد فجلس بين يدي رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله الإيمان هاهنا ـ وأشار إلى لسانه ـ والنفاقُ هاهنا ـ وأشار إلى صدره ـ ولا يذكر الله إلا قليلاً .

(مسح النبي ﷺ وجه قتادة بن ملحان ثم كبَّر فبلِيَ منه كل شيء غير وجه) .

قال : (فحضرته عند الوفاة فمرَّتْ امرأة فرأيتُها في وجهه كما أرها في المرآة) . اهـ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم

يعيد عين قتادة بن النعمان بعد سقوطها

روى الطبراني والبيهقي في (الدلائل) عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه أن عينه ذهبت يوم أُحد ، فجاء النبيَّ ﷺ فردَّها فاستقامتْ .

وروى الطبراني وابن شاهين عن (قتادة بن النعمان رضي الله عنه أنه أُصيبتْ عينه يوم أُحد ، فوقعت على وجنته ، فردَّها النبي ﷺ فكانت أصحَّ عينيه [1] .

وجاء في رواية الطبراني وأبي نعيم عن قتادة قال : كنت أتَّقي السِّهام بوجهي دون وجه رسول الله ﷺ فكان آخرها سهما ندرتْ ـ أي سقطت ـ منه حدقتي ، فأخذتها بيدي وسعيتُ إلى رسول الله ﷺ .

فلما رآها في كفّي دمعْت عيناه فقال : « اللهمّ قِ قتادةَ كما وقى وجه نبيك ، فاجعلها أحسنَ عينيه وأحدَّهما نظراً » .

فكانت أحسنَ عينيه وأحدَّهما نظراً .

---

(١) انظر (الإصابة) .

وفي رواية : وكانت لا تَرمَد إذا رمدت الأخرى [1] .

وكان ﷺ يمسح ضَرْع الشاة فيدرّ اللبن منها :

فمن ذلك : حديث أبي قِرْصافة قال : كان بدءُ إسلامي أني كنت يتيماً بين أمي وخالتي ، وكان أكثر ميلي إلى خالتي ، وكنت أرعى شُوَيْهاتٍ لي .

فكانت خالتي كثيراً ما تقول لي : يا بني لا تَمُرَّ إلى هذا الرجل ـ تعني النبي ﷺ ـ فيُغويَك ويُضلّك .

فكنت أخرج حتى آتي المرعى ، وأترك شويهاتي وآتي النبي ﷺ ، فلا أزالُ أسمع منه ، ثم أروِّح غنمي ضُمْراً يابساتِ الضروع .

وقالت لي خالتي : ما لغنمكَ يابسات الضروع ؟ .

قلت : ما أدري .

ثم عدت إليه اليوم الثاني ، ففعل كما فعل في اليوم الأول ، غير أني سمعته يقول : « يا أيها الناس ! هاجروا ، وتمسَّكوا بالإسلام ، فإن الهجرة لا تنقطع ما دام الجهاد » .

ثم إني رحتُ بغنمي كما رحت في اليوم الأول ، ثم عدت إليه في اليوم الثالث ، فلم أزل عنده أسمع منه ، حتى أسلمت وبايعته ، وصافحتُه وشكوت إليه أمر خالتي وأمر غنمي .

فقال لي رسول الله ﷺ : « جئني بالشياه » .

---

(١) كما في (شرح المواهب) .

فجئته بهنَّ ، فمسحَ ظهورهنَّ وضروعهن ، ودعا فيهن بالبركة ، فامتلأنَ شحماً ولبناً .

فلما دخلتُ على خالتي بهنّ ـ أي : بالشياه ـ قالت : يا بنيَّ هكذا فارْعَ ! .

قلت : يا خالة ما رعيتُ إلا حيث أرعى كل يوم ، ولكن أُخبركِ بقصتي ـ وأخبرتها بالقصة ، وإتياني النبيَّ ﷺ ، وأخبرتها بسيرته وبكلامه .

فقالت أمي وخالتي : إذهب بنا إليه .

فذهبت أنا وأمي وخالتي ، فأسلمْن وبايعْن رسولَ الله ﷺ[1] .

وقد تقدم حديث أم معبد الخزاعية في أول الكتاب ، لما مرَّ عليها رسول الله ﷺ .

ومن ذلك مسحه ﷺ على شاة لم يَنْزُ عليها الفحل ، لَمَّا مرَّ على ابن مسعود وهو يرعى غنماً لعقبة .

كما جاء في (مسند) الإمام أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (كنتُ أرعى غنماً لعقبة بن أبي مُعيط ، فمرَّ بي رسول الله ﷺ وأبو بكر .

فقال ﷺ : « يا غلام هل من لبن » ؟ .

قال ابن مسعود فقلت : نعم ، ولكني مؤتمن .

(١) قال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني ورجاله ثقات . اهـ . وتقدم آخر هذا الحديث في بحث كلامه ﷺ وحلاوة منطقه .

قال : « فهل من شاة لم يَنْزُ عليها الفحل ؟ » .

فأتيته بشاةٍ ، فمسح ﷺ ضرعها فنزل لبن ، فحلبه في إناء فشرب وسقى أبا بكر .

وفي رواية : (فشرب وشرب أبو بكر ، ثم قال ﷺ : للضرع : « أقلصْ » ـ أي : أمسكْ ـ فقلص) .

قال ابن مسعود : (ثم أتيته بعد هذا فقلت : يا رسول الله علّمني من هذا القول) .

وفي رواية : (علمني من هذا القرآن) .

فمسح رأسي وقال : « يرحمك الله فإنك غُلَيِّم معلَّم » .

قال : (فأخذتُ من فيه ﷺ سبعين سورة) .

تقبيل الصحابة يد النبي ﷺ وأطرافه تعظيماً وتبركاً به واقتباساً من أنواره ﷺ

عن أسامة بن شَريك قال : (أتيتُ رسول الله ﷺ ، وأصحابُه كأنهم على رؤوسهم الطير ، فَسَلَّمتُ ثم قعدت ، فلما قاموا من عنده جعلوا يقبِّلون يده .

قال شريك : فضممتُ يده إليَّ ، فإذا هي أطيبُ من ريح المسك) رواه ابن خزيمة والحاكم .

وعن كعب بن مالك : (أنه لما نزل عذرُه أتى النبيَّ ﷺ فأخذ بيده فقبَّلها) رواه الطبراني .

تقبيل الصحابة يد النبي ﷺ وقدميه الشريفتين

عن حصن بن وَحْوح الأنصاري ، أن طلحة بن البراء رضي الله عنه ، لما لقي النبيَّ ﷺ جعل يدنو منه ويَلصَق برسول الله ﷺ ويقبل قدميه .

وقال : يا رسول الله مُرْني بما أحببتَ ، ولا أعصي لك أمراً .

فعجب لذلك النبي ﷺ وهو غلام ـ أي : شاب حدَث ـ فقال له عند ذلك : « اذهبْ فاقتل أباك » .

فخرج مولِّياً ليفعل فدعاه النبي ﷺ فقال له : « أقبِلْ ، فإني لم أُبعثْ بقطيعة رحم » الحديث[1] .

وروى البيهقي والطبراني وأبو يعلى بسند جيد عن مزيدة بن مالك قال : بينما النبي ﷺ يحدِّث أصحابه قال لهم : « سيطلع عليكم من هاهنا ركبٌ هم من خير أهل المشرق » .

فقام عمر بن الخطاب نحوهم ، فلقي ثلاثةَ عشرَ راكباً فقال لهم : مَن القوم ؟ .

(١) عزاه في (الإصابة) بهذا اللفظ إلى البغوي وابن أبي خيثمة ، وابن أبي عاصم ، والطبراني ، وابن شاهين ، وابن السكن ـ ثم قال : وغيرهم .

قالوا : من بني عبد القيس .

قال : مَن أقدمَكم هذه البلاد ؟ التجارة ؟ .

قالو : لا .

قال : أما إنّ النبي ﷺ قد ذكركم آنفاً ـ أي : الآن ـ .

ثم مشى معهم حتى أتوا النبي ﷺ فقال عمر للقوم : هذا صاحبكم الذي تريدون .

فرموا بأنفسهم عن ركائبهم ، فمنهم مَن مشى إليه ، ومنهم مَن هرول ، ومنهم مَن سعى ، حتى أتوا النبي ﷺ .

وفي حديث الزارع بن عامر ، عند أبي داود والبيهقي ، وكان من وفد عبد القيس ، قال :

لما قدمنا المدينة فجعلنا نتبادر من رواحلنا ، نقبِّل يد رسول الله ﷺ ورجله[1] .

وانتظر الأشجُّ حتى أتى غَيْبته ـ صندوق صغير ـ فلبس ثوبيه ـ الأبيضين ـ ثم جاء يمشي حتى أخذ بيد رسول الله ﷺ فقبَّلها .

فقال له ﷺ : « إن فيك خَصلتين ـ وفي رواية : خلَّتين ـ يحبهما الله ورسوله : الحلم والأناة » .

فقال : يا رسول الله أخلتين تخلَّقتُ بهما أم جَبَلني الله عليهما ؟ .

قال : « بل جَبَلك الله عليهما » .

(١) انظر (سنن) أبي داود : باب في قبلة الرجل ٤ : ٤٨٣ .

فقال : الحمد لله الذي جبلني على خصلتين يحبهما الله ورسوله .

وعند أبي يعلى[1] : قديماً كانا فيَّ أم حديثاً ؟ .

فقال ﷺ : « بل قديماً » .

فقال : الحمدلله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله .

ومن ذلك : تبرُّك عمرو بن أبي عمرو المزني بقَدَم النبي ﷺ :

قال في (الإصابة) : أخرج حديثه النسائي والبغوي وابن السكن وابن منده بعلوٍ من طريق هلال بن عامر عن رافع بن عمرو المزني قال : إني لفي حجة الوداع خماسِ أو سداسِ ، فأخذ أبي بيدي حتى انتهينا إلى النبي ﷺ بمنى يوم النحر ، فرأيته ﷺ يخطب على بغلة شهباء .

فقلت لأبي : مَن هذا ؟ .

فقالَ : هذا رسول الله ﷺ .

قال : فدنوتُ حتى أخذتُ بساقه ثم مسحتُها حتى أدخلتُ كفِّي فيما بين أخمص قدمه والنعل ـ فكأني أجدُ بَرْدها على كفِّي .

فهو يتمسَّح متبركاً بقدم النبي ﷺ .

ومن ذلك : تقبيل عبد الله بن أبي سبقة ـ ويقال سبقه ـ ساق النبي ﷺ ورجله :

روى الإمام البغوي عن عبد الله بن أبي سبقة الباهلي رضي الله عنه

(١) انظر (شرح) الزرقاني على (المواهب) ٤ : ١٦ ، وانظر (مجمع الزوائد) ٨ : ٤٢ .

قال : (أتيت النبي ﷺ وهو واقف على بعيره ـ زاد ابن منده في روايته : في حجة الوداع ـ وكأن رجله في غرزةٍ لحماره ، فاحتضنتها ، فقَرَعَني بالسوط .

فقلت : يا رسول الله القصاصَ .

قال : فناولني النبي ﷺ السوط ؛ فقبَّلتُ ساقه ورجله ﷺ) .

كما في (الإصابة) .

تقبيل الصحابة مواضع من جسده الشريف ﷺ

قال أبو داود في (سننه) : باب في قُبلة الجسد .

ثم أسند إلى عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن أُسَيْد بن حُضَير ، بينما هو يحدث القوم ـ وكان فيه مزاح ـ بينا يُضحكهم ، فطعنه النبي ﷺ في خاصرته بعود .

فقال : اصْبِرني ـ إي : أقِدْني ـ .

فقال : « اصْطَبِر » .

فقال أسيد : إن عليك قميصاً وليس عليَّ قميص .

فرفع النبي ﷺ عن قميصه ، فاحتضنه وأخذ يقبِّل كَشْحه وقال : إنما أردتُ هذا يا رسول الله ﷺ .

وروى البيهقي في (سننه) بإسناد قوي ـ كما قال الذهبي ـ عن ابن أبي ليلى قال : كان أسيد بن حضير رجلاً صالحاً ضاحكاً مليحاً ، فبينا هو عند رسول الله ﷺ يحدِّث القومَ ويُضحكهم ، فطعنه رسول الله ﷺ

بأصبعه في خاصرته .

فقال أسيد : أوجعتني يا رسول الله ! .

فقال له ﷺ : « فاقتصَّ » .

قال : يا رسول الله إن عليك قميصاً ، ولم يكن عليَّ ـ لما طعنتني ـ قميص ؟ .

قال : فرفع رسول الله ﷺ قميصه ، قال : فاحتضنه أسيد ، ثم جعل يقبِّل كشحه ـ وقال : بأبي وأمي يا رسول الله أردتُ هذا[1] .

وروى ابن إسحاق عن حَبان بن واسع ، عن أشياخ من قومه : (أن رسول الله ﷺ عدَّل الصفوف يوم بدر ، وفي يده قِدْح ـ سهم ـ يعدِّل به القوم ، فمرَّ بسَواد بن غزية رضي الله عنه ، فطعن في بطنه .

فقال : أوجعتني فأقِدْني .

فكشف له ﷺ عن بطنه ، فاعتنقه سواد وقَبّل بطنه .

فقال له ﷺ : « ما حملكَ على هذا يا سواد ؟ » .

فقال : يا رسول الله حضر ما ترى ـ يعني : القتال ـ فأردتُ أن يكون آخر العهد بك أنْ يمسَّ جلدي جلدَك .

فدعا له رسول الله ﷺ بخير)[2] .

وقال الحافظ في (الإصابة) : قال ابن عبد البر : وهذه القصة

(١) انظر (كشف الخفاء) ٢ : ٤١ .

(٢) انظر (البداية) لابن كثير و (الإصابة) ٤ : ٩٤ .

لسواد بن عمرو ، قال ابن حجر : قلت : لا يمتنع التعدد لا سيما مع اختلاف السبب ، ثم قال الحافظ ابن حجر : وأخرج البغوي من طريق عمرو بن سليط ، عن الحسن ، عن سواد بن عمرو وكان يصيب من الخَلوق[1] فنهاه النبي ﷺ .

وفيها : (فلقيه ذات يَوم ومعه جريدة ، فطعنه في بطنه .

فقال : أقِدْني يا رسول الله ! فكشف له عن بطنه فقال : « اقتصَّ » فألقى الجريدة وطفق يقبِّله) ـ أي :يقبل بطن رسول الله ﷺ .

تبرك الصحابة بأجزاء النبي ﷺ وآثاره في حياته وبعد وفاته ﷺ

كان أصحاب النبي ﷺ يتبرّكون بأجزاء النبي ﷺ وآثاره ، وثيابه وطعامه وشرابه ، وذلك لإيمانهم بأن أجزاءه الشريفة ، وآثاره الكريمة ، هي مليئة بالخيرات والبركات ، لأنها أجزاؤه وآثاره ﷺ .

ونحن نورد من ذلك نماذج موجزة تعبِّر عما وراءها :

تبرّك الصحابة بشَعر النبي ﷺ وتكريمهم له وحرصهم عليه :

روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : (رأيت رسول الله ﷺ والحلاّق يحلقه ، وأطاف به أصحابه ، فما يريدون أن تقع شعرة إلاّ في يد رجل) .

(١) الخلوق : طيب مركب من الزعفران أو غيره ، وتغلب عليه الحمرة والصفرة ، وإنما نهي عنه لأنه من طيب النساء اهـ (نهاية) .

أي : تعظيماً لها وتبركاً بها .

وفي (الإصابة) جُعْشُم الخير بايَعَ تحت الشجرة وكساه النبي ﷺ قميصه ونعليه وأعطاه من شعره ﷺ .

وفي (الصحيحين) وغيرهما ، عن أنس رضي الله عنه : (أن النبي ﷺ أتى الجمرة فرماها ، ثم أتى منزله بمنىً ، ونحر ، ثم قال للحلاق : « خذ » وأشار إلى جانبه الأيمن ، ثم الأيسر ، ثم جعل ﷺ يعطيه ـ أي : يعطي شعره ـ الناس) .

وذلك ـ كما قال الحافظ الزرقاني ـ للتبرك به ، واستشفاعاً إلى الله تعالى بما هو منه ﷺ وتقرباً بذلك إليه اهـ .

وفي رواية : (أن النبي ﷺ قال للحلاق : « ها » وأشار بيده إلى الجانب الأيمن ، فحلق ، فقسم شعره ﷺ بين مَن يديه ـ من الصحابة ـ ثم أشار إلى الحلاق إلى الجانب الأيسر ، فحلق ، فأعطاه لأم سُليم بنت مِلْحان والدة أنس) .

وعند الإمام أحمد زيادة : (وقلَّم ﷺ أظفاره ، وقسمها بين الناس) .

وفي رواية لهما : (أنه ﷺ دفع الأيسر إلى أبي طلحة وقال له : « اقسمه بين الناس » .

وفي رواية : (أنه ﷺ أعطى شعر الجانب الأيمن ، ثم أعطى الجانب الأيسر ، وقال : « اقسمه بين الناس ») .

قال الإمام النووي : وفيه التبرك ـ أي : دليل التبرك ـ بشعر النبي ﷺ وجواز اقتنائه . اهـ .

وقال أبو عبد الله الأبّيّ : إعطاؤه ﷺ لأبي طلحة ليس بمخالف لقوله : « اقسمه بين الناس » لاحتمال أن يكون أعطاه لأبي طلحة ليفرقه .

ويبقى النظر في اختلاف الروايات في شعر الجانب الأيسر :

ففي الرواية الأولى أنه ﷺ فرقه كالأيمن .

وفي الرواية الثانية أنه أعطاه أم سليم .

وفي الثالثة أنه أعطاه أبا طلحة .

وفي الرواية الرابعة أنه ﷺ أعطى الشقين لأبي طلحة .

قال : فيحتمل أنه ﷺ أعطاه أم سليم لتعطيه لزوجها أبي طلحة ليفرقه ، ويحتمل أنه ﷺ أعطى الشعر لأبي طلحة على أن يعطيه أبو طلحة لأم سليم زوجته ، لتفرقه على النساء اهـ

أي : فيكون شعر الأيمن للرجال ، وشعر الأيسر للنساء .

قال الحافظ الزرقاني : إنما قسم رسول الله ﷺ شعره في أصحابه ، ليكون بركةً باقية بينهم ، وتذكرةً لهم ، وكأنه ﷺ أشار بذلك إلى اقتراب الأجل ، وخَصَّ أبا طلحة بالقسمة ، التفاتاً إلى هذا المعنى ، لأنه هو الذي حفر القبر الشريف ولَحَد له وبنى فيه اللَّبِن اهـ .

وروى البخاري عن محمد بن سيرين قال : قلت لعَبيدة السلماني :

عندنا من شعر النبي ﷺ أصبناه ـ أي : حصل لنا ـ من قِبَل ـ أي : من جهة ـ أنس ، أو من قِبَل أهل أنس .

فقال عبيدة : لأنْ تكون عندي شعرة منه ، أحَبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها .

وفي رواية الإسماعيلي : أحبُّ إليَّ من كل صفراء وبيضاء ـ يعني : الذهب والفضة .

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : (لما حلق رسول الله ﷺ رأسه ـ أي : يوم حجة الوداع ـ كان أبو طلحة أوَّل من أخذ من شعره ﷺ) .

وفي تقسيمه ﷺ شعره الشريف يوم حجة الوداع ، بيانٌ منه وإعلام بما أودع الله تعالى في جسمه وأجزائه الشريفة ، من الخيرات والبركات ، وبما خصَّه به من الأسرار والأنوار ، وأن ذلك من باب الحقيقة والواقع وليس من باب الظنّ أو التخيُّل .

انتصار خالد بن الوليد واستفتاحه في حروبه بشعر النبي ﷺ :

عن جعفر بن عبد الله بن الحكم أن خالد بن الوليد فَقَد قلنسوةً له يوم اليرموك .

فقال : اطلبوها ـ فلم يجدوها .

فقال : اطلبوها ـ فوجدوها ؛ فإذا هي قلنسوة خَلِقة ـ أي : ليست بجديدة ـ .

فقال خالد : اعتمر رسول الله ﷺ فحلق رأسه ، فابتدر الناس

جوانب شعره ، فسبقتهم إلى ناصيته ، فجعلتها في هذه القلنسوة ، فلم أشهد قتالاً وهي معي إلا رُزقتُ النصر .

قال الحافظ الهيثمي : رواه الطبراني وأبو يعلى بنحوه ، ورجالهما رجال الصحيح ، وجعفر سمع من جماعة من الصحابة ، فلا أدري سمع من خالد أم لا .

وروى الإمام أحمد عن محمد بن عبد الله بن زيد ، أن أباه حدَّثه أنه شهد النبي ﷺ على المنحر ، هو ورجل من الأنصار ، وهو يقسم الأضاحي ، فلم يُصبْه شيء منها ولا صاحبه ، فحلق رسول الله ﷺ رأسه في ثوبه ، فأعطاه ـ أي : بعضاً ـ لعبد الله بن زيد .

وقلَّم أظفاره ، فأعطاه صاحبه .

قال : فإنه لعندنا ـ يعني : أن الشعر الشريف عند عبد الله ، وقُلامة أظفاره عند صاحبه .

تبرك الصحابة بموضع أصابع رسول الله ﷺ :

روى الإمام أحمد عن جابر بن سَمُرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كان إذا أُتي بطعام فأكل منه ، بعث بفضله إلى أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه .

وكان أبو أيوب يضع أصابعه حيث يرى أصابع رسول الله ﷺ .

فأُتي النبيُّ ﷺ بقصعة ـ أي : إناء فيه طعام ـ فوجد ﷺ فيها ريحَ ثوم ؛ فلم يذقها النبي ﷺ ؛ وبعث بها إلى أبي أيوب ، فنظر أبو أيوب فيها فلم يرَ فيها أثر أصابع النبي ﷺ ، فلم يذقها .

فأتاه فقال : يا رسول الله لم أرَ فيها أثر أصابعك ؟! .

فقال ﷺ : « إني وجدتُ فيها ريح ثوم » .

فقال أبو أيوب : تبعث إليَّ مالم تأكل ؟ .

فقال ﷺ : « إني يأتيني الملَك » .

قال الحافظ الهيثمي : رجاله رجال الصحيح اهـ ورواه مسلم في (الصحيح)

تبرك الصحابة بسؤر النبي ﷺ

روى الشيخان عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : (أُتي النبي ﷺ بشراب ، فشرب ، وعن يمينه غلام ، وعن يساره الأشياخ .

فقال ﷺ للغلام : « أتاذنُ لي أن أعطي هؤلاء ؟ » .

فقال الغلام : والله يا رسول الله لا أُوثِرُ بنصيبي منك أحداً ، فتلَّه ـ أعطاه ـ رسولُ الله ﷺ في يده ـ أي : فشرب الغلام ـ وهو عبد الله بن عباس رضي الله عنه

تبرك الصحابة بإناء مسه فم النبي ﷺ

روى الإمام أحمد وغيره ، عن أنس رضي الله عنه : (أن النبي ﷺ دخل على أمِّ سُليم وفي البيت قِربة معلَّقة ، فشرب مِن فيها ـ أي : من فم القربة ـ وهو قائم ، قال أنس : فقَطَعتْ أمُّ سليم فمَ القِربة ، فهو عندنا) .

والمعنى : أن أم سليم قطعت فم القربة الذي هو موضع شربه ﷺ

واحتفظت به في بيتها ، للتبرك بأثر النبي ﷺ .

وتقدم الكلام على تطيُّب الصحابة بعرق النبي ﷺ وتبركهم به ، واستشفائهم بريقه الشريف ﷺ .

تبرك الصحابة بثياب رسول الله ﷺ واستشفاؤهم بها

روى مسلم عن عبد الله مولى أسماء ، عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، أنها أخرجتْ إلينا جُبةً طيالسة كسروانية[1] ، لها لِبْنةُ[2] ديباجٍ ، وفرجاها مكفوفان بالديباج[3] وقالت : هذه جبة رسول الله ﷺ كانت عند عائشة ، فلما قُبِضتْ رضي الله عنها قَبَضْتُها ـ أي : أخذت الجبة ـ وكان النبي ﷺ يلبسها ، فنحن نغسلها للمرضى .

وفي رواية : نغسلها للمريض منا إذا اشتكى ، نستشفي بها .

أي: لمخالطتها لعرقه الشريف وملابستها لبدنه الطيّب المبارك ﷺ .

وروى البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : أتت امرأة ببردة منسوجة فيها حاشيتها ؛ فقالت : يا رسول الله أكسوك هذه .

فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها فلبسها ـ وفي رواية ابن ماجه : فخرج إلينا فيها ـ فرآها عليه رجل من الصحابة ، فقال : يا رسول الله ما أحسن هذه البردة فأكسُنيها ! فقال له ﷺ : « نعم » .

وفي رواية للبخاري : فجلس ما شاء الله في المجلس ، ثم رجع

(١) نوع من الثياب لها علم وحاشية .

(٢) بكسر اللام وسكون الباء : رقعة ـ أي : قطعة ـ في جيب القميص .

(٣) قال الزرقاني : أي : عمل على جيبها وكمها كفاف من حرير ، وكفة كل شيء : طرفه وحاشيته .

فطواها ، وأرسل بها إليه .

فلما قام ﷺ لامه ـ أي : لام السائلَ ـ أصحابُه وقالوا للسائل : ما أحسنتَ حين رأيت النبي ﷺ لبسها محتاجاً إليها ، ثم سألته إياها ، وقد عرفت أنه لا يُسأل شيئاً فيمنعه ؟ ! ـ وفي رواية : لا يرد سائلاً. فقال الرجل : رجوتُ بركتها حين لبسها النبي ﷺ لعلّي أكفَّن فيها .

تبرك الصحابة بنخامة النبي ﷺ وبماء وضوئه

جاء في (الصحيحين) ـ واللفظ للبخاري ـ من حديث صلح الحديبية قال : ثم إن عروة بن مسعود ـ الذي جاء وقتئذ وسيطاً عن المشركين في مكة ـ جعل يرمُق النبي ﷺ بعينيه ، قال : فوالله ما تنخَّم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم ـ أي : من الصحابة ـ فدلك بها وجهه وجلده .

وإذا أمرهم ـ رسول الله ﷺ ـ بأمر ابتدروا أمره .

وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه .

وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، ومايُحِدّون النظر إليه تعظيماً له ﷺ .

فرجع عروة بن مسعود إلى أصحابه ـ في مكة ـ فقال : أيْ قوم ! والله لقد وفدتُ على الملوك ، ووفدتُ على قيصر وكسرى والنجاشي ،

والله إنْ رأيت ـ أي : ما رأيت ـ مِلكاً قطُّ يعظمه أصحابه مثلَ ما يعظم أصحابُ محمدٍ محمداً ! .

والله إن تنخَّم ـ أي : ما تنخم ـ نخامةً إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ! ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وَضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ! وما يحدّون النظر إليه تعظيماً له ! وإنه قد عرض عليكم خطةَ رشدٍ فاقبلوها . الحديث .

مداواة النبي ﷺ أصحابه ببصاقه الشريف واستشفاؤهم بذلك

كان ﷺ إذا بصق على مريض أو نفث أو تفل على موضع مرضه برىء المريض وشفي بإذن الله تعالى ، وقد وقع من ذلك أمور كثيرة شهيرة ، ولذا كان الصحابة رضي الله عنهم يحرصون كلَّ الحرص على الاستشفاء بريقه ﷺ .

فمن ذلك : تفله ﷺ في عيني عليّ كرم الله تعالى وجهه وقد أصابه الرمد الشديد ، حتى إنه لا يستطيع أن يمشي وحده إلا مع رجل يأخذ بيده ، فيبصق رسول الله ﷺ في عينيه فيبرأ في ساعته :

روى الشيخان وغيرهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : (قال : رسول الله ﷺ يوم خيبر : « لأعطينَّ الرايةَ غداً رجلاً يفتح الله على يديه ، يحبُّ اللهَ ورسولَه ، ويحبُّه الله ورسولُه » .

فلما أصبح الناس غدَوْا على رسول الله ﷺ وكلُّهم يرجو أن يُعطاها .

فقال ﷺ : « أين عليُّ بن أبي طالب ؟ » .

فقالوا : هو يا رسول الله يشتكي عينيه .

قال : « فأرْسلوا إليه » فأُتي به .

وفي رواية لمسلم : قال سلمة : فأرسلني رسول الله ﷺ إلى عليّ ، فجئتُ به أقوده أرمد .

فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ، فبرىء كأنه لم يكن به وجع . .) الحديث ، كما تقدم .

ومن ذلك : نفثاته ﷺ على ساق سلمة وقد أصيبت يوم خيبر فبرأ من ساعته :

روى أبو داود وغيره عن يزيد بن عبد الرحمن قال : (رأيت أثر ضربة في ساق سلمة فقلتُ : ما هذه ؟

فقال أصابتني يوم خيبر ضربة ـ فقال الناس : أُصيبَ سلمة ، فأتَى بي إلى النبي ﷺ فنفثَ فيَّ ثلاث نفثات فما اشتكيتها حتى الساعة) .

وفي (الإصابة) : أخرج ابن حبان في (صحيحه) والضياء في (المختارة) وقال : قال ابن منده : عمرو بن معاذ الأنصاري كان تفل النبي ﷺ على رجله حين قُطِعتْ حتى برأت .

ومن ذلك : نفثه ﷺ في فم بشير بن عقربة الجهني فتنحلُّ عقدة لسانه :

روى إسحاق بن إبراهيم الرملي في (فوائده) عن بشير بن عقربة الجهني : (أن أباه أتى به النبيَّ ﷺ فقال ﷺ : « مَنْ هذا معك يا عقربَة ؟ » .

فقال : ابني بحير .

فقال ﷺ له : « ادنُ » .

فدنوتُ حتى قعدت على يمينه ، فمسح ﷺ على رأسي بيده فقال : « ما اسمك ؟ » .

قلتُ : بحير يا رسول الله .

فقال ﷺ : « لا ـ ولكن اسمك بشير » .

وكانت في لساني عقدة فنفث النبي ﷺ في فيَّ ، فانحلَّتْ العقدة من لساني وابيضَّ كل شيء في رأسي ـ أي : بعد كبر سنه ـ ما خلا ما وضع ﷺ يده عليه ، فكان أسود) كما في (الإصابة) .

وروى الطبراني عن محمد بن حاطب قال : (لما قدمتْ بي أمي من أرض الحبشة حين مات أبي حاطبٌ ، فجاءت أمي إلى النبي ﷺ وقد أصاب إحدى يديَّ حريق من نار .

فقالت : يا رسول الله هذا محمد بن حاطب ابن أخيك ، وقد أصابه هذا الحريق من النار .

قال محمد بن حاطب : فلا أكذب على رسول الله ﷺ فلا أدري أنَفَث أم مسح على رأسي ، ودعا لي بالبركة وفي ذريتي) ، كما في (مجمع الزوائد) .

قال في (الإصابة) بعد نقله صدرَ هذا الحديث : ورواه أيضاً عبد الرحمن بن عثمان بن محمد الحاطبي عن أبيه عن جده ، أخرجه أحمد وابن أبي خيثمة والبغوي وفيه :

(أن أمه قالت : يا رسول الله هذا محمد بن حاطب وهو أول مَنْ سُمِّي بك ـ أي : في الحبشة ـ

قالت : فمسح رسول الله ﷺ على رأسك وتفل في فيك ودعا لك بالبركة) .

ومن ذلك : ذهاب بذاءة اللسان ببركة ريقه **الشريف** ﷺ :

أخرج الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه : (أن امرأة بذيَّة اللسان ، جاءت إلى النبي ﷺ وهو يأكل قديداً فقالت : ألا تطعمني ؟

فناولها مما بين يديه .

قالت : لا إلاَّ الذي في فيك .

فأخرجه ﷺ فأعطاها ؛ فألقته في فمها ، فأكلته فلم يُعلَم من تلك المرأة بعد ذلك الأمرُ الذي كانت عليه من البذاءة والذَّرابة)

الماء يطيب ويحلو بريقه الشريف ﷺ :

أخرج الإمام أحمد وابن ماجه والبيهقي وأبو نعيم عن وائل بن حُجْر

قال : (أُتي النبي ﷺ بدلوِ ماء فشرب من الدلو ، ثم صُبَّ في البئر ـ أو قال : ثم مجَّ في البئر ـ ففاح منها مثل رائحة المسك) .

وروى أبو نعيم عن أنس رضي الله عنه : (أن النبي ﷺ بزق في بئرٍ في دار أنس فلم يكن بالمدينة بئر أعذب منها) .

وروى البيهقي عن أنس رضي الله عنه أنه سئل عن بئرِ قُباء فقال : (لقد كانت هذه البئر وإن الرجل لينضح على حماره فتنزح .

فجاء رسول الله ﷺ وأمر بذَنوب ـ أي : دلوٍ عظيمة ـ فسُقي ، فإما أن يكون توضأ منه أو تفل فيه ، ثم أمر به فأُعيد في البئر ، فما نَزَحَتْ بعدُ) .

وقد أخرج ابن سعد عن أنس أيضاً نحو ذلك .

وأخرج ابن السكن عن همام بن نفيل السعدي قال : (قدمت على رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله حفر لنا بئر فخرجت مالحة

فدفع إليّ إداوةً فيها ماء فقال : « صُبَّه فيها » فصبَّه فيها فعذبتْ فهي أعذب ماءٍ باليمن) .

الصحابة يتبركون بريقه الشريف ﷺ

روى البغوي في (معجمه) بإسناده عن ابن عمر رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب كان يقرِّب ابن عباس ويقول له : إني رأيتُ رسول الله ﷺ دعاك فمسح رأسك وتفل في فيك ، وقال : « اللهم فقهْه في الدين وعلمه التأويل » .

أورد ذلك في (الإصابة) ثم قال : ورواه ابن خيثم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس بالمرفوع نحوه . اهـ .

وكان الصحابة رضي الله عنهم يأتون بأولادهم إلى النبي ﷺ ليُحنِّكهم فَيمصُّون ريقه الشريف ﷺ ـ وهذا باب واسع جداً .

ومن ذلك : ما جاء في (الصحيحين) عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها وعن أبيها أنها حَملتْ بعبد الله بن الزبير بمكة .

قالتْ : (فخرجتُ وأنا مُتم ـ أي : قد دنا وِلادُها ـ فقدمت المدينة فنزلت بقباء فولدته ، ثم أتيتُ رسول الله ﷺ فوضعه في حِجْره ، ثم دعا بتمرةٍ فمضغها ثم تفَل في فيه ـ فكان أوَّلَ شيءٍ دخل جوفه ريقُ رسول الله ﷺ ثم حَنّكه بالتمرة ، ثم دعا له وبَرَّك عليه فكان أوّل مولودٍ وُلِد في الإسلام) ـ أي : أول مولود بالمدينة من المهاجرين .

وفي (الصحيحين) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : (وُلِد لي غلام فأتيتُ به رسول الله ﷺ فسمَّاه إبراهيم، وحنَّكه بتمرةٍ، ودعا له بالبركة ، ودفعه إليَّ) ـ وكان أكبرَ ولد أبي موسى .

وفي (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه أنه انطلق بابن لأبي طلحة رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ .

قال أنس : فلما رآني رسول الله ﷺ قال : « لعلَّ أم سُليم وَلَدت ؟ » .

قلت : نعم .

قال : فوضعته في حِجْره ﷺ ودعا رسول الله ﷺ بعجوةٍ من عجو

المدينة ـ أي : تمرها ـ فلاكها في فيه ﷺ حتى ذابتْ ثم قذفها في فِي الصبيِّ ـ فجعل الصبيُّ يتلمَّظُها ـ أي : يتطعَّمها ـ

فقال رسول الله ﷺ : « انظروا حبَّ الأنصار التمر » فمسح وجهه وسمَّاه عبد الله . .) الحديث .

وروى الزبير بن بكار قال : حدثني إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز قال : (وُلد عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ؛ فكان ألطف مَنْ وُلِد ، فأخذه جده أبو لبابة في خرقة فأحضره عند رسول الله ﷺ وقال : ما رأيتُ مولوداً أصغر خِلقةً منه .

فحنَّكه رسول الله ﷺ ومسح رأسه ودعا له البركة .

قال : فما رؤي عبد الرحمن في قوم إلَّا فَرَعهم طولاً ، وزوَّجه عمر بنته فاطمة) .

كما جاء في (الإصابة) وغيرها .

تبرك الصحابة بدم النبي ﷺ

أخرج الطبراني والبزار والحاكم والبيهقي وأبو نعيم في (الحلية) من حديث عامر بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه عبد الله بن الزبير قال : (احتجم رسول الله ﷺ فأعطاني الدم بعد فراغه من الحجامة وقال: « اذهب يا عبد الله فغيِّبه » .

وفي رواية « اذهب بهذا الدم فوارِهِ ـ أي : أَخفه ـ حيث لا يراه أحد » .

قال عبد الله : فذهبت به فشربته ، ثم أتيته ﷺ .

فقال : ما صنعتَ ؟ » ـ أي بالدم ـ .

قلتُ : غيبتُه .

قال : « لعلك شربتَه ؟ » قال : نعم .

قال : « ويل لك من الناس ، وويل للناس منك ») .

وفي رواية : فقال رسول الله ﷺ : « فما حملكَ على ذلك ؟ » .

فقال : علمتُ أن دَمَك لا تُصيبه نارُ جهنم ، فشربته لذلك .

فقال ﷺ : « ويل لك من الناس ، وويل للناس منك » .

وروى الدارقطني في (سننه) عن أسماء قالت : (احتجم ﷺ فدفع دمَه لابني عبد الله ، فشربه ، فأتاه جبريلُ فأخبر النبيَّ ﷺ فقال : « ما صنعتَ ؟ » .

قال: كرهتُ أن أصبَّ دمك ! .

فقال ﷺ : « لا تمسُّه النار » ومسح على رأسه وقال : « ويل للناس منك، وويل لك من الناس ») .

وفي (سنن) سعيد بن منصور من طريق عمرو بن السائب ، أنه بلغه أن مالكَ بن سنان والدَ أبي سعيد الخدري : (لما جُرح النبي ﷺ في وجهه الشريف يوم أحد ، مصَّ جرحه حتى أنقاه ، ولاح ـ أي : ظهر محل الجرح بعد المصِّ ـ أبيض .

فقال له ﷺ : « بُجَّه » .

فقال : والله لا أبجّه أبداً ! ثم ازدرده ـ أي : ابتلعه ـ .

فقال النبي ﷺ : « مَن أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » .

فاستشهد ـ أي : بأحد ـ .

ورواه الطبراني أيضاً ، وفيه : قال ﷺ : « من خالط دمي دمَه لا تمسُّه النار » .

قال الهيثمي : لم أرَ في إسناده من أُجمع على ضعفه . اهـ .

وروى سعيد بن منصور أيضاً أنه ﷺ قال : « مَن سرّه أن ينظر إلى رجل خالط دمي دمه فلينظر إلى مالك بن سنان »[1] .

قال العلامة القسطلاني : وفي كتاب (الجوهر المكنون في ذكر القبائل والبطون) أن ابن الزبير لما شرب دم حجامة النبي ﷺ تضوَّع ـ أي : فاح ـ فمه مسكاً ، وبقيت رائحته موجودة في فمه ، إلى أن قتل رضي الله عنه .

وأخرج الطبراني عن سفينة رضي الله عنه قال: (احتجم النبي ﷺ فقال : « خذ هذا الدمَ فادفِنْه » حفظاً من الدواب والطير والناس .

قال : فتغيّبتُ فشربته ، ثم ذكرت ذلك له ﷺ فضحك) .

قال الهيثمي بعدما أورده : رجال الطبراني ثقات . اهـ .

(١) انظر (المواهب وشرحه) للزرقاني ٤ : ٢٢٨

تبرك الصحابة بدراهم مستها يد النبي ﷺ

قال الحافظ ابن حجر في (الجزء الثالث من المطالب العالية) :

باب التبرك بآثار الصالحين :

ثم أورد الأحاديث التالية : عن محمد بن سوقة عن أبيه قال : أتيت عمرو بن حُريث أتكارى منه بيتاً في داره .

فقال : تكارَ ـ أي : استأجِرْ ـ فإنها مباركة على من هي له ، مباركة على مَن سكنها .

فقلت : من أيِّ شيء ذلك ؟

قال : أتيت رسول الله ﷺ وقد نُحِرتْ جَزور ، وقد أمر ﷺ بقسمتها .

فقال للذي يقسِمها : « أعطِ عَمْراً منها قسماً » .

قال عمرو : فلم يعطني وأغفلني .

فلما كان الغد أتيتُ رسول الله ﷺ وبين يديه دراهم .

فقال ﷺ : « أخذت القسم الذي أمرت لك به ؟ » ـ أي : من لحم الجزور ـ .

قلت : يا رسول الله ما أعطاني شيئاً .

قال عمرو : فتناول رسول الله ﷺ من الدراهم فأعطاني ، فجئت بها إلى أمّي فقلت : خذي هذه الدراهم التي أخذها رسول الله بيده ثم أعطانيها ، أمسكيها حتى ننظر في أي شيء نضعها ؛ ثم ضرب الدهر

ضرباته ـ أي : مضى زمن طويل ـ حتى اشتريتُ هذه الدار ـ أي : بتلك الدراهم المباركة .

ثم أورد حديث خالد بن الوليد المتقدم وقوله فيه : (فحلق رسول الله ﷺ فاستبق الناس إلى شعره ، فاستبقتُ إلى الناصية فأخذتها ، فاتخذت قلنسوة فجعلتها في مقدَّم القلنسوة ، فما وجهتها في وجهٍ إلا فتح عليّ) .

ثم أورد الحديث عن ابن سيرين قال : (استوهبتُ من أم سُليم من المسك الذي كانت تعجنه بعَرَق النبي ﷺ ، فَوَهَبتْ لي منه ـ فلما مات ابن سيرين حُنِّط بذلك المسك) .

تبرك الصحابة بعصا النبي ﷺ

عن محمد بن سيرين ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أنه كان عنده عُصيَّة لرسول الله ﷺ فمات ـ أنس ـ فدفنتْ معه بين جنبيه وقميصه .

ذكر ذلك صاحب (التراتيب الإدارية) نقلا عن (جمع الجوامع) معزوّاً للبيهقي ، وابن عساكر ، ونقلاً عن (كنز العمال) .

روى الإمام أحمد في (مسنده) عن ابن عبد الله بن أُنيس عن أبيه عبد الله بن أُنيس رضي الله عنه قال : (دعاني رسول الله ﷺ فقال : « إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نُبيح يجمع لي الناسَ ليغزوَني وهو بعُرَنة ـ موضع قريب من مكة ـ فأْتِه فاقتله » .

قال : قلت : يا رسول الله انعتْه لي حتى أعرفه .

قال : « إذا رأيتَه وجدتَ له إقشعريرة »[1] .

قال : فخرجتُ متوشِّحاً سيفي حتى وقفتُ عليه وهو بعُرَنة مع ظعن يرتاد لهنَّ منزلاً ، وحين كان وقت العصر ، فلما رأيتُه وجدتُ ما وصف لي رسول الله ﷺ من الإقشعريرة .

قال عبد الله : فأقبلتُ نحوه وخشيتُ أن يكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصلاة فصليت وأنا أمشي نحوه : أُومىء برأسي للركوع والسجود ، فلما انتهيتُ إليه قال : مَن الرجل ؟

قلتُ : من العرب سمع بك ، وبجمعك لهذا الرجل فجاءك لهذا .

قال : أجل أنا في ذلك .

قال عبد الله : فمشيتُ معه شيئاً حتى إذا أمكنني حملتُ عليه السيف حتى قتلته ـ ثم خرجت وتركتُ ظعائنه مكبَّاتٍ عليه .

فلما قدمتُ على رسول الله ﷺ فرآني قال : « أفلح الوجه » .

قال عبد الله : قلت قتلته يا رسول الله .

قال : « صدقت » .

قال : ثم قام معي رسول الله ﷺ فدخل بيته فأعطاني عصاً فقال ﷺ : « أمسِك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس » .

قال : فخرجتُ بها على الناس .

(١) في (مجمع الزوائد) نقلا عن (المسند) بلفظ : « قُشَعْريرة » ، وهي : تقبض في الجلد وتجمع وتخشن كالأرض المقشعرة من القحط .

فقالوا : ما هذه العصا ؟

قلتُ : أعطانيها رسول الله ﷺ وأمرني أن أُمسكها .

قالوا : أولا ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسألَه عن ذلك ؟

قال : فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ فقلتُ يا رسول الله لِمَ أعطيتني هذه العصا ؟

فقال ﷺ : « آيةٌ ـ أي : هي علامة ـ بيني وبينك يوم القيامة ، إنَّ أقل الناس المتخصِّرون يومئذٍ » .

قال : فقرنها عبد الله بن أنيس بسيفه ، فلم تزل معه ، حتى إذا مات أمر بها فضُمّتْ معه في كفنه ، ثم دُفنا جميعاً) .

ورواه أبو يعلى والبيهقي .

ورواه الطبراني من طريق محمد بن كعب القرظي وفيه : (فأعطاه النبي ﷺ مِخْصَرة ـ أي : عصاً ـ كان يتخصَّر بها رسول الله ﷺ . فقال لعبد الله : « تخصّرْ بها حتى تلقاني بها يوم القيامة » فوضعت على بطنه وكُفِّن عليها ودفنت معه) ورجاله ثقات .

الصحابة يستضيئون بعصا أعطاها لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم

عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه قال : (خرجتُ ليلةً مِن الليالي مظلمةً فقلتُ : لو أتيت رسول الله ﷺ وشهدتُ معه الصلاة وآنسته بنفسي ، ففعلتُ ، فلما دخلتُ المسجد برقت السماء ، فرآني

رسول الله ﷺ فقال : « يا قتادة ما هاج عليك ؟ » .

قلت : أردتُ ـ بأبي وأمي ـ أن أؤنسك يا رسول الله .

فقال : « خذ هذا العُرجون ـ عصاً ـ فتحصَّن به ، فإنك إذا خرجتَ أضاء لك عشراً أمامك وعشراً خلفك » .

ثم قال لي : « إذا دخلت بيتك رأيت مثل الحجر الأخشن » .

قال : فضربتهُ حتى خرج من بيتي) .

رواه الإمام أحمد والطبراني ، كما في (مجمع الزوائد) .

وفي رواية : « فاضربه قبل أن يتكلم فإنه شيطان » .

تبرك الصحابة بنعل رسول الله ﷺ

روى البخاري والترمذي في (الشمائل) عن عيسى بن طَهْمان قال : أخرج إلينا أنس بن مالك نعلين جَرْداوَيْن ـ أي : صقيلتين لا شعر عليهما ـ لهما قِبالان ـ تثنية قِبال ، وهو زمام النعل ـ .

قال ابن طهمان : فحدثني ثابت البُناني بعدُ عن أنس ، أنهما كانتا نعلَيْ رسول الله ﷺ .

فأنس بن مالك يحتفظ بنعل رسول الله ﷺ عنده للبركة ، ويعرضها على زواره ، ليكرمهم ببركتها .

وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه خادمَ نعل رسول الله ﷺ وخادم السواك والوِساد .

وقد روى الحارث وابن أبي عمر ، من مرسل القاسم بن عبد الرحمن ، أن عبد الله بن مسعود كان إذا قام النبي ﷺ ألبسه نعليه ، وإذا جلس ﷺ جعلهما ـ ابن مسعود ـ في ذراعيه ـ أي : كل فردة في ذراع ـ حتى يقوم ﷺ ، فإذا قام ألبسه نعليه في رجليه .

وفي حمل ابن مسعود نعليْ رسول الله ﷺ حين يجلس ، في ذراعيه ، معنى التكريم والتبرك .

تبرك الصحابة بموضع جلوس رسول الله ﷺ على المنبر

أخرج ابن سعد في (الجزء الأول من الطبقات) عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبدٍ المعروف بالقاري ، أنه نظر إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وضع يده على موضع قعود النبي ﷺ من المنبر ، ثم وضعها على وجهه .

وروى ابن سعد أيضاً بإسناده ، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط قال : (رأيت ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا خلا المسجدُ أخذوا برمانة المنبر الصلعاء التي تلي القبر ، بيامنهم ، ثم استقبلوا القبلة يَدْعون) .

وقد أورد ابن سعد ذلك تحت عنوان : ذكر منبر رسول الله ﷺ .

تبرك التابعين بأيدي الصحابة رضوان الله عليهم لأنها مست يد النبي ﷺ

روى الإمام أحمد في (مسنده) عن ثابت البُناني أنه قال لأنس بن

مالك رضي الله عنه : (يا أنس مسستَ يد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم بيدك ؟

فقال أنس : نعم .

قال ثابت : أرني أقبِّلها ـ أي : لأنها مسَّتْ يد النبي ﷺ ـ).

وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن رزين : (أنه نزل الرَّبَذَة ـ بلدة قريبة من الشام ـ هو وأصحابه يريدون الحج .

قيل لهم : ها هنا سلمة بن الأكوع صاحب رسول الله ﷺ .

قال : فأتيناه ، فسلَّمنا عليه ، ثم سألناه .

فقال : بايعت رسول الله ﷺ بيدي هذه ، وأخرج لنا كفَّه ـ كفَّه ضخمة .

قال : فقمنا إليه ، فقبَّلنا كفَّيْه جميعاً ـ أي : تبركاً بأثر يد النبي ﷺ) .

ورواه البخاري في (الأدب المفرد) بلفظ : (فأخرج سلمة يديه وقال : بايعت بهاتين النبي ﷺ . .) الحديث .

وروى أبو نعيم في (الحلية) عن يونس بن ميسرة أنه قال : دخلنا على يزيد بن الأسود عائدين ، فدخل عليه واثلة بن الأسقع الصحابي رضي الله عنه ، فلما نظر إليه مدّ يده فأخذ يده فمسح ـ ابن الأسود ـ بها ـ أي : بيد واثلة ـ وجهه وصدره ، لأنه بايع رسول الله ﷺ .

فقال له واثلة بن الأسقع : يا يزيد بن الأسود كيف ظنُّك بربك ؟

فقال : حسن .

فقال واثلة : أبشر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعلى يقول : أنا عند ظن عبدي بي ، إنْ خيراً فخير ، وإن شراً فشر » .

يعني أنه إن ظن بالله خيراً عامله بظنه ، وإن ظن بالله شراً عاد سوء ظنه عليه .

اللهم إنا نسألك حسن الظن بك .

كما أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يكرمون أياديهم التي صافحوا بها رسول الله ﷺ .

فقد روى الطبراني عن الحكم بن الأعرج أن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : (ما مسستُ ذكري بيميني منذ بايعتُ بها رسول الله ﷺ) .

محبة الصحابة للنبي ﷺ

قال الله تعالى :

﴿ قلْ : إنْ كان آباؤكم وأبناؤكم ، وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارةٌ تخشوْن كسادها ، ومساكنُ ترضَوْنها ، أحبَّ اليكم من الله ورسوله ، وجهادٍ في سبيله ، فتربَّصُوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ .

فقد توعَّدَ الله عباده بالعقاب ، وحكم عليهم بالفسق ، فيما إذا كان

أحدُ هذه الأصنافِ المرغوبةِ المحبوبةِ ، أحبَّ إليهم من الله ورسوله ، وجهادٍ في سبيله ! بل الواجب عليهم أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليهم من جميع ذلك كله !

وأعظمُ صورة واقعية لمن كان الله ورسوله أحبَّ إليهم مما سواهما ، وأجلى مظهر ظهرت فيه تلك الحقيقة الأحبِّيَّة لله تعالى ولرسوله : هم أصحابُ سيدنا محمد ﷺ كما قال أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه ، وقد سئل : كيف كان حبكم لرسول لله ﷺ ؟

فقال : (كان رسول الله ﷺ أحبَّ إلينا من أموالنا وأولادنا ، وآبائنا وأمهاتنا ، وأحبَّ إلينا من الماء البارد على الظمأ) .

وتحققوا بقوله ﷺ : « لايؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والده وولده ، والناس أجمعين » .

وبقوله ﷺ : « ثلاث من كنَّ فيه وجد بهنّ حلاوةَ الإيمان : أن يكون الله ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما . . » الحديث .

وقد بذلوا نفوسهم إيماناً به ﷺ وحبّاً فيه ، وقدَّموه على نفوسهم ؛ فهم كما أمر الله تعالى وشرع لهم بقوله : ﴿ ولا يرغبون بأنفسهم عن نفسه . . ﴾ الآية .

بل رغبتهم بنفسه هي المقدَّمة على رغبتهم بأنفسهم ، وحبُّهم لنفسه ﷺ أعظم من حبهم لأنفسهم ، كما دلت على ذلك الوقائع ، وشهدت لهم الشواهد

ونذكر من ذلك أطرافاً موجزة :

أولاً ـ إيثارهم محبةَ النبي ﷺ على محبتهم لأنفسهم ، وتقديمهم له على نفوسهم :

ومن ذلك :

قصة زيد بن الدَّثِنَّة ، كما رواه أصحاب (السير) ، ورواها البيهقي عن عروة قال :

(لما أخرج المشركون في مكة زيد بن الدثنة من الحرم ليقتلوه بالتنعيم ـ لأنهم كانوا لا يقتلون في الحرم تعظيماً له ـ وقد اجتمع في الطريق خُبَيب وزيد بن الدثنة ، فتواصيا بالصبر والثبات على ما يلحقهما من المكاره .

قال أبو سفيان بن حرب ـ وهو يومئذ مشرك ـ قال لزيد بن الدَّثِنة : أنشدك بالله ـ أي : أسألك بالله ـ يازيد : أتحبُّ أن محمداً الآن عندنا مكانك ، تُضرَبُ عنقه ، وأنك في أهلك ـ أي : آمناً من القتل ـ.

فقال له زيد : والله ما أحبُّ أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة ، وأني جالس في أهلي ! .

فقال أبو سفيان : مارأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحبّ أصحاب محمدٍ محمداً !) .

فقد آثر زيد أن يقتل ، ولايصاب رسول الله ﷺ بأقلِّ شيء من الأذى .

قال الحافظ الزرقاني : وفي رواية : أنهم ناشدوا بذلك خُبيباً .

فقال : والله ماأحب أن يفديني رسول الله ﷺ بشوكة في قدمه ! .

ولا تنافي بين ذلك ، كأنهم قالوا ذلك لكل من خُبيب وزيد بن الدثنة .

وفي (المسند) عن أنس رضي الله عنه : (أن أبا طلحة كان يرمي بين يدي النبي ﷺ يوم أحد ، والنبي ﷺ خلفه يترَّسُ به ، وكان رامياً ، وكان إذا رمى رفع ﷺ شخصه ينظر أين يقع سهمه ، ويرفع أبو طلحة صدرَه ويقول : هكذا بأمي أنت وأبي يارسول الله لايصيبك سهم ! نحري دون نحرك ! وكان أبو طلحة يسوّر نفسه ـ أي : يجعل نفسه سوراً ـ بين رسول الله ﷺ ويقول : إني جَلْد ـ أي : شديد ـ يارسول الله ، فوجِّهني في حوائجك ، ومُرْني بما شئت) .

ومن ذلك :

مارواه البيهقي وابن إسحاق ـ كما حكاه في (الشفا) وغيره ـ أن امرأة من الأنصار قد قتل أبوها وأخوها وزوجها ، شهداءَ يوم أحد مع رسول الله ﷺ .

فقالت لما أُخبرت بذلك : مافَعل رسول الله ﷺ ؟ وأرادت بذلك السؤال عن سلامته وبقائه ، وعبَّرت بذلك تأدباً ، لأن الفعل يستلزم الحياة . ـ وفي بعض النسخ : قالت : مافُعل برسول الله ﷺ ـ

قالوا : خيراً هو بحمد الله كما تحبّين .

أي : هو سالم منصور مظفّر .

فقالت : أرونيه حتى أنظر إليه .

فلما رأته ﷺ قالت : كل مصيبة بعدك ـ أي : بعد سلامتك ورؤيتك ـ جَلَل ـ أي : هينٌ حقير ، كما في (النهاية) .

ثانيا ـ شَغَفُهم به ﷺ وتعشُّقهُم إيَّاه ، فلا صبر لهم ، إذا لم يشهدوا محيَّاه ، فإذا شاهدوا رسول الله ﷺ قرّت أعينهم ، وطابت نفوسهم ، وانشرحت صدورهم .

روى الطبراني عن عائشة رضي الله عنها ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رجلاً ـ هو ثوبان أو عبد الله بن زيد صاحب قصة الأذان ـ أتى النبيَّ ﷺ فقال : يارسول الله لأنت ـ أي : والله لأنت ـ أحبُّ إليَّ من أهلي ومالي ، وإني لأذكرك فما أصبر حتى أجيء إليك ـ أي : فيطمئن قلبي وتقرَّ عيني ـ وإني ذكرت موتي وموتك فعرفتُ أنك إذا دخلت الجنة رُفعتَ مع النبيين ، وإنْ دخلتُها لاأراك ـ أي : لأنك في مقام لايصل إليه غيرك ـ.

فأنزل الله تعالى : ﴿ ومَن يُطعِ الله والرسولَ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِدِّيقين والشهداء والصالحين ، وحَسُن أولئك رفيقاً ﴾ فدعا به النبيُّ ﷺ ـ أي : طلب حضوره ـ فقرأ الآية عليه .

قال الحافظ الزرقاني : والمراد بالمعيّة والمرافقة : كونُه في الجنة يستمتع فيها برؤيتهم وزيارتهم ، والحضور معهم متى شاء ، وليس المراد التسوية في المنزلة . اهـ

وروى الإمام البغوي عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ ـ أي : اشتراه رسول الله ﷺ وأعتقه ـ وكان شديد الحبّ لرسول الله ﷺ ، قليلَ الصبر

عنه ، فأتاه ذات يوم وقد تغيَّر لونه .

فقال له رسول الله ﷺ : « ماغيَّر لونك ؟ » .

فقال : يارسول الله ما بي مرض ولا وَجَع ، غير أني إذا لم أرَكَ استوحشتُ وحشةً شديدة حتى ألقاك ، ثم ذكرت الآخرة فأخاف أن لاأراك ، لأنك ترفع مع النبيين ، وإني إن دخلتُ الجنة فأنا في منزلة أدنى من منزلتك ـ أي : فتقل رؤيتي لك ولا أطيق ذلك ـ وإن لم أدخل الجنة لاأراك أبداً ـ فالأمر أهمُّ وأعظم ـ .

فنزلت : ﴿ ومَن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم . . ﴾ الآية .

فكان أصحاب النبي ﷺ لاتطيب نفوسهم ولا تقر أعينهم إلا بمشاهدته ﷺ حباً فيه وإيماناً به ! .

وفي ذلك يقول أبو هريرة رضي الله عنه ، كما رواه عنه الإمام أحمد ، أنه قال :

قلت : يارسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرَّت عيني ـ فأنبئني عن كل شيء ؟

فقال ﷺ : « كلُّ شيء خُلق من ماء » أي : ماء الحياة المذكور في الآية : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ وهو الماء المشتمل على جميع عناصر الحياة ـ غير الماء المعروف ، فإنه أحد العناصر .

فقال أبو هريرة : قلت : يارسول الله أنبئني عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة ؟

فقال : « أفشِ السلام ، وأطعم الطعام ، وصِلِ الأرحام ، وقم بالليل والناس نيام ، ثم ادخلِ الجنةَ بسلام » .

ثالثاً ـ رضاهم بمعيَّتهم لرسول الله ﷺ ومرافقتِه ، فإذا حصل ذلك لهم فسلامهم على الدنيا وما فيها من ذهبها وفضتها وسائر أموالها ! .

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه ، أن أناساً من الأنصار قالوا حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء ـ أي : أعطاه الله تعالى غنائم كثيرة ـ فطفِق رسول الله ﷺ وهو بالجِعْرانة ، يعطي رجالاً من قريش المائةَ من الإبل .

فقالوا : يغفر الله لرسوله الله ﷺ ! يعطي قريشاً ويَدَعُنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ؟! أي : تقطر من دماء كفار قريش بمحاربتنا إياهم حتى يدخلوا في الإسلام .

فحُدِّث رسول الله ﷺ بمقالتهم ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أَدَم ـأي :جلد ـ ولم يَدْعُ معهم أحداً غيرهم .

فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال : « ما حديثٌ بلغني عنكم ؟ » .

فقال فقهاؤهم ـ أي : علماؤهم وعقلاهم ـ أمّا ذَووا رأينا ـ أي : أصحاب العقول والفهم منا ـ يارسول الله فلم يقولوا شيئاً ، وأما ناس منا حديثةٌ أسنانهم قالوا : يغفر الله لرسول الله ﷺ يُعطي قريشاً ويدعُ الأنصار ، وسيوفُنا تقطر من دمائهم ؟ ! .

فقال رسول الله ﷺ : « إني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر

أتألّفهم ، أما ترضَوْن أن يذهب الناس بالأموال ، وترجعون إلى رحالكم ـ أي : منازلكم في المدينة ـ برسول الله ﷺ ؟ فوالله لما تنقلبون به ـ أي : ترجعون به ـ خير مما ينقلبون به » .

قالوا : يا رسول الله قد رضينا .

فقال لهم النبي ﷺ : « فستجدون أَثَرةً شديدة ، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ، فإني على الحوض » .

وفي رواية لهما أيضاً :

أن النبي ﷺ قال : « إن قريشاً حديثو عهدٍ بجاهلية ومصيبة ، وإني أردت أن أجبرهم وأتألّفهم ، أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا ، وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم ؟ » .

قالوا : بلى ـ أي : رضينا ـ .

فقال ﷺ : « لو سلك الناس وادياً ، وسلكتِ الأنصار شِعباً ، لسلكتُ واديَ الأنصار أو شعب الأنصار » .

وفي رواية (مسند) أحمد : أن النبي ﷺ قال : « يامعشر الأنصار ألَم آتكم ضُلالاً فهداكم الله ؟ ! وعالةً فأغناكم الله ؟ ! وأعداءً فألف الله بين قلوبكم ؟ ! » .

قالوا : بلى يارسول الله .

ثم قال رسول الله ﷺ : « ألا تجيبون يامعشر الأنصار ؟ » .

قالوا : وما نقول يارسول الله وبماذا نجيبك ؟ المَنُّ لله ولرسوله ! .

قال : « والله لو شئتم لقلتم فصَدقتم وصدَّقتُكم :

جئتَنا طريداً فآويناك ، وعائلاً فأغنيناك ، وخائفاً فآمّناك » .

فقالوا : الحق لله ولرسوله .

فقال رسول الله ﷺ : « أوَجدتم في نفوسكم يامعشر الأنصار في لُعاعة[1] من الدنيا تألّفت بها قوماً أسلموا ، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام ؟ .

أفلا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير ، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ؟ ! .

فو الذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شِعباً ، وسلكتِ الأنصار شعباً ، لسلكتُ شعب الأنصار .

ولولا الهجرةُ لكنت امرءاً من الأنصار .

اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » .

قال : فبكى القوم حتى أخْضلوا لحاهم ـ من الدموع ـ .

وقالوا : رضينا بالله رباً ، ورسوله قَسْماً ـ ثم انصرف وتفرَّقوا .

رابعاً ـ حرصهم الشديد على مرافقة النبي ﷺ في جميع العوالم ، واهتمامُهم بذلك في دعائهم أوقات الإجابة .

روى ابن جرير بإسناده عن الربيع ، أن أصحاب النبي ﷺ قالوا : قد علمنا أن النبي ﷺ له فضل على مَن آمن به في درجات الجنة ممن اتبعه فصدَّقه ، وكيف لهم إذا اجتمعوا في الجنة أن يرى بعضهم بعضاً ـ

(١) اللعاعة : بضم اللام ، معناها هنا الشيء اليسير .

أي : يروا رسولَ الله ﷺ ـ .

فأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ ومَن يطعِ الله والرسولَ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم . . ﴾ الآية .

وهذا السبب الوارد في نزول الآية لايتنافى مع ما تقدم من الأسباب ، فإن الآية الواحدة قد تنزل في عدة أسباب ، على أن هذه الأسباب كلها من باب واحد ، وهو سؤال الصحابة عامة وخاصة ، عمَّا يجمعهم برسول الله ﷺ في عوالم الآخرة ، بحيث يكونون معه لا ينقطعون عنه أبداً

ومن ذلك :

ما رواه مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه ، أنه قال :

كنتُ أبيتُ عند رسول الله ﷺ فأتيتُه بوَضوئه وحاجته .

فقال لي : «سَل» .

فقلت : يارسول الله أسألك مرافقتَك في الجنة .

فقال ﷺ : « أوْ غير ذلك » .

قلت : هو ذاك .

قال ﷺ : « فأعني على نفسك بكثرة السجود » .

ومن ذلك : ما رواه ابن أبي شيبة عن أبي عبيدة قال : سئل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : ما الدعاءُ الذي دعوتَ به ليلةَ قال لك رسول الله ﷺ : « سَلْ تُعْطَه ؟ » .

قال ابن مسعود : قلت : (**اللهم إني أسألك إيماناً لايرتدُّ ، ونعيماً لاينفد ، ومرافقة نبيِّك ﷺ في أعلى درجة الجنةِ جنةِ الخلد**) .

وروى أبو نعيم عن أبي عبيدة عن أبيه عبد الله بن مسعود قال :

(بينما أنا أصلي ذاتَ ليلةٍ ، إذْ مَرَّ بي النبي ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما .

فقال النبي ﷺ : « سَلْ تعطه » .

قال عمر : ثم انطلقت إليه ـ إلى ابن مسعود ـ فسألته : ما دعوتَ به ؟

فقال : إن لي دعاءً ما أكاد أن أدعه ـ أي : لاأكاد أتركه ـ .

اللهم إني أسألك إيماناً لايبيد ، ونعيماً لاينفد ، وقرة عين لاتنقطع ، ومرافقة نبيك محمد ﷺ في أعلى الجنة جنة الخلد) .

ولما احتُضر بلال رضي الله عنه نادت امرأته : (واحزناه ! .

فقال لها : واطرباه ! غداً ألقى الأحبهْ : محمداً وصحبه) .

خامساً ـ بكاء الصحابة رضي الله عنهم لألم فراقه ﷺ ، وبكاؤهم لتذكُر مجالسه ، وبكاؤهم عند ذكره ﷺ وتذكُّره والوحيُ ينزل عليه ، وما ينعكس عليهم من أسراره وأنواره ، وبكاؤهم لتذكر عهودهم معه ﷺ ، وبكاؤهم الشديد لوفاته ﷺ ، وبكاؤهم عند قبره الشريف ﷺ ـ وذلك كله دليل على شدة محبتهم للنبي ﷺ وشغفهم به .

ونحن نذكر من ذلك أطرافاً موجزة :

أ ـ بكاؤهم لألم مفارقته ﷺ :

فمن ذلك ما جاء عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن ، خرج يوصيه ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي في ظل راحلته ، فلما فرغ من وصيته قال : « يامعاذ إنك عسى أن لاتلقاني بعد عامي هذا ، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري » .

فبكى معاذ جَشَعاً ـ أي : جزعاً ـ لفراق رسول الله ﷺ .

ثم التفت ﷺ فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال : « إن أَوْلى الناس بي المتقون ، مَن كانوا وحيث كانوا » .

قال الزرقاني : رواه أحمد وأبو يعلى برجال ثقات .

وقال الهيثمي : رواه أحمد بإسنادين ، ورجال الإسنادين رجال الصحيح ، غير راشد بن سعد وعاصم بن حميد ، وهما ثقتان . اهـ .

ب ـ بكاؤهم لتذكرهم مجالسه ﷺ :

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : (مرَّ أبو بكر والعباس بمجلسٍ من مجالس الأنصار ، وهم يبكون ـ أي : وذلك في حال مرضه ﷺ ـ .

فقال ـ أحدهما ـ : ما يبكيكم ؟

فقالوا : ذكرنا مجلس النبي ﷺ منا .

فدخل أحدهما على النبي ﷺ فأخبره بذلك .

فخرج النبي ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية بُرْد ، فصعِد المنبر ـ ولم يصعَدْه بعد ذلك اليوم .

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أوصيكم بالأنصار ، فإنهم كَرِشي وعَيْبتي ـ أي : هم موضع سرِّي وهم بطانتي ـ وقد قضَوا الذي عليهم ، وبقي الذي لهم ، فاقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم ») .

جـ ـ بكاؤهم عند ذكره ﷺ وتذكره ﷺ والوحيُ ينزل عليه :

روى الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه قال :

(قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما بعد وفاة النبي ﷺ : انطلق بنا إلى أم أيمن رضي الله عنها نزورها ، كما كان رسول الله ﷺ يزورها .

فلما انتهيا إليها بكت .

فقالا لها : ما يُبكيك ؟ أما تعلمين أن ما عند الله خيرٌ لرسول الله ﷺ ؟ ! .

فقالت : إني لأعلم أن ما عند الله تعالى خير لرسول الله ﷺ ، ولكنْ أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء ، فهيَّجَتْهُما على البكاء ، فجعلا يبكيان معها ـ أي : لتذكرهم رسول الله ﷺ ، ونزول الوحي عليه ، وتوارد تلك الأسرار والأنوار .

وأخرج ابن سعد عن عاصم بن محمد ، عن أبيه ، قال : ما سمعت ابن عمر ذكر رسول الله ﷺ إلا ابتدرت عيناه تبكيان .

وروى ابن سعد أيضاً عن أنس رضي الله عنه قال : ما من ليلة إلا وأنا أرى فيها حبيبي ﷺ - ثم يبكي .

ومن ذلك : ما رواه ابن عساكر بسند جيد - كما نص عليه الحافظ الزرقاني - عن بلال رضي الله عنه ، أنه لما نزل بدارَيّا - اسم مكان قريب من الشام - رأى النبيَّ ﷺ - أي : بعد وفاته ﷺ - وهو يقول : « ما هذه الجفوة يا بلال ؟ أما آن لك أن تزورني » ؟

فانتبه بلال حزيناً خائفاً ، فركب راحلته وقصد المدينة ، فأتى قبر النبي ﷺ فجعل يبكي ويمرغ وجهه عليه .

فأقبل الحسن والحسين رضي الله عنهما ، فجعل بلال يضمُّهما ويقبِّلهما .

فقالا له : نتمنى نسمعُ أذانك الذي تؤذن به لرسول الله ﷺ في المسجد .

فَعَلا سطح المسجد ووقف موقفه الذي كان يقف فيه ، فلما قال : الله أكبر الله أكبر : ارتجَّت المدينة .

فلما قال : أشهد أن لا إله إلا الله : ازدادتْ رجَّتها .

فلما قال : أشهد أن محمداً رسول الله : خرجَت العواتق - النساء - من خدورهنَّ وقالوا : أَبُعثَ رسول الله ﷺ ؟

فما رؤي يوم أكثر باكياً ولا باكية بالمدينة بعده ﷺ أكثر من ذلك اليوم .

وذلك لتذكرهم رسول الله ﷺ بسبب سماع الأذان من مؤذنه ﷺ .

وأخرج ابن عساكر عن زيد بن أسلم قال :

خرج عمر بن الخطاب ليلة يحرس ، فرأى مصباحاً في بيت ، فدنا ، فإذا عجوز تطرق شَعراً لها - أي : تنفشه - لتغزله وهي تقول :

على محمد صلاة الأبرار
صلى عليك المصطفَوْن الأخيار
قد كنتَ قوّاماً بكى الأسحار
يا ليت شعري والمنايا أطوار
هل تجمعني وحبيبي الدار

تعني : النبي ﷺ .

فجلس عمر يبكي ، فما زال يبكي حتى قرع الباب عليها .

فقالت : من هذا ؟

فقال : عمرُ بن الخطاب .

قالت : ومالي ولعمر ؟ وما يأتي بعمر في هذه الساعة ؟

فقال : افتحي رحمكِ الله فلا بأس عليك .

ففتحت له فدخل .

فقال لها : ردِّدي عليَّ الكلماتِ التي قلت آنفاً ، فرددت عليه فلما بلغت آخرها قال : أسألك أن تُدخليني معكما - أي : في الدعاء - قالت :

وعمر فاغفر له يا غفار

فرضي ورجع ـ كما في (المواهب وشرحها) .

وعلى هذا جرى خيار التابعين وأتباعهم رضي الله عنهم .

قال مصعب بن عبد الله : كان الإمام مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه حتى يصعب على جلسائه .

فقيل له في ذلك ؟

فقال ـ مالك ـ : لو رأيتم ما رأيتُ لما أنكرتم عليَّ ما ترون ؛

لقد رأيت محمد بن المنذر ـ وهو سيد القرّاء ـ لانكاد نسأله عن حديث إلا يبكي حتى نرحمه ؛

ولقد كنت أرى السيد جعفراً الصادق بن السيد محمد الباقر كثير التبسم ، ولكن إذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفرَّ لونه ، مهابةً وإجلالاً ! .

قال مالك : وما رأيت جعفراً الصادق يحدِّث عن رسول الله ﷺ إلاّ على طهارة .

قال مالك : ولقد اختلفتُ زماناً ـ أي : ترددت إليه كثيراً ـ وما كنت أراه إلا على ثلاثِ خصال : إما مصلياً ، وإما صامتاً ـ أي : مستغرقاً بالتفكير في آيات الله تعالى ـ وإما يقرأ القرآن .

قال : وكان السيد جعفر من العبّاد الذين يخشون الله تعالى . اهـ .

وقال مالك : ولقد كنت آتي عامر بن عبد الله بن الزبير ، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع . اهـ .

وكان الزهري من أهنأ الناس ـ أي : أشدهم هناءة وسهولة ولياناً ـ

فإذا ذكر النبيّ ﷺ فكأنك ما عرفته ولا عرفك .

أي : من إجلاله ومهابته النبيَّ ﷺ .

وكان قتادة المفسر إذا سمع الحديث يُقرأ عنده ، أخذه العويل ـ أي : البكاء ـ والزويل ـ أي : القلق ـ والانزعاج من سلطان المحبة والمهابة .

كما ذكر ذلك كلُّه القاضي عياض في (الشفا) ونقله القسطلاني في (المواهب) .

وكان عبد الرحمن بن القاسم إذا ذكر النبي ﷺ يُنظر إلى لونه كأنه قد نَزَف منه الدم وقد جَفَّ لسانه في فمه .

د ـ بكاؤهم لتذكُّرهم عهودَهم معه ﷺ :

ومن ذلك ما جاء عن يحيى بن جعدة قال :

عاد خبَّاباً ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : أبشر يا أبا عبد الله تَرِد على محمد ﷺ الحوضَ ؛

فقال : كيف بهذا ؟ وأشار إلى أعلى البيت وأسفله ـ وفي البيت قليل من الأمتعة والوسائد ـ وقد قال رسول الله ﷺ : « إنما يكفي أحدَكم كزاد الراكب » .

يعني : أنه بكى خوفاً من أن يكون قد توسَّع في حطام الدنيا ومتاعها ، فوق زاد الراكب ، كما عهد إليهم رسول الله ﷺ .

قال الحافظ المنذري : رواه أبو يعلى والطبراني بإسناد جيد .

وعن عامر بن عبد الله أن سلمان الخير رضي الله عنه حين حضرته الوفاة عرفوا منه بعض الجزع .

فقالوا : ما يجزعك ـ أي : ما يخيفك ـ يا أبا عبد الله وقد كانت لك سابقة في الخير؟ شهدتَ مع رسول الله ﷺ مغازي حسنة ، وفتوحاً عظاماً ؛

فقال : يُجزعني أن حبيبنا ﷺ حين فارقَنا عَهِد إلينا : « لِيَكْفِ المرءَ منكم كزاد الراكب » فهذا الذي أجزعني ـ جعلني في خوف ـ .

قال : فجمع مال سلمان فكان قيمته خمسة عشر درهماً .

رواه ابن حبان في (صحيحه) كما في (الترغيب) .

فخاف سلمان أن يكون خالفَ عهد حبيبه ﷺ بأن جمع من المال فوق زاد الراكب .

هـ ـ ضجيج بكاء الصحابة لوفاة سيدنا محمد رسول الله ﷺ :

قال في (المواهب وشرحها) : أخرج ابن منده وابن عساكر ـ واللفظ له ـ عن أبي ذؤيب الهذلي أنه قال :

بلغنا أن النبي ﷺ مريض ، فأوجس أهل الحيّ خيفة على النبي ﷺ وبتُّ بليلة طويلة ، حتى إذا كان قرب السحر نمت ، فهتف بي هاتف يقول :

خطبٌ أجلُّ أناخ بالإسلام
بين النخيل ومقعد الآطام

قُبِض النبي محمدٌ فقلوبنا
تذري الدموعَ عليه بالتَّجسام

قال : فانتبهت من نومي فزِعاً ، وعلمت أن النبي ﷺ قبض ، فقدمت المدينة ولأهلها ضجيجٌ بالبكاء كضجيج الحجيج أهلُّوا جميعاً بالإحرام .

فقلت : مَهْ ـ أي : ما السببُ في هذا البكاء ؟ ـ

فقالوا : قبض رسول الله ﷺ !

قال القسطلاني رحمه الله : وقد كانت وفاته ﷺ يوم الإثنين بلا خلاف ، وقتَ دخوله المدينة في هجرته ، حين اشتد الضَّحاء .

ودفن ﷺ يوم الثلاثاء ، وقيل : ليلة الأربعاء ، وقيل : يوم الأربعاء . اهـ .

وقال في (لطائف المعارف) : وكانت وفاته ﷺ في يوم الإثنين في شهر ربيع الأول بلا خلاف .

واختلفوا في تعيين ذلك اليوم من الشهر ، فقيل : كانت وفاته ﷺ أول الشهر ، وقيل ثانيه ، وقيل ثاني عشره ، وقيل ثالثَ عشره ، وقيل خامسَ عشره ، والمشهور أنه كان ثاني عشر ربيع الأول . اهـ .

وقد روى ابن إسحاق وغيره أن وفاته ﷺ كانت ثاني عشر ربيع الأول ـ وعليه الجمهور .

وأخرج الواقدي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : بينا نحن

مجتمعون نبكي لوفاة رسول الله ﷺ لم ننمْ ، ورسول الله ﷺ في بيوتنا ، ونحن نتسلّى برؤيته على السرير ، إذ سمعنا صوت الكرازين ـ أي : صوت الفؤوس يُحفر بها ـ في السحر .

قالت أم سلمة : فصحنا وصاح أهل المدينة ، فارتجت المدينة صيحة واحدة وأذن بلال بالفجر ، فلما ذكر النبي ﷺ ـ بقوله : أشهد أن محمداً رسول الله ـ بكى بلال وانتحب ، فزادنا حزناً وعالج الناس الدخول ـ أي : الوصول إلى قبره ﷺ ـ فغلق دونهم ـ أي :منعوا من الهجوم إلى القبر الشريف وقت الدفن الشريف ـ

قالت : فيا لها من مصيبة ما أصبنا بعدها بمصيبة إلا هانت ، إذا ذكرنا مصيبتنا به ﷺ .

وجاء بعض هذا الحديث في (طبقات) ابن سعد .

ولا شك أن المصيبة بوفاته ﷺ هي أعظم المصائب .

وقد روى مالك في (الموطأ) أن النبي ﷺ قال : « ليُعَزِّ المسلمين في مصائبهم المصيبةُ بي » .

وروى ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال في مرضه الذي توفي فيه : « يا أيها الناس أيُّما أحدٍ من المؤمنين أصيب بمصيبة ، فليتَعزَّ بمصيبته بي ، عن المصيبة التي تصيبه بغيري ، فإن أحداً من أمتي لن يُصاب بمصيبة : بعد أشدَّ عليه من مصيبتي » أي : المصيبة بوفاته ﷺ .

وأخرج مالك عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : (بكى الناس

على رسول الله ﷺ حين مات ، وقالوا : والله وددنا أنا متنا قبله ، ونخشى أن نفتن بعده) .

انظر ذلك في (البداية) .

وأخرج الطبراني عن عائشة رضي الله عنها قالت :

قالت صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها ، ترثي رسول الله ﷺ :

ألا يا رسولَ الله كنتَ رجاءنا
وكنت بنا برّاً ولم تكُ جافيا
وكنت رحيماً هادياً ومعلِّما
ليبكِ عليكَ اليوم من كان باكياً
لعَمريَ ما أبكي النبيَّ لموته
ولكن لهَرْجٍ كان بعدك آتيا
كأن على قلبي لفقد محمدٍ
ومن حبّه من بعد ذاك المكاويا
أفاطمُ صلى الله ربُ محمدٍ
على جدَثٍ أمسى بيثرب ثاوياً
أرى حسناً أيتمْتَه وتركتَه
يبكي ويدعو جدَّه اليوم نائياً
فِدىً لرسول الله أمي وخالتي
وعمي وخالي ثم نفسي ومالياً

صبرتَ وبلغتَ الرسالة صادقاً
ومتَّ قويَّ الدين أبلجَ صافيا
فلو أن ربَّ العرش أبقاك بيننا
سَعِدنا ، ولكنْ أمره كان ماضيا
عليك من الله السلام تحيةً
وأُدخلتَ جناتٍ من العدن راضياً

قال الحافظ الهيثمي : رواه الطبراني وإسناده حسن .اهـ وانظره في (المواهب وشرحها)

و ـ بكاء الصحابة عند قبر النبي ﷺ متذكرين مواعظه ووصاياه :

ومن ذلك : ما جاء عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، أن عمر رضي الله عنه خرج إلى المسجد ، فوجد معاذاً عند قبر النبي ﷺ يبكي .

فقال له عمر : ما يبكيك ؟

فقال معاذ : حديث سمعته من النبي ﷺ قال : « اليسير من الرياء شرك ، ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة .

إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء ، الذين إن غابوا لم يُفتَقدوا ، وإن حضروا لم يُعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل غبراءَ مظلمة » .

قال في (الترغيب) : رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي في (الزهد) ، وقال الحاكم صحيح ولا علة له . اهـ .

وروى البيهقي عن ابن أبي فُديك قال : سمعت بعض من أدركت من العلماء يقول : بلغنا أنه من وقف عند قبر النبي ﷺ فتلا هذه الآية : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ﴾ إلى ﴿ تسليماً ﴾ ثم قال :

صلى الله عليك يا رسول الله سبعين مرةً ناداه ملك : صلى الله عليك يا فلان ، ولم تسقط له حاجة ـ أي : لا ترد حاجته ، ولا يخيب دعاؤه بوجاهة الحبيب ﷺ عند الله القريب المجيب .

إفاضة القبر الشريف بالأسرار والأنوار ، والخيرات والبركات على صاحبه أفضل الصلوات والتسليمات

قال الإمام الدارمي في (سننه)**باب ما أكرم الله تعالى نبيه ﷺ بعد موته .**

ثم روى بإسناد عن أبي الجوزاء أوس بن عبد الله قال :

قُحط أهل المدينة قحطاً شديداً ، فشكوا إلى عائشة رضي الله عنها .

فقالت : انظروا قبر النبي ﷺ فاجعلوا منه كُوَىً ـ أي:نوافذ مفتَّحة ـ إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف .

قال : ففعلوا ، فمطرنا مطراً ـ أي: كثيراً ـ حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تَفَتَّقَتْ من الشحم ، فسمِّي : عام الفتق

ومن ذلك : سماع الأذان من القبر الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والسلام :

فقد روى الدارمي أيضاً تحت عنوان ذلك الباب ـ روى بإسناده عن

سعيد بن عبد العزيز قال : لما كان أيام الحرَّة لم يؤذَّن في مسجد النبي ﷺ ثلاثاً ولم يُقَم .

قال : ولم يَبْرَح سعيد بن المسيّب من المسجد ، وكان لا يعرف وقت الصلاة إلا بهمهمة يسمعها من قبر النبي ﷺ .

ورواه ابن النجار بلفظ : إنّ الأذان تُركَ في أيام الحرَّة ثلاثة أيام ، وخرج الناس ، وبقي سعيد بن المسيب في المسجد .

قال : فلما حضرت الظهر سمعت الأذان في القبر ـ الشَّريف ـ فصليتُ ركعتين ، ثم الإقامة فصليتُ الظهر ، ثم مضى ـ أي : استمرّ ـ ذلك الأذان والإقامة في القبر المقدس لكل صلاة حتى مضت الثلاث ليال ـ يعني : ليالي أيام الحرَّة .

وفي ذلك إكرامٌ من الله تعالى لسعيد بن المسيب حيث أسمعه ذلك ومؤانسةً له .

وقد روى البيهقي وصححه ، وروى أبو يعلى والبزاز وابن عدي من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « الأنبياء أحياءٌ في قبورهم يصلون » .

ويشهد لذلك ما جاء في (صحيح) مسلم والنسائي عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أتيت ليلة أُسريَ بي على موسى قائماً يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر » .

تمسح الملائكة بالقبر الشريف
على صاحبه أفضل الصلاة والسلام
تبركاً وتشرفاً به

روى الدارمي بإسناده أن كعباً ـ أي : كعب الأحبار ـ دخل على عائشة رضي الله عنها ، فذكروا رسول الله ﷺ .

فقال كعب : (ما من يوم يطلع إلّا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفُّوا بقبر النبي ﷺ يضربون بأجنحتهم) .

وفي رواية ابن النجار وغيره (يضربون قبر النبي ﷺ ـ أي : يمسحون القبر الشريف بأجنحتهم تبركاً وتشرفاً به ـ ويصلون على رسول الله ﷺ حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثل ذلك حتى إذا انشقَّت عنه الأرض خرج ﷺ في سبعين ألفاً من الملائكة يزفُّونه) .

وفي روايات غير الدارمي : (يوقرونه) .

قال الحافظ الزرقاني : أي : يعظمونه ﷺ إكراماً .

قال : ولعل كعباً علم هذا من الكتب القديمة لأنه حبرها . اهـ .

ورواه ابن النجار وابن أبي الدنيا وأبو الشيخ والقرطبي في (التذكرة) كما في (المواهب) .

هذا وقد تمَّ بفضل الله تعالى وعونه ، جمعُ هذا الكتاب ، وتصنيفه في يوم الإثنين الموافق ١٠ من شهر رجب سنة ١٣٩٤ هجرية ، وسوف يعقبه إن شاء الله تعالى كتاب : (سيدنا محمد ﷺ معجزاته وآيات نبوته) .

فنسأل الله تعالى أين يمنَّ علينا بالعافية والتوفيق ، وأن يبارك في عمرنا وعملنا ، وأن يجعل ذلك خالصاً لوجهه الكريم .

كما وأنني أسأل الله تعالى أن يتقبل مني - بل : يتقبل عني - عملي ، وأن يتجاوز عن تقصيري في هذا الكتاب تُجاه رسول الله ﷺ ، وأن يعفو عن ذنبي وزللي ، فإنه وإن كانت بضاعتي مزجاة ولكن رحمته سبحانه مرجاة .

وإنني أسأل الله العظيم بجاه رسوله الكريم ﷺ أن يرفع مقام والدي وسيدي وشيخي الشيخ العالم العارف المحدِّث المفسِّر محمد نجيب سراج الدين رحمه الله تعالى في أعلى مراتب المقرَّبين ، وأن يجزيه عني خير الجزاء ، وأن يُغدِق عليه كريم العطاء ، وعلينا وعلى إخواننا وأحبابنا والمسلمين أجمعين .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد إمام الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وأصحابه والتابعين ، إلى يوم الدين ، كلَّما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون .

والحمد لله رب العالمين

* * * *

المحتوى

مقدمة الكتاب ٥

وجوب التعرف إلى رسول الله ﷺ وإلى شمائله الكريمة ٧

حول محاسن صورته ﷺ ، وفيه حديث أم معبد ١٣

تلألؤ وجهه المنير ﷺ ١٩

عرقه الشريف وطيب رائحته وتطيب الصحابة وتبركهم بعرقه ﷺ ٢٤

تطيب الصحابة بعرقه ﷺ وتبركهم به ٢٦

طيبه العبق ﷺ ٢٩

حول خصائص ريقه ﷺ ٣١

نظافته ﷺ ٣٣

أمره ﷺ بالنظافة ، وبيان ذلك من عشرة وجوه ٣٤

جماله ﷺ وتجمّله وأمره بذلك ٤٤

قوة بصره الشريف ﷺ ٤٨

حول قوة سمعه الشريف ﷺ ٥١

حول صوته الشريف ﷺ ٥٥

حلاوة منطقه ﷺ ٥٧

فصاحة لسانه وبلاغة كلامه ﷺ ٥٨
آدابه في الكلام ﷺ ، وفيه من آدابه في الخطبة ٦٠
مدحه ﷺ الفصاحة وكراهيته اللحن ٦٥
أربعون حديثاً من جوامع كلمه ﷺ ٦٦
١ : وصيته لابن عباس : يا غلام ٦٧
٢ : وصيته لابن عمر : كن في الدنيا كأنك غريب ٦٧
٣ : وصيته لسهل بن سعد : إزهد في الدنيا ٦٨
٤ : وصيته لسعد : عليك بالإياس ٦٩
٥ : بادروا بالأعمال سبعاً ٦٩
٦ : لا تكونوا إمّعة ٧٠
٧ : عليكم بالصدق ٧١
٨ : المرء مع مَنْ أحبَّ ٧٢
٩ : إياكم والظنَّ ٧٣
١٠ : المؤمن القويّ خير وأحب إلى الله ٧٤
١١ : اتقِ الله حيثما كنت ٧٤
١٢ : برّوا آباءكم ٧٥
١٣ : سبعة يظلهم الله في ظله ٧٥
١٤ : إن العبد يتكلم بالكلمة .. ورواياته ٧٦
١٥ : ثلاث أقسم عليهن .. وهو من الخطب النبوية ٧٧
١٦ : صنائع المعروف تقي ميتة السوء ٧٨

١٧ : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه ٧٩
١٨ : ثلاث من كنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ٧٩
١٩ : حق المسلم على المسلم ستّ ٨٠
٢٠ : دبّ إليكم داء الأمم قبلكم ٨٠
٢١ : إياكم والجلوسَ في الطرقات ٨١
٢٢ : من خاف أدلج ٨٢
٢٣ : من نفَّس عن مؤمن كربة ٨٢
٢٤ : لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة ٨٣
٢٥ : أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله ٨٤
٢٦ : أول خطبة جمعة صلاها ﷺ في المدينة ٨٤
٢٧ : من خُطَبه ﷺ : يا أيها الناس توبوا إلى الله ٨٨
٢٨ : ومنها : إن الدنيا حلوة خَضِرة ٨٩
٢٩ : ومنها : إن الله لا ينام ٩٠
٣٠ : ومنها : استحيوا من الله حقَّ الحياء ٩١
٣١ : ومنها : إن أولياء الله المصلّون ٩٢
٣٢ : ومنها : إياكم والظلمَ ٩٢
٣٣ : ومنها : يا معشر مَن أسلم بلسانه ٩٣
٣٤ : ومنها : إني فَرَط لكم ٩٤
٣٥ : ومنها : ألا وإن الدنيا عَرَض حاضر ٩٥
٣٦ : ومنها : احضُروا المنبر .. قال : آمين آمين آمين ٩٦

٣٧ : ومنها : ليظهرنَّ الإيمان حتى يردَّ الكفر ٩٧
٣٨ : ومنها : يا أيها الناس إنكم محشورون ٩٩
٣٩ : ومنها : نضَّر الله عبداً سمع مقالتي ١٠٠
٤٠ : من وصاياه ﷺ : أوصيك بتقوى الله ١٠١
٤١ : من خصائصه : فضلت على الأنبياء بستٍّ ١٠٣
أرجحية عقله ﷺ على سائر العقول ، وبيان ذلك من وجوه ،
وإقامة الشواهد من السيرة النبوية على ذلك بإسهاب ١٠٤
سعة علمه وكثرة علومه ﷺ التي لا يحصيها إلا الله تعالى ١٣٠
من أدلة سعة علمه : جَمْع الله تعالى له القرآن في صدره ﷺ ... ١٣٣
من أدلة سعة علمه : الحكمة النبوية المنزلة عليه وهي « الميزان » ١٤٣
من أدلة سعة علمه : إظهاره على المغيبات ، وذاك من تسعة وجوه ١٤٧
كلمة حول آية : ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا . . ﴾ ١٥٨
من أدلة سعة علمه: علمه بأصناف المخلوقات وأنواع أمم الحيوانات ١٦٢
قلبه الشريف ﷺ ، وأوصافه العظيمة ، وكم مرةً شُق قلبه ... ١٦٦
خاتم النبوة ، وأوصافه ، وحكمة موضعه ، و ١٧٦
حول خُلُقه العظيم ﷺ ١٨٥
سيدنا محمد ﷺ المثل الأكمل في الخلق والخُلُق ١٨٨
كمال لطفه ولين عريكته ﷺ ١٩١
انبساطه مع الأهل ﷺ ١٩٢
كريم عشرته مع زوجاته وسائر أهله ﷺ ١٩٣

استماعه ﷺ إلى حديث الزوجات بالمُلَح ، وفيه : حديث
أم زرع وشرح غريبه ١٩٦
كريم عشرته مع الناس كلهم ٢٠٣
أدبه الرفيع مع من يحدثه ﷺ ٢٠٣
حسن لقائه ﷺ وإقباله على جلسائه ٢٠٤
بسامته وطلاقة وجهه ﷺ ٢٠٥
ردّه ﷺ التحية بأحسن منها ٢٠٦
ترحيبه ﷺ بالقادم عليه ٢٠٦
سؤاله ﷺ عن أصحابه : كيف أنت ؟ ٢٠٧
إكرامه ﷺ كرام القوم ٢٠٨
مباسطته ﷺ لجلسائه واتساعه لهم ٢١٢
مزاحه ﷺ وحكم المزاح ٢١٣
تبسمه ﷺ حين يلقى أصحابه وحين يحدثهم ٢٢٠
حول ضحكه ﷺ وممَّ كان يضحك ، وحكم الضحك ٢٢١
ملاطفته ﷺ للصبيان وملاعبته لهم ٢٢٦
كمال لطفه وشدة اهتمامه ﷺ بمن يسأله عن أمور الدين ٢٢٨
مكافأته ﷺ الإكرام بأفضل إكرام ٢٣٢
مقابلته ﷺ الإحسان بأجمل إحسان ٢٣٢
تفقُّده ﷺ أصحابه ٢٣٤
حفظه ﷺ للودّ ٢٣٥

صدقه ﷺ في الوعد ٢٣٧
زياراته الكريمة ﷺ لأصحابه ٢٣٧
زياراته ﷺ لضعفاء المسلمين وأهل الصفَّة ٢٤٠
تفقُّده ﷺ أصحابه في الليل ، واستماعه إلى قراءتهم ٢٤١
ملاطفته ﷺ لجفاة الأعراب ٢٤٢
عظيم تواضعه ﷺ ٢٤٤
أمره ﷺ بالتواضع ٢٤٩
اختياره ﷺ أن يكون نبياً عبداً لا مَلِكاً ٢٤٩
في عظيم حلمه وعفوه ﷺ ٢٥٣
غضبه ﷺ لله تعالى وشدته لأمره ٢٥٨
غضبه ﷺ لا يخرجه عن الحق وصواب القول والعمل ٢٦٠
في عظيم كرمه ﷺ ٢٦١
في عظيم شجاعته ﷺ ٢٦٥
صبره على أذى المشركين وتحمُّله الشدائد في سبيل الله تعالى ٢٦٨
عدله ﷺ ٢٧٥
رحمته ﷺ للعالم ٢٧٨
رحمته ﷺ بالأهل والعيال ٢٨٢
رحمته ﷺ بالصبيان ٢٨٣
رحمته ﷺ باليتيم ٢٨٧
رحمته ﷺ بالحيوان ٢٨٨

رحمته ﷺ بالطيور ٢٩١
التدبر في قوله تعالى ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ ٢٩٣
في عظيم حيائه ﷺ . وفيه : أنواع الحياء ٢٩٧
مهابته العظيمة ﷺ ٣٠٣
خشيته ﷺ من الله تعالى ٣٠٦
خشوعه ﷺ لله تعالى وبكاؤه من خشيته ٣٠٩
جوامع من أوصافه الكريمة المشتملة على محاسن خَلْقه وخُلُقه وآدابه الخاصة والعامة ، وفيه حديث هند بن أبي هالة بطوله وتفسير غريبه ٣١١
صفات آدابه ﷺ في منطقه وسكوته ٣١٨
آدابه ﷺ إذا دخل منزله ٣٢١
سيرته وآدابه ﷺ إذا خرج من منزله وبرز للناس ٣٢٤
آدابه ﷺ في مجالسه ٣٢٨
سيرته ﷺ مع جلسائه وآدابه معهم ٣٣٢
سيرته ﷺ في سكوته ٣٣٧
من آدابه العامة : وقاره العظيم ﷺ ٣٣٩
تقديمه ﷺ كبير القوم في الكلام ٣٤٠
تكريمه ﷺ أهل الفضل ٣٤١
تحسينه ﷺ الحسن وتنشيطه على إتقان العمل ٣٤٤
مشاورته ﷺ لأصحابه ، والحِكَمُ في ذلك ٣٤٦
حثُّه ﷺ على الاستشارة ٣٤٨

تصويبه ﷺ الرأي الحسن وعمله بمقتضاه ٣٤٩
حبُّه ﷺ حسن الأسماء وكراهته قبيحها ٣٥٠
حبه ﷺ الفأل الصالح وكراهته التطيُّر ٣٥٣
حبُّه ﷺ التيمُّن في شأنه كله ٣٥٧
كراهته ﷺ إطلاق بعض الكلمات مخافة إيهامها ٣٦٠
حول عباداته ﷺ ٣٦٥
حقيقة العباده وما لها من آثار ٣٦٨
المنهاج الذي رسمه ﷺ العابدين ، وفيه : التنبيه إلى دقائق تَعْرِضُ للعابد ٣٧٣
حول تهجده ﷺ ٣٨٥
وقت قيامه ﷺ للتهجد ٣٨٨
أذكاره ﷺ حين يستيقظ لصلاة الليل ٣٩١
إطالته ﷺ في صلاة الليل ٣٩٤
استفتاحه ﷺ صلاة الليل ٣٩٦
هيئات صلاته ﷺ النافلة في الليل ٤٠٢
صلاته ﷺ في الضحى ٤٠٤
ذكره ﷺ الله تعالى قبل الضحى ٤٠٦
نوافله ﷺ بين المغرب والعشاء ٤٠٧
في دعائه ﷺ ٤٠٨
آدابه ﷺ في الدعاء ٤١٠

من جوامع أدعيته العامة ﷺ ٤١٩
أدعيته ﷺ في مناسبات متعددة ٤٢٧
حول تسبيحه وتحميده ﷺ ٤٤٦
حول استغفاره ﷺ ٤٥٠
نسبه الشريف ﷺ ، وشرح أسماء رجال النسب ٤٥٦
فضل نسبه الشريف ﷺ ٤٦١
طهارة نسبه الشريف ﷺ ٤٦٣
حول مولده الشريف ﷺ وآياته ٤٦٦
الابتهاج والاحتفال بيوم مولده ﷺ ٤٧٢
عناية الله تعالى به ﷺ منذ صغره ٤٧٦
تفسير سورة الضحى،وإزالة الالتباس في ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ ٤٨١
حفظ الله تعالى للنبي ﷺ من مساوىء الجاهلية منذ صغره ٤٩٤
سفره ﷺ إلى الشام للمرة الأولى والثانية ٤٩٩
زواجه ﷺ بخديجة رضي الله عنها ٥٠٢
أولاده ﷺ الكرام وفضل فاطمة عليهم جميعاً ٥٠٦
بعثته ﷺ وبدء نبوته ٥٠٩
حفظ الله تعالى له ﷺ من شر القرين الجني ٥١٧
حفظ الله تعالى له ﷺ من الخطأ والباطل في جميع أحواله ٥١٨
عصمته ﷺ من الخطأ ، وفيه بحث نفيس في أسرى بدر ، وبيان صواب فعله ﷺ من أحد عشر وجهاً ٥٢١

تابع المحتوى

البحث في صوابه ﷺ في قضية تأبير النخل على وجه دقيق ٥٣٤
الجواب عن قضية الحباب يوم نزولهم قرب ماء في بدر ٥٤٢
إفاضته ﷺ بالبركات والخيرات ٥٤٣
مسحاته الشريفة ﷺ وآثارها الطيبة الإيمانية والجسمانية وفيه تتبُّع نفيس ٥٤٨
مسحاته الشريفة ﷺ على الصدور ليثبت الإيمان في قلوب أصحابها ٥٥٤
رسول الله ﷺ يمسح وجه قتادة بن ملحان فيصير كالمرآة ٥٥٧
رسول الله ﷺ يعيد عين قتادة بن النعمان بعد سقوطها ٥٥٨
تقبيل الصحابة يد النبي ﷺ وأطرافه تعظيماً وتبركاً به واقتباساً من أنواره ﷺ ٥٦١
تقبيل الصحابة يده وقدميه وأطرافه ﷺ ٥٦٢
تقبيل الصحابة مواضع من جسده الشريف ﷺ ٥٦٥
تبركهم بأجزائه وآثاره في حياته وبعدها ﷺ وفيه أخبار لا توجد مجموعة في غير هذا الكتاب ٥٦٧
تبرك الصحابة بسؤر النبي ﷺ ٥٧٢
تبرك الصحابة بإناء مسه فم النبي ﷺ ٥٧٢
تبرك الصحابة بثياب رسول الله ﷺ واستشفاؤهم بها ٥٧٣
تبرك الصحابة بنخامة النبي ﷺ وبماء وضوئه ٥٧٤
مداواة النبي ﷺ أصحابه ببصاقه الشريف واستشفاؤهم بذلك . ٥٧٥
تبركهم بريقه الشريف ﷺ ٥٧٩
تبركهم بدمه ﷺ ٥٨١

تابع المحتوى

تبركهم بدراهم مسَّتْها يد النبي ﷺ ٥٨٤
تبركهم بعصا النبي ﷺ ٥٨٥
الصحابة يستضيئون بعصا أعطاها لهم رسول الله ﷺ ٥٨٧
تبركهم بنعل رسول الله ﷺ ٥٨٨
تبركهم بموضع جلوس رسول الله ﷺ على المنبر ٥٨٩
تبرك التابعين بأيدي الصحابة لأنها مست يده ﷺ ٥٨٩
محبة الصحابة للنبي ﷺ ، وبيانها من وجوه ٥٩١
الوجه الأول : إيثارهم محبته ﷺ على محبة أنفسهم ٥٩٣
الوجه الثاني : شغفهم به ﷺ وعدم صبرهم عن رؤيته ٥٩٥
الوجه الثالث : رضاهم بمعيَّته ﷺ ومرافقته ٥٩٧
الوجه الرابع : حرصهم الشديد على مرافقته ﷺ في جميع العوالم ٥٩٩
الوجه الخامس : بكاؤهم على فقد كل ما كان يصلهم بالنبي ﷺ ٦٠١
نماذج من سيرة التابعين في بكائهم وتغيّر حالهم إذا ذكر النبي ﷺ ٦٠٦
بكاء الصحابة لوفاته ﷺ وعند قبره الشريف ٦١٢
إفاضة القبر الشريف بالأسرار والأنوار ٦١٣
تمسح الملائكة بالقبر الشريف على صاحبه الصلاة والسلام ٦١٥
خاتمة الكتاب ٦١٦

تعريف ببعض كتب المؤلف :

١ ـ تلاوة القرآن المجيد : فضائلها ـ آدابها ـ مطالبها ـ خصائصها .

فيه بيان أنّ القرآن الكريم هو كلام الله تعالى على الحقيقة ، مع ذكر الدليل المفصل على ذلك ، وفيه الحضّ على تلاوة القرآن الكريم ، في زمن أعرض الناس عنها ، كما بيّن الآداب الظاهرة والباطنة عند التلاوة، ونشر صفحة من سيرة السلف الصالح في إكثارهم من تلاوة القرآن الكريم ، وأكد التحذير من ترك القرآن الكريم : قراءة له ، وتعلماً وتفهماً لآياته ، وعملاً به ، ثم جمع جملة وافرة من الأحاديث الواردة في فضائل سورٍ وآيات معينة ليكثر المسلم من تلاوتها .

٢ ـ هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان ـ القسم الأول ـ

هذا الكتاب يعتبر من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ويسير في دائرة قول الله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾ ، افتتح الكتاب ببيان أنّ القرآن الكريم كتاب هدي ودعوة إلى منهج الحق في الحجج والبينات ، وما ينبغي أن يكون موقف المسلم تجاه القرآن الكريم ، ثم فصّل منهج القرآن الكريم في دعوته وهديه للناس ، ثم نشر صفحة عن بعضٍ وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ـ هذا بعد إقامة الدليل على وحدانية الله تعالى وذكر الأدلة القطعية على أن سيدنا محمداً ﷺ هو رسول الله حقاً وصدقاً .

ثم بيّن : حفظ الله تعالى للقرآن الكريم في تبليغه وتلاوته ـ وردّ وبشكل لا مزيد عليه ـ بل بشكل مسهب ومفصل ولأول مرة ـ قصة الغرانيق الباطلة الزائفة ـ هذا وقد ختم الكتاب بذكر الروح القرآني وأثره في القلوب والنفوس مع أبحاث أخرى حول القرآن الكريم تجدها منتشرة في هذا الكتاب القيم .

٣ ـ التقرب إلى الله تعالى : فضله ـ طريقه ـ مراتبه .

وهذا الكتاب أيضاً من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ـ يسير في فلك قوله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ الآية . بيّن فيه الأمّة المصطفاة

ومراتبها عند الله تعالى ، كما فصل أثر العبادات على المرء المسلم وذكر ما فيها من التخلية من آثار الذنوب وتحليتها بأنوار الطاعات ، هذا مع بيان الطرق المقربة إلى الله تعالى ، وبيان درجات المقربين ، وكيفية الوصول إلى تلك المقامات العالية ـ شحذاً للهمم وتقوية للعزائم ـ مع ذكر حديث الأولياء والشرح الكامل له .

بالإضافة إلى أبحاث قيمة تجدها منتشرة في الكتاب يحتاج إليها المسلم في يومه وليلته ـ بل ليعتز المسلم بإسلامه ويفخر بإيمانه فيحافظ على انتمائه لأمة سيدنا محمد ﷺ .

ـ وقراءة الكتاب أكبر دليل على أن ما فيه أكثر بكثير مما ذكرت فيه ـ .

٤ ـ صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال :

أيضاً هذا الكتاب من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ويدور في فلك قول الله تعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ .

افتتح الكتاب ببيان الكلمة الطيبة « لا آله إلا الله » وثمراتها مع ذكر وجوه من الكلام حول الآية الكريمة : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة . . . ﴾ الآية ، ثم بيان جملة من العمل الصالح ، والأوقات التي ترفع فيها الأعمال ، وبيان واسطة الرفع ، وبعض موانع رفع الأعمال الصالحة ، وذكر الحكمة من رفع الأعمال ، وشرح حديث اختصام الملأ الأعلى ، ثم بيان باقة عطرة مما أكرم الله تعالى به عباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات .

٥ ـ سيدنا محمد رسول الله ﷺ شمائله الحميدة ، خصاله المجيدة .

وهو كتاب نفيس جامع في بيان صفة خَلْق النبي ﷺ ، وبيان خصائص تلك الخِلْقة المحمدية العظيمة ، على وجه مفصل ومرتب ومنقح .

وفيه تحت بيان فصاحة النبي ﷺ أربعون حديثاً شريفة من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام ، ويتبعه بيان واسع لأرجحية عقله الشريف على سائر العقول البشرية .

وفي فصل مسهب في سعة علمه وكثرة علومه ﷺ ، كله من الأحاديث النبوية ، وأقوال الصحابة رضي الله عنهم .

ثم عرض لبيان أخلاقه العظيمة الرفيعة على وجه التفصيل لكل خصلة خُلُقية في خاصة نفسه عليه الصلاة والسلام ، ومع أهله وذويه ، وأصحابه جميعهم على مختلف طبقاتهم . وفيه سرد حديث هند بن أبي هالة بطوله ، مع ضبط ألفاظه وشرحها .

ثم عرض لعباداته ﷺ ، وبيان المنهج الذي رسمه للعابدين . ومن ذلك بيان مفصَّل لطريقته ﷺ في قيام الليل ، وصلاة الضحى ، ودعائه ، ونحو ذلك . ثم تناول الكلام **عن نسبه الشريف ﷺ ، ومولده ﷺ ، وعجائب المولد ، ومشروعية الاحتفال بالمولد ، وطرف يسير من السيرة ، والحديث عن أهله وأولاده عليه وعليهم الصلاة والسلام .**

وفيه بحث علمي نفيس ممتع محقَّق ، عن عصمة النبي ﷺ من الخطأ في الاجتهاد ، والجواب عما يوهم خلاف ذلك ، كأسرى بدر وتأبير النخل .

وجاء في ختام الكتاب بسرد آثار سلفية فيها تبرك الصحابة والتابعين بأجزائه عليه الصلاة والسلام وآثاره وثيابه وموضع جلوسه ، وغير ذلك مما لمسه ﷺ .

ثم بيان محبة أصحابه له ﷺ ، وذكر شواهد ذلك من سيرتهم العطرة الزكية .

٦ ـ الإيمان بالملائكة عليهم السلام .

الإيمان بالملائكة من أركان الإيمان الستة ، وجاء هذا الكتاب يبحث عن هذا الركن بإسهاب مدلَّل عليه من الكتاب والسنة .

ففيه أولاً : بيان الحكم من الإيمان بالملائكة ، ثم الكلام على حقيقتهم ، وتمثلاتهم ـ مع التعرض لعالم المثال وذكر البراهين عليه من الكتاب والسنة .

ثم الحديث عن رؤساء الملائكة واحداً واحداً ، ثم عن حملة العرش ، والملأ الأعلى ، والكروبيّين ، والموكَّلين بالكتابة على الإنسان ، وبحفظه ، وعن مواقف الملائكة ووظائفهم المنوطة بالأكوان المحيطة بالإنسان .

ثم ختم الحديث عنهم بالكلام على عصمتهم من المعصية ، مع شرح قصة هاروت وماروت .

ثم ختم الكتاب ببحث موجز عن عالم الجن :

إثبات وجودهم بالآيات والأحاديث ، ومِمَّ خلقوا ، وصفاتهم ، وأنَّهم مكلفون بالشريعة ، وأصنافهم ، وكيف يستطيع الإنسان أن يحفظ نفسه من الشيطان ـ ثم عن مصيرهم يوم القيامة .

* * *

كتب للمؤلف رحمه الله تعالى

❊ حول تفسير سورة الفاتحة ـ أم القرآن الكريم .

❊ حول تفسير سورة الحجرات .

❊ حول تفسير سورة ﴿قٓ﴾ .

❊ حول تفسير سورة الملك .

❊ حول تفسير سورة الإنسان .

❊ حول تفسير سورة العلق .

❊ حول تفسير سورة الكوثر .

❊ حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين بعدها .

❊ هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان .

❊ هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان .

❊ تلاوة القرآن المجيد : فضائلها ـ آدابها ـ خصائصها .

❊ شهادة لا إلـٰه إلا الله محمد رسول الله ﷺ : فضائلها ـ معانيها ـ مطالبها.

* سيدنا محمد رسول الله ﷺ: خصاله الحميدة ـ شمائله المجيدة .
* الهدي النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية .
* التقرب إلى الله تعالى: فضله ـ طريقه ـ مراتبه .
* الصلاة في الإسلام: منزلتها في الدين ـ فضائلها ـ آثارها ـ آدابها .
* الصلاة على النبي ﷺ: أحكامها ـ فضائلها ـ فوائدها.
* صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال .
* الدعاء: فضائله ـ آدابه ـ ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات .
* حول ترجمة الشيخ الإمام محمد نجيب سراج الدين الحسيني رحمه الله تعالى .
* الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها .
* الإيمان بالملائكة عليهم السلام ـ ومعه بحث حول عالم الجن .

* الأدعية والأذكار الواردة آناء الليل وأطراف النهار .
* شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث .
* أدعية الصباح والمساء ومعها استغاثات .
* مناسك الحج ـ ومعه أحكام زيارة النبي ﷺ وآدابها .
* الصيام: آدابه ـ مطالبه ـ فوائده ـ فضائله .

* * * *

وكلها تطلب من مكتبة دار الفلاح

حلب : أقيول أمام جامع أسامة بن زيد رضي الله عنه

هاتف : ٣٢١٧٣٠٠ ـ ٣٢٢٤٩٠٠

من آثار الشيخ الإمام رحمه الله تعالى

* دروس حول تفسير بعض آيات القرآن الكريم .
* محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم. الجزء الأول والثاني.
* محاضرات حول الإسراء والمعراج: آثاره ـ فضائله ـ أسراره.

* * * *

وكلها تطلب من مكتبة دار الفلاح
حلب : أقيول أمام جامع أسامة بن زيد رضي الله عنه
هاتف : ٣٢١٧٣٠٠ ـ ٣٢٢٤٩٠٠